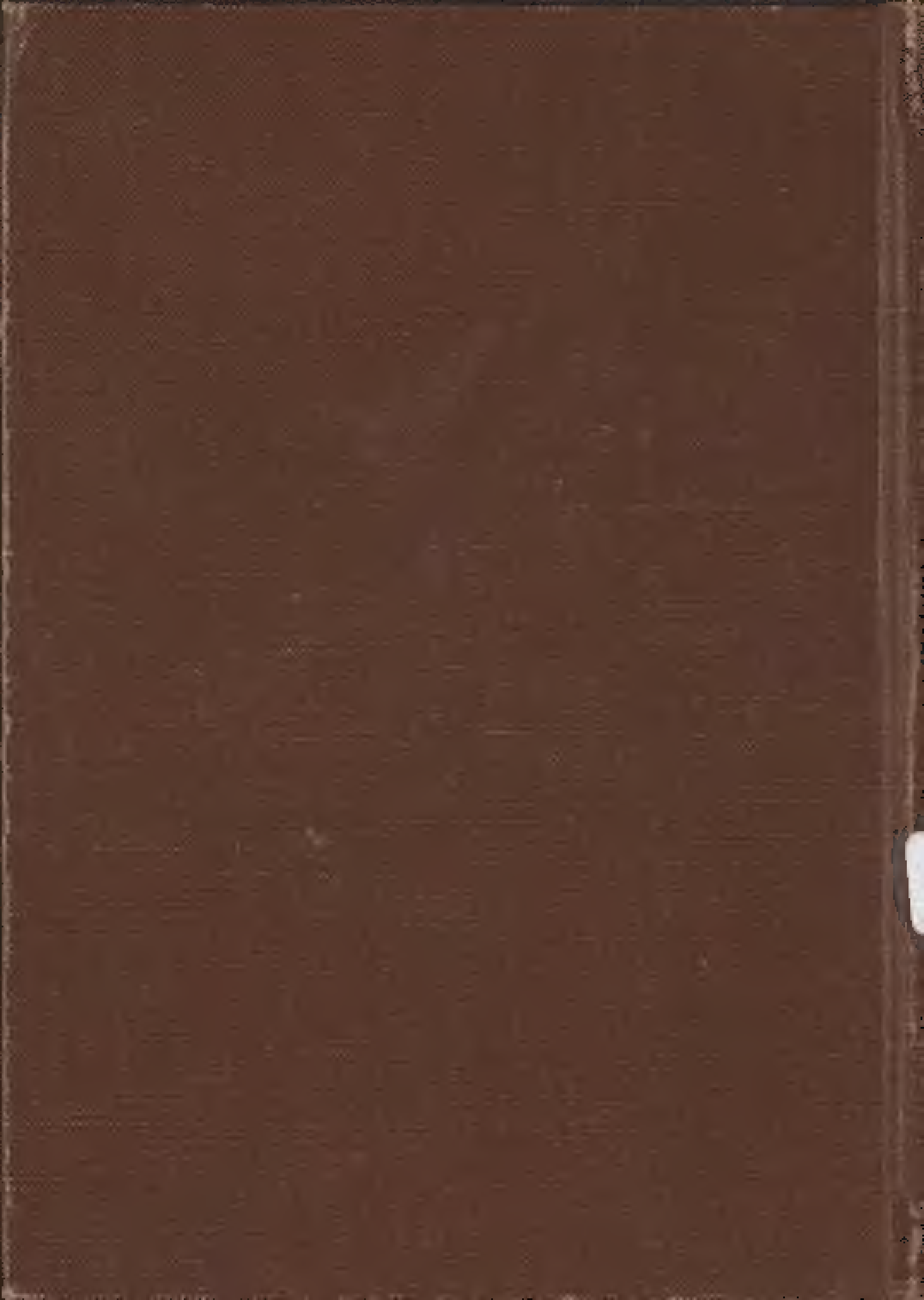
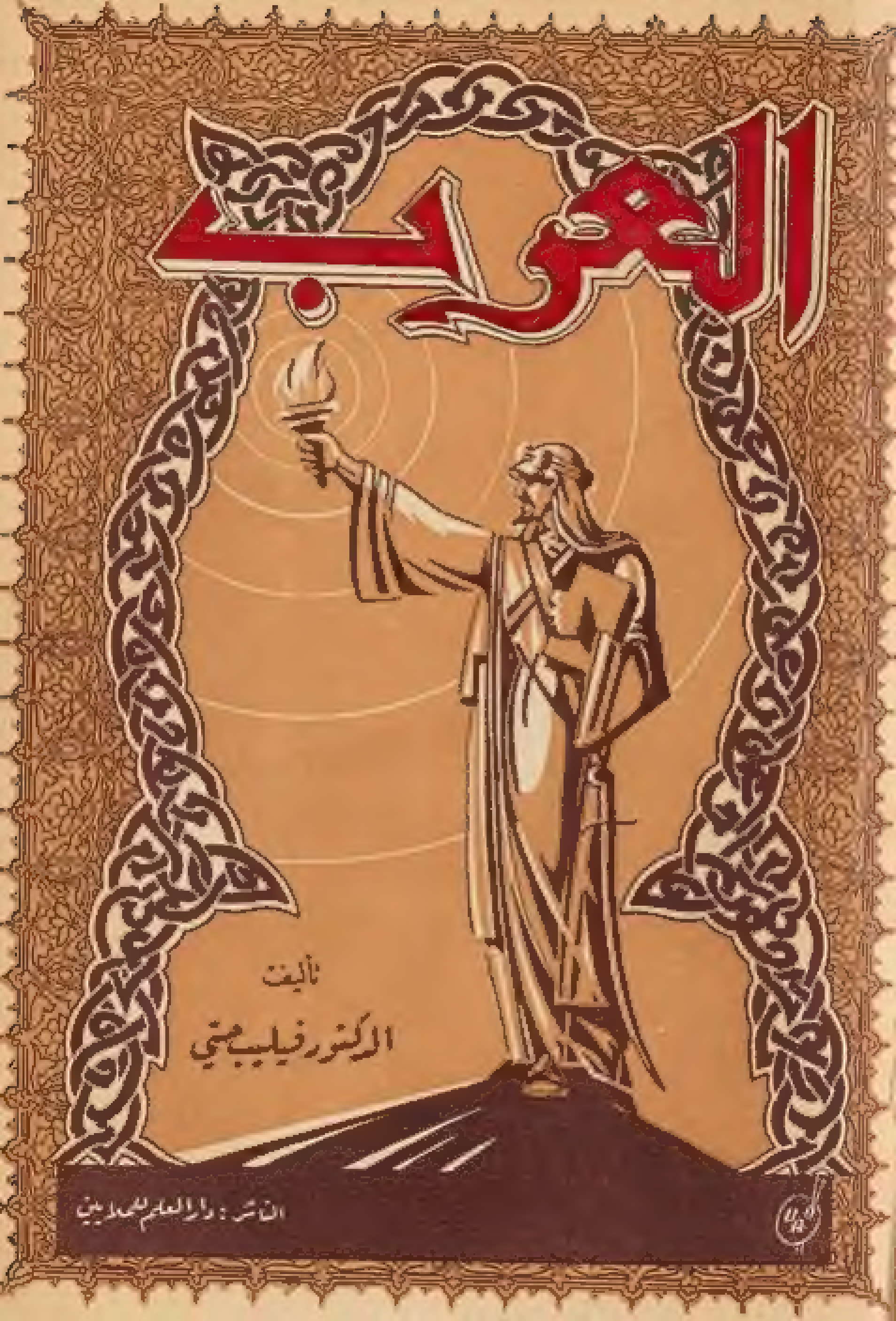



32101 085174173








العرب
تأليف
الدكتور فيليب حتي
الناشر : دار العلم للملايين







العرب

تاريخ موجز

تأليف

الدكتور فيليب حتي

استاذ آداب اللغات السامية

ورئيس دائرة العلوم الشرقية بجامعة برنستون

الناشر : دار العلم للملايين

بيروت ١٩٤٦

طبع من هذا الكتاب
خمسة آلاف نسخة من ورق هوزفراي

فاتحة

بين ما لاقاه كتابي المطول الموسوم بـ « هستوري أوف دي أربز History of the Arabs » (مكملان ، لندن ١٩٣٧ و١٩٤٠ و١٩٤٣) حدا مطبعة جامعة برنستون إلى أن تقترح علي وضع موجز في تاريخ العرب بالانكليزية . وما لبث أن ظهر هذا الموجز بعنوان « دي أربز ، اي شورت هستوري The Arabs-a Short History » (برنستون ١٩٤٣ و١٩٤٤) حتى أقبل عليه القراء إقبالاً اقتضى إعادة طبعه أربع مرات منها طبعة خاصة بالقوات الاميركية المسلحة ، وانتشرت منه عشرات الآلاف من

النُّسخ . ولقد تمّت ترجمته الى الاسبانية في الارجنتين . والمخابرة جارية بشأن نقله الى البرتغالية وغيرها من اللُّغات .

وقد استعنتُ بثلاثة من رفاقي الذين ساهموا معي في منهاج التدريس الخاص بالجيش الاميركيّ في جامعة برنستون وهم السادة شكري خوري وفرحات زيادة وابراهيم فريجي على ترجمة هذا المُختصَر الى العربيّة . وهم بدورهم استعانوا بترجمة كتابي المطوَّل التي كان قد ساهم في وضعها زميلي الدكتور ادورد جرجي ولم تُطبع بعد . فكان من نتيجة جهودهم هذا الكتاب « العرب : تاريخ موجز » . وأخيراً كلّفتُ زميلي الدكتور نبيه امين فارس ان يتعهد مخطوطة هذا المُوجز بعنايته ويُشرف على طبعها ويصلح مسوداتها ويضع خرائطها وفهرسها . فيستحقوا جميعاً خاص شكري .

عن جامعة برنستون في ١٥ آب سنة ١٩٤٥

فيلب حتي

مكانة العرب في التاريخ

لم تمض على وفاة النبي محمد مئة سنة حتى أصبح العرب أسياد دولة أعظم من دولة الرومان في أوج عزها، دولة امتدت أرجاؤها من بحر الظلمات غرباً الى حدود الصين شرقاً ومن جبال الأورال شمالاً الى حدود السودان جنوباً. وردد المؤمنون في كل حي الشهادة باسم الله ورسوله من رؤوس المآذن في جنوبي أوربا وشمالي أفريقيا وأواسط آسيا، وفرقعت جبال الأندلس وسهول الهند والصين ونجود الصحراء الكبرى صداها. ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب واللغات والأجناس ما لم يعهده التاريخ من قبل، حتى في أخبار اليونان والرومان.

ولقد دوّن التاريخ أخبار الساميين والآشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ممن ترعرع آباؤهم في مهد الجزيرة العربية ثم

زحفوا منها الى البلدان المجاورة حيث شادوا دولاً عظيمة منذ
آلاف السنين في الدهر الغابر فعفت آثارهم واندرست . ان العرب فكانوا
ولا يزالون منتشرين في مركز من أهم المراكز الجغرافية بحيث
تشرق فيه شمس [illegible] من جهة [illegible] العربية

ولما وضعت الحرب العظمى الأولى أوزارها [illegible]
العرب [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] ، وحدة شعورهم
الوطني [illegible] [illegible] فهذه مصر [illegible] استقلالها [illegible] و[illegible]
[illegible] ، وهذا العراق بلاد الرافدين [illegible] مستقل [illegible] في [illegible]
[illegible] ، وهذه [illegible] [illegible] الجزيرة [illegible] [illegible] واسعة
الجزيرة و[illegible] [illegible] و[illegible] [illegible] واسع [illegible] ، وهذا [illegible]
[illegible] [illegible] في الاقطار العربية [illegible] [illegible] [illegible] في
[illegible] هذا النوع من الحكم الشعبي [illegible] [illegible] لا [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
من [illegible] الجزيرة [illegible] [illegible] [illegible] والاسلام ، [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] . واصوات المؤذنين [illegible] من [illegible] [illegible]
[illegible] في [illegible] [illegible] في كل [illegible] من [illegible] الليل والنهار
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأجيال [illegible] [illegible]

و[illegible] [illegible] [illegible] العرب في [illegible] العصور على [illegible] [illegible]
[illegible] ذلك الى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] العرب [illegible] [illegible]
التي [illegible] [illegible] على [illegible] الرافدين و[illegible] سواحل البحر
الابيض [illegible] [illegible] وفي وادي النيل ، [illegible] [illegible] الاخرى

والرومان القدماء [illegible] وصل إليه كثير [illegible] ومن
ثم [illegible] إلى أوربا في عصورها المظلمة وشرودها [illegible] فكانت من
[illegible] ذلك [illegible] في أوربا [illegible] النهضة العلمية التي لم يزل
العالم الغربي، ومعه أميركا، [illegible] حتى اليوم [illegible].

وليس من شعب [illegible] في القرون الوسطى [illegible] قام به العرب
في [illegible] الثقافة البشرية [illegible] كلمة عرب على أسماء
[illegible] فحسب [illegible] الشعوب [illegible] العربية لسانا.
[illegible] كان للإسلام [illegible] أو [illegible] كانت
[illegible] ومن كان
[illegible] العرب في [illegible]
[illegible]
[illegible] في [illegible] في [illegible] والأدباء
[illegible] الأعاجم
[illegible]

[illegible] ثالث
الأديان الموحدة [illegible] هو الدين الحنيف
الذي [illegible] اليهودية والنصرانية [illegible] هذه الأديان
الثلاثة في [illegible] في [illegible] السماوية [illegible]
[illegible] اليهودية والنصرانية، والعكس بالعكس.

[illegible] عرف العرب في [illegible] والعربية [illegible]
[illegible] محمد [illegible] التوحيد [illegible] التي لا [illegible]
[illegible] من [illegible] هذه

على حرب في ميادين القتال كالأتراك والعرب مثلاً . ومن أهم حقائق التاريخ الراهنة في عصرنا هذا أن الاسلام لا يزال قوة فعالة في حياة الملايين من البشر من مراكش غرباً حتى أعماق الصين شرقاً ، بل لا يزال ديناً حياً يدين به نحو [illegible] البشرية جمعاء .

إن اللغة العربية هي أقوى وسيلة للتعارف والتفاهم بين مختلف شعوب من الناس . وقد كانت في أثناء بعض القرون الوسطى لغة العلم والثقافة والتقدم والعمران في العالم قاطبة . فكانت تعد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كتبت بها في خلال المدة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد أعظم [illegible] كتبت بأية لغة أخرى . ولا يزال أثر اللغة العربية ظاهراً في لغات أوربا التي استعارت منها مفردات علمية وفنية جمة . ولا تزال حروفها أوسع الحروف انتشاراً بعد اللاتينية .

والعرب أقوى أمة عراقة في السلالة السامية ، وأكثر تمسكاً بتقاليدها من غيرهم من الساميين . فقد حفظ العرب أكثر من سواهم على مميزات الأرومة السامية من جسدية وذهنية واجتماعية . وعلى الرغم من أن اللغة العربية هي أحدث اللغات السامية من حيث الأدب المدون فقد حفظت أكثر من أخواتها وشقيقاتها من اللغات السامية خصائص اللغة السامية الأم .

والاسلام هو ثالثة الكتب ديناً في [illegible] السامية . على أن لفظة « سامي » المستحدثة في أوربا وأميركا تعني غير معناها الصحيح ، إذ يقتصر استعمالها للدلالة على اليهودي دون سواه من

الشعوب السامية . ولا يميز هذا الخط سوى الجهل كما يحسبه الأوربيون والأميركيون من «الملامح السامية» كالأنف اليهودي مثلا — ليس هو سامي على الإطلاق بل هو ما يميز اليهودي من غيره من الساميين . وقد ورثه اليهود عن الحثيين والحوريين الذين اختلطوا بهم قديماً عن طريق التزاوج .

وتحتفظ الأنساب الى حد بعيد بعروبتها وعلى الأخص البدوي أفضل ممثل للأرومة السامية ، مولعاً بنسبه واحتفاظه والهوان في عزلته الجغرافية في الصحراء ، وبفضل تنقله وسائل الحياة فيه وبهذه الطرق عاش على ما كان عليه منذ البدء وما زال النسب ويحرص السلالة على أجداده والاختلاط لا تسمح العزلة والانقطاع في وسط منه مروءة وعيش حقيقي كما هي الحال في واسطة الجزيرة . ولما كانت في جزيرة العرب ، مثل مرتع للبداوة والطريقة تكاد الأنساب تحسب مقتصبة الأقسام الذي عاش فيه والتربة التي تدرج عليها [illegible] شعوب هاجرت الى جزيرة العرب واستوطنت بلادها وبواديها واختلطت بسكانها الأصليين ، كما هاجرت شعوب مجمعة الى بلاد أخرى مثلا واليونان ومصر وبلاد الانكليز والولايات المتحدة واقامت بين ظهراني السكان الأصليين واختلطت بهم . ولم يذكر لنا التاريخ أن جميع هذه الشعوب قد غلبت على الجزيرة وتغلبت على حصونها الرئيسة ، واستقرت فيها فسكان الجزيرة — وعلى الأخص البدو — بقوا على ما كانوا عليه منذ بدء التاريخ . وفي جزيرة العرب نشأ

أولاً أحفاد الشعوب السامية من بابليين وآشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأحباش . وقد مضوا برهة من الزمن قبل ان يرجعوا عنه وصاروا الى ما صاروا اليه .

العرب الأصليون : البدو

البدو موضوع هام لأن جميع الشعوب مختلطة بالبدو في الجزيرة وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق وفي ايران أيضاً وتوجد في الجهات المعروفة وفي مصر وبرقة وتونس والمغرب الأقصى وفي صقلية والأندلس في أيام ازدهار الحضارة العربية فيها . ولا بد لنا أولاً من الوقوف هنيهة لدرس أحوال العرب الأصليين ، وهم البدو

ليس البدوي رحالة أو جواباً يهيم على وجهه لا غاية له ولا مقصد . إن البدوي أفضل من تكيف الحياة البشرية طبقاً لأحوال الصحراء القاسية . فحيث يتوفر المرعى يحلّ ، وحيث يندر يقوّض خيامه ويرحل . والبداوة في الصحراء فوق ذلك علاقة لا تقل شأناً ، في وضعها ونظامها ، عن قواعد الحياة الاجتماعية في حواضر

المدن . وهي ضرب من المعيشة حتّمه واقعٌ يحوي بيئةً فقيرة مُقفِرة . فمعظم بلاد العرب صحراء قاحلة ، والسكنى لا تصلح إلا في بعض من أطرافها المجاورة للبحار المحيطة بها ، وفي عدد من الواحات المنتشرة في أنحائها . وقد أطلق العرب على بلادهم اسم « الجزيرة » . وهي كالجزيرة حقاً ، تحيط بها المياه من جهات ثلاث وتكتنفها الرمال من الجهة الرابعة .

وعلى الرغم من سعة البلاد ، وهي أكبر شبه جزيرة في العالم ، فلا يزيد عدد سكانها على بضعة ملايين . ويقول بعض علماء طبقات الأرض إن الجزيرة كانت في ماضٍ من العصور متصلة بالصحراء الكبرى الافريقية وبمنطقة الرملة الممتدّة في غرب آسيا من أواسط إيران حتى صحراء غربي الصين . ثم انفصلت عنها بفعل خسوف أرضيّ لا تزال آثاره ظاهرة في وادي النيل والبحر الأحمر وخليج فارس . وبلاد العرب أشدّ بلاد العالم حرارة ، وقلّما تمطر على الرغم من وقوعها بين بحرين هما البحر الأحمر وخليج فارس ، وذلك لأن ليس فيها جبال متعدّدة ولا أنهار في حدود الأقاليم والأحوال الجوية المطلّة على الأراضي المقابلة لها في القارتين الافريقية والاسيوية .

وقد يعود سبب الجفاف القاسي إلى الظروف نفسها التي تبعث على الجزيرة ، إذ إن الريح الشرقية التي تهبّ على البلاد كلّ عام لا تترك وراءها إلا القليل من الرطوبة في داخل الجزيرة . فلا عجب إذاً إذا تغنّى شعراء العرب بنسيم الشمال وهبّته الشرقية المنعشة ، وهي المعروفة عندهم بريح الصبا .

ولا يزال البدويّ يقطن بيوت الشعر كما قطنها أجداده من

من ، وتنتجع مواشيه المراعي التي انتجعها أسلافه منذ عهد بعيد .
وهو يتخذ تربية الحيوان من الغنم والإبل والخيل مهنة ، ويتعاطى
القنص والغزو ولا يحترف بسوى ذلك لأن هذه وحدها هي التي
تليق به ، ولأن الزراعة والتجارة والصناعة على اختلاف أنواعها
هي في عرفه دون مقامه شرفاً . والحقيقة أن الزراعة إنما تصلح
للفلاحة من أرض الجزيرة قليل ، وأن الحنطة تكاد لا تزرع فيه .
ومن هنا عدّ البدوي الخبز من كماليات الغذاء .

وقد نبت في الجزيرة بعض الشجر كالنخل والكرم والبن
الذي جلبه المسلمون من بلاد الحبشة في القرن الرابع عشر [illegible]
وغيرها . وتنمو في الواحات الموز وقصب السكر والقمح . ولا
يزال التمر واللبن والسمن الغذاء الذي كان عماد [illegible] في ربوع عرب
الجنوب معروفين هنالك .

ومناخ الجزيرة حار ، وهواؤها جاف ، وتربتها غير منتجة .
وليس في طول البلاد وعرضها نهر جار يصب ماؤه في البحر صالحة
للسفن . وليس فيها نهر صالح للملاحة فكل ما هنالك وديان
مشتبكة تتدفق فيها السيول عندما تمطر ، وهذه الأودية بمثابة
طرق إذ تسير فيها القوافل وتسلك طريقها فيها ولا يزال الحج
منذ فجر الإسلام حلقة الاتصال بين الجزيرة وسائر البلدان .

وقد رغب في أهلها الخصب الذي يكتنف الجزيرة من الشمال
دون [illegible] البدوي [illegible] وبقي على ما كان عليه منذ
البدء ، واستمر مع شريكته الناقة والنخلة في الحياة الصحراوية حاكم
الصحراء المطلق وواحداً من ثالوث القديم ولا يشارك هذا الثالوث

في أسر الجزيرة سوى [illegible] البدوي من شدة المراس
والصبر على الشدائد استطاع أن يشق حياته بكد لا يقوى سواه على
احتماله. وقد جعلت رقعة الجزيرة [illegible] ضروريات [illegible] و[illegible]
قومي. و[illegible] له في خلاصة [illegible] العامة [illegible]
[illegible] من الأمور [illegible] وطاعة
والخضوع للسلطة [illegible].

وكانت [illegible] في الواجبات [illegible]
وقد قامت على [illegible]
الحجر الأسود [illegible] في الإسلام [illegible]
[illegible] الشعور الديني في قلب البدوي [illegible]
القرآن [illegible] قوله : « الأعراب أشد
كفراً ونفاقاً » (سورة التوبة) ولا [illegible] كذلك حتى
يومنا هذا [illegible] البدوي [illegible] الاعتراف [illegible].

ويظهر في عقلية البدوي [illegible] صحرائه القاحلة وجدبه
الصخر [illegible] عظم وعصب وطعامه
مقتصر على التمر ولحم الإبل في حالات [illegible] شرابه الرئيسي لبن
النوق. وهو يصنع خبزه من عجين التمر [illegible]
محروشاً. [illegible] الأسودين أي التمر
والماء.

« الأسودان [illegible] والتمر [illegible] »

أما لباس البدوي فبسيط مثل قوته. وهو لا يتعدى قميصاً
طويلاً وعباءة يشدها على حقويه [illegible] وكوفية وعقالاً

على أنه ما البدوي فيكاد يبدي لا يعرف ، وأما الأحذية
فنادرة أو موجودة قليلة الاستعمال .

وأهم حيوانات الجزيرة الإبل والخيل . وقد يصعب على العقل
أن يتصور الصحراء صالحة للعيش بدون الإبل ، فهي قوام حياة
البداوة ، ومطية تنقلهم ، ووسيلة معاملاتهم ، ومهر الفتاة ،
ودية القتيل ، وربح التاجر ، وثروة الشيخ ، كل أولئك تحسب
بعدد الإبل . والإبل هي رفيقة البدوي التي لا تفارقه وحدها ،
وقد يشرب البدوي بدلاً من الماء الذي يحرم منه لبنها ويأكل
لحمها ، ويتخذ من وبرها ثيابه ، ومن جلودها ، ويصطنع حذاءه
من جلدها ، ويستوقد بعرها ويتطبب ببولها ويغتسل به ويدهن
به وجهه وقاية من الحشرات . والإبل أحب للبدوي بنفسه الصحراء
فحسبك ما هو عليه من أمه وهو عنده من لبنه .

وفي يومنا هذا يسمى البدو ويعرفون بدعوة أصحابهم «أهل
الوبر» ويسمى حضر في الخيام ، حضري من أهل الوبر والمدر»
وذكر لورنس في الرحلة التشكيكية المشهورة في كتابه
عن قبيلة الرولا أنه لا يكاد يوجد فرد من أفرادهم شرب مرة ماء
من كرش الجمل . فعند الحاجة يذبح ناقة ويدفع عصا في حلقه
حتى يقيء الماء ، ويخرج ويستخلص الماء منه . وقد يصبح هذا
الماء شراباً إذا لم يعثر على ماء الجمل له يوم أو يومان .

وقد كانت بلاد العرب مركز تربية الإبل الرئيسي في العالم
فصحراء الإبل أهم مواردها . ويدلك على مكانة الإبل في حياة البدو
ومعاملاتهم أن في اللغة العربية ، على ما يقال ، ما يقرب من ألف اسم

للابل بأنواعها المختلفة وأسمائها وحلابها وأصوات نوقها . وهو عدد
لا يضاهيه سوى عدد أسماء السيف . ويقول علماء الجيولوجيا إن
موطن الجمل الاصلي هو البلاد الاميركية ومنها تسرب في
العصور السابقة للتاريخ الى آسيا الشرقية فافريقيا ، فبلاد العرب
وأول ذكر للجمل في التاريخ يرقى الى القرن الحادي عشر قبل
المسيح عندما غزا المديانيون فلسطين ودخلوها بالجمال على ما ورد
في سفر القضاة (٦ : ٥) .

أما الخيل ، وأصلها أيضاً اميركي ، فليست من ضروريات
الحياة في الصحراء ، ومن هنا لم يكن يتملكها منهم غير ذوي اليسر .
وعلى الرغم من شهرة الخيل في كتب العرب وظهورها في الحروب
منذ عهد متأخر . فقد جلبت قبل الميلاد عن طريق سورية الى كتاب
ملوك أربعة قد ادخلوا اليها الخيل في القرن الثامن عشر قبل
المسيح . ووفرت للخيل في الجزيرة الاحوال الملائمة لبقاء نسلها صافياً
بعيداً عن الاختلاط . وقد اشتهرت الخيل العربية بجمالها وقوتها
على تحمل الشدائد وذكائها وعطفها على صاحبها واخلاصها له . والخيل
العربية الاصيلة هي مثال ما يحسبه الغربيون أفضل صفات الخيل .
وقد ادخل العرب الخيل الاصيلة الى الاندلس في القرن الثامن
للميلاد ، ولا تزال حتى يومنا ظاهرة في الخيول الاندلسية والمغربية
حتى يومنا هذا . حتى اذا كانت الحروب الصليبية امتزج دم الخيول
الانكليزية بدم الخيول العربية الاصيلة

واهم ما يعجب البدوي من الخيل سرعتها . والبدوي لا يصيح
عرقه وهي تستخدم ايضاً في السباق والصيد واذا عرضت في

يحجم احـــدى القبائل وضيع الاهل وعلا عويلهم من العطش لم
يكترث رب البيت بهم بل أصرّ على تقديم ناقته للضيف ، ولما
بقي منه شيء دفعه الى الحاشية .

ويبقى الغزو ضرباً من ضروب اللصوصيـــة ، وان شئت .
ولكنه تحكم عوامل حياة البداوة الاقتصادية والاجتماعية وتدفع من
وضعهم وركوبهم من ركائب في الصحراء ، حيث الغزو غريزة
ملازمة لطبيعـــة الفرد ، يحب الغزو حبه بالرحال وصحبة من
سعدان الرحلة ولم يقتصر ذلك على فريق دون آخر بل شمل العرب
جميعاً من نصارى وغيرهم .

والغزو عند العرب ناحية من نواحي اللهو البدوي والعرف
الشائع يقضي ان لا يسفك الدم ، وانه لا تتعرض النساء . وقد
يقبض الغزو على الفرس عليه فارس ان يخف ان يقتل ، غير انه
لا يرتد عن غزوه في البلاد من الأموات ، وكثير ما يحدث بعض
القبائل لحمية او الاقوام الذين في الحدود ان اشتبكت في حرب تقتل
الغزوة بقتل ... فيعيش في حسب امه

على ان الفروسية ... من مستوى الغزو فمعنى تدى
البدوي في السلب والنهب والعدوان ... كرم جواد اميناً
على الجوار ... ، وصف شعراء الجاهلية بحسن الضيافة
والقرى وحسن ... هذه الظاهرة ... افضل ... الاسلاب ، لا
يشارك في ذلك سوى ... والمروءة فحاجة البدوي ... الى
... والفرس ... اهم دواعي الشفقة من سكان البادية ، ...
الى ... في سبيل الاستيلاء عليها ، فيحجره ... الوعي بل

الفرد . غير ان مجرد الانتساب لمحتوى الطبيعة القاسية التي
تستولي على الصحراء يولد في نفسه الشعور بضرورة الصحبة فيصبح
واجباً مقدساً . واذا ابى البدوي ان يحمي صديقه الغريب أو رده
عنه أو اخل به فذلك عند ابناء قومه يعد اساءة الى العرف
الشائع والى شرف صاحبه عاراً لا يمحى عنه .

ويقوم نظام المجتمع البدوي على العشيرة . والعشيرة هي مجموعة
افراد يجمعهم واحد ، وتنتسب من الشعر تعطي كل عائلة واحدة
منها . ويكون العشائر المتفرقة البيت قبيلة واحدة . ويعتبر
افراد العشيرة انفسهم من دم واحد ، ويخضعون لسلطة الشيخ
وحده . وهو اكبر رجال العشيرة سناً وعراقة ، ويجمعهم
اكثرهم حميمية وعصبية اجتماعية ونواتها انه يحق للرجل على
القبيلة شيئاً من دم احد افرادها . ولا شك في ان هذه العصبية هي
العامل الاكبر في توحيد شعور الافراد في العشيرة .

ولا يملك الفرد الا بيت الشعر ومحتوياته . غير ان الماء والمرعى
والارض التي تصلح للفلاحة هي ملك مشاع للعشيرة جميعها .

واذا قتل البدوي آخر من عشيرته لا يجري الدفاع عنه احد
فاذا هرب اصبح طريداً خارجاً عن نطاق العشيرة . اما اذا قتل
أحداً من عشيرة ثانية فحكم الثأر بين العشيرتين حتى تستوفي
الواحدة ثأرها من الاخرى بقتل احد افرادها .

والدم في عرف الصحراء لا عوض عنه الا بالدم ، ولا جزاء
لمقترفه غير القتل . والسنة الاولى تقع على عاتق الاقرب . وقد
يتطاول الثأر حتى يستغرق اربعين سنة . ونحن نذكر هنا ان

الثأر كان سبباً مهماً في الحروب القائمة في الجاهلية المعروفة بأيام العرب وهو يضاف الى العوامل الاقتصادية في ذلك . والعصبية ضرورية للبدوي لانها هي حمايته عصبيته لنفسه وخروجه عن جماعته يجعله شريداً طريداً لا حامي له ولا مجير .

فالعصبية القبلية تخلق ولاء مطلقاً لأفراد القبيلة كلها . وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبرة بحيث يشمل سائر افراد العشيرة فيشعر الفرد بان قبيلته حرة مستقلة وانها وحدة لا تتجزأ . ولا يرى ما يؤذيه عن الاعتداء على غيره من القبائل وسلب وقتل افرادها . وقد استغل الاسلام هذا الشعور القبلي في الفتوحات المتعددة . فقسم الجيش الى وحدات على اساس قبلي واستوطنت بعض القبائل البلدان المفتوحة على مرها على هذا الاساس نفسه ، وظل العرب يفخرون على غيرهم حتى ان الداخلين في الاسلام من الشعوب المقهورة صاروا موالي . والمولى في الاصل هو من يلتحق بإحدى القبائل عن رغبة في حمايتها فيصبح أحد افرادها . وبقيت هذه المميزات غير السمحة أي مميزات الفردية والعصبية والعصبية القبلية . ورافق الخلق العربي حتى بعد الاسلام فكانت من اهم عوامل الضعف والانحلال التي طرأت على الدول الاسلامية المختلفة .

ويمثل شيخ القبيلة في جميع شؤونها ، ويتألف رعاياه بصفة رئيسه في المجلس القبلي ، ويكرمه ويشجعه في الشؤون القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة فليس له صفة مطلقة ،

بل عليه ان ينظر فيه مع زعماء القبيلة للحرب في المجلس عيني
وبقي الشيخ شيخاً ما دام محافظاً على رضى قومه ، ولا فقد
مركزه .

ان العربي عامة والبدوي خاصة ديمقراطي بالطبع والنزعة
فهو يحسب نفسه مساوياً لشيخ القبيلة ، وهو ينظر الى الامور بعين
المساواة وقد لا يستعمل كلمة « سيد » إلا اذا اشار الى الملوك
الاجانب . غير انه من ناحية ثانية ارستقراطي يعد نفسه مثلاً اعلى
للكمال ويعد الامة العربية اشرف خلق الله وعنده ان الرجل
المتمدن دونه قيمة وسعادة وهو يفخر بصفاء دمه وشعره
وفصاحته ونسبه وحسبه وعراقة مجد اجداده . وقد اشتط في
إرجاع نسبه الى آدم .

اما المرأة البدوية سواء أكانت اسلامية ام جاهلية ، فقد كان
لها نصيب وافر من حرية الحركة والعمل وإذا
كانت قد عاشت احياناً في بيت حدثت فيه ... وكانت
الرجل له ... في اختيار زوجها وفي فراقه ...
... حتى تحدث الشخصي

ومن مزايا البدو مقدرتهم على امتصاص ثقافة الاخرين ، فمتى
سنحت القوى المقيدة التي كانت كامنة فيهم ... وأصبحت
قوى محركة فعالة ... وقد ... من ذلك
احتكاكهم ... الهلال الخصيب فظهر حمورابي في بابل ، وموسى
في سيناء ، وزنوبيا في تدمر ، وفيلبس العربي في رومة ، وهرون

الرشيد في بغداد، وشيدت العمائر، كقصور ومساجد، التي لا تزال
آثارها تدهش العالم بأجمعه. ومما لا شك فيه ان ازدهار الدولة
الاسلامية في أوائل عهدها يرجع بعض اسبابه الى تلك القوى
الكامنة في نفوس العرب، كما هو معروف للجميع، واخص العرب
ووحدة الاسلام.

قبل فجر الاسلام

مع أن التاريخ [illegible] حروب العرب من حين [illegible] حملات في حين يكشف [illegible] من الواقعة [illegible] . [illegible] منقطعة عن العالم الخارجي و [illegible] من اهتمامه . وأول اشارة تحققت عن العرب وردت في رقم شلمنصر الآشوري الذي قاد سنة ٨٥٤ ق م حملة على ممالك دمشق وحلفائه . وكان بين هؤلاء الحلفاء شيخ عربي . ومما يدل على روح ذلك العصر وحوادثه قول شلمنصر «دمرت مدينة [illegible] دمرتها وهدمتها واحرقتها بالنار ١٢٠٠ عربة ١٢٠٠ فارس ٢٠،٠٠٠ جندي من هدد عزر ارام (دمشق) .... ١٠٠٠ جمل لجنديب العربي» . وجدير بالاعتبار هنا أن أول ذكر عربي في التاريخ المدون جاء مصحوباً بذكر الجمل . وكان موقع قرقر بجوار حماه في شمالي سورية

لقد طغت صفة «العربي» فيما بعد على جميع سكان الجزيرة الى الآن. ويجب ان نميز بين عرب الشمال: وهم عرب نجد، وبين عرب الجنوب. فكما ان الجزيرة مقسمة الى قسمين جغرافيين تتوسطهما صحراء بينهما، كذلك سكانها مقسمون الى شماليين وجنوبيين. ويسمى عرب الشمال بفرع البحر المتوسط اما عرب الجنوب فينتسبون للجنس «الالبي» المسمى ايضا الارمني او الحثي او العبري. ومن مميزاته الشكل العرضي للرأس، والانف الاقنى، واللحية المستديرة، والشعر الكثيف. وقد سبق عرب الجنوب عرب الشمال في نشوء الحضارة والمدنية، ثم ظهر عرب الشمال على المسرح العالمي حين بروز الاسلام في العصور الوسطى. ولا بد من هذا التمييز بين عرب الشمال وعرب الجنوب، فالاختلاف بينهم لا زال على الرغم من محاولة الاسلام توحيد الامة العربية. وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير في تحديد مصير الدولة العربية.

وقد بقيت الجزيرة بمعزل زمنا طويلا عن الحضارة الاولى لاعتبارات شتى، فالتصقت بها من طرف عند شبه جزيرة سيناء موقع الهلال الخصيب - في الشمال. وانحدرت طرق من هنالك الى الجزيرة الى الشرق والغرب فحدث التبادل؛ ومن ثم اتصلت عند طيبة وامتدت الى البحر الاحمر. وفي ايام السلالة الفرعونية الثانية عشرة حوالي ٢٠٠٠ ق. م. وصلت قناة اصطناعية فرع النيل الشرقي بالبحر الاحمر. ومن ثم عادت فأهملت حتى عهد الفرس، واندثرت بعد زمن وجددها البطالسة العرب. وبقيت مستعملة حتى اكتشف الطريق البحرية حول

راس الوحدة الصليبية سنة ١٢٩٧ أما في الجنوب فتمتد الجزيرة عن
افريقيا مضيق باب المندب ، وعرضه خمسة عشر ميلا .

ولم يكن العرب قبل الاسلام اهل حرب وشدة بل اهل
تجارة واسفار . فقد رأينا التجارة في الجنوب كانت حلقة الوصل
بين الهند وافريقيا . وفي الشمال ازدهرت لهم مدينتان عظيمتان
كانتا تقومان على طرق القوافل وهما مدائن (الحجر) و تدمر
المدينة الثانية في نجد ، ولا تزال خرائبها عجيبة تجذب السياح من
اقصى الارض . وكانت مدائن الحجر التي لعبت اروع ادوارها
وزهوها في عهد الروم مدينة محفورة في الصخر الملون
الأحمر في مصر وموقعها في الصحراء السورية بين امبراطوريتي
الرومان والبارثيين الفرس استطاعت ان تحافظ على استقلالها
بفضل من اميرة ذات الذكاء والطموح التي اتخذت لنفسها
لقب ملكة الشرق ، واستولت على ممتلكات الامبراطورية
الرومانية ، فضمت مصر وآسيا كثيرا من آسيا الصغرى . وبما بعث
الامبراطور اورليان على جيوشها في معركة قرب حمص سنة ٢٧٢م
غادرت مصر و ... الصحراء على هجين عربية . غير انها أسرت
وسيقت الى روما ... في موكب النصر ... بسلاسل
ذهبية حسب عادات ذلك الزمن

ومن الحوادث الأخرى ذات الشأن في تاريخ الجزيرة ... كر
... قبائل العبرانية طوال اربعين سنة في سيناء بعد خروجهم
من مصر الى فلسطين ، حوالي سنة ١٢٢٥ ق م . فمن مدين
في القسم الشمالي من سيناء الاراضي الواقعة شرقه ... عهد

[illegible] بعد ذلك تزوج [illegible] موسى [illegible]

كانت ابنة كاهن مديان (خروج ٣ : ١ و ١٨ : ١٠ - ١٢) . وقد

كان هذا الزواج من اهم حوادث التاريخ . كانت زوجة موسى

[illegible] وهو الذي [illegible]

وكان يعرف الصحراء [illegible] في الوقت عينه . فمكنته

[illegible] لا [illegible] الصحراوية

و [illegible] واغلب الظن ان موسى [illegible] هذا [illegible]

[illegible] من [illegible]

ويذكر الادباء في عهد [illegible] ان اصل [illegible] من

الصحراء [illegible] في [illegible] الذي

كانوا [illegible] في [illegible] الجزيرة او الصحراء السورية ، [illegible] الى

[illegible] كان [illegible] على [illegible]

من [illegible] . وايوب الذي [illegible] في [illegible]

[illegible] ومن [illegible] من

المشرق [illegible] من [illegible]

على [illegible] من صحراء [illegible]

متابعة هذه [illegible] في العهد [illegible] كان

[illegible] الاقوام [illegible]

[illegible] فوق كل شيء هو ظهور الاسلام ، [illegible]

الاسلام [illegible]

[illegible] التي كان [illegible] عرب [illegible]

[illegible] الشمس كما [illegible]

قوم رعاة يقطنون بلاداً حارة ويستمدون برودة الظل من [illegible]
قطعانهم ، في حين يستنكرون حرارة الشمس . والشمس لا تدخل
في صفوف آلهتهم إلا بعد دخولهم في طور الزراعة وإدراكهم
فاعلية الشمس فيها . وأخيراً بعد عبادة الأجرام في طول الجزيرة
وعرضها درجة أصبح معها لزاماً أن تحدث القوة الروحية وكانت
قد ظهرت آراء دينية توحيدية [illegible] وتجلت في شكل طقوس
دينية ، وأحدثت بعض المؤثرات المسيحية تحولاً مفهوماً ولكن
الفكرة استحكمت بظهور [illegible] العرب فقط . فبات الأدب
وذلك [illegible] لظهور [illegible] وقومي عظيم .

وسمّى المسلمون العهد [illegible] الجمهور [illegible] غير ان
هذه التسمية لا تنطبق تماماً على الواقع اذ احدث بعض الاعمار
حضارة جنوب الجزيرة على [illegible] غرب شمال ، [illegible] طريقة
الكتابة حتى قبل الاسلام [illegible] في عصر [illegible] لكن
قبله [illegible]

والعرب [illegible] شعوب الأرض [illegible]
العصي [illegible] واختصوا [illegible] وقد لا
يكون [illegible] في [illegible] في نفوس [illegible]
ففي مجالس [illegible] ودمشق والقاهرة اليوم [illegible]
واحدة [illegible] او [illegible] عربية [illegible]
وان [illegible] الكثير [illegible] والموسيقى [illegible] في
النفس شعور [illegible] السحر الحلال .

والعرب [illegible]

أخضعوا لطبيعتهم لغة [illegible] في مجرى واحد، فهو فن الكلام
قد [illegible] النبوغ [illegible] محمد العربي قصيدته و[illegible]
مرموزه، ووجدوا فيه طريقة أخرى لتعبير [illegible] وفي مثل
العرب «[illegible] الأمر في فصاحة [illegible]» و[illegible] [illegible] اشتهر
أسلوب [illegible] لحكمه، وأهل [illegible] [illegible]، والأعراب بلاغة
المحقق. وقد عدّ العرب [illegible] لفصاحة [illegible] وأروعه
[illegible] كلامه [illegible]. والعربية [illegible] تركيبها [illegible]
الإيجاز، وكثير الإعجاز حتى [illegible] [illegible] الإسلام هذه
المعجزة اللغوية كما [illegible] [illegible] [illegible] معجزة في
أسلوبه وتركيبه [illegible] الإعجاز [illegible] استطع [illegible]
على صحة [illegible]. ولقد كان فجر الإسلام فجر [illegible] لغة [illegible]
بل [illegible] فجر كتاب.

ولم [illegible] العرب [illegible] في [illegible] الى الشعر [illegible] إليه كان
[illegible] [illegible] وحدهم [illegible] شعرهم أداة [illegible] في
حياتهم الاجتماعية، فإذا انتشبت [illegible] في معركة كان [illegible] فعالا
كتشجيعهم، أما في السلم فقد يدعو [illegible] الى الاضطراب
والانشقاق، وقد يثير [illegible] كما يثير [illegible] الناس
في الحفلات [illegible] والاجتماعية في [illegible] وإذا كان الشاعر
صحفي يومه فقد أغدق عليه الأمراء هداياهم الثمينة [illegible]
فشعره الذي حفظه [illegible] الأمس كان أداة فعالة [illegible]
وخير [illegible] [illegible] وكان يغدق العطاء
على الشعر [illegible] [illegible] [illegible] الناس.

ولم يكن شعر العرب وصفاً وحماسة وتمثيلاً للحياة فحسب ،
بل كان أدباً ومؤرخاً لها أيضاً . وكان الشعر مقياس الذكاء عند
البدو على حد قول أحدهم . [illegible] فخر بني [illegible] بني
عامر بن صعصعة [illegible] وشعراء وعدد [illegible] . والقصيدة
كانت تتفوق على أحسن [illegible] الخطبة وذكاء أفرادها وعددهم
والشعر العربي فوق طرافته ورشاقته في [illegible] ويجب [illegible]
إذ يحتوي على الكثير من المعلومات [illegible] عصر [illegible]
ويكاد يكون المرجع الوحيد لمعرفة [illegible] في جميع أدوار
وأطوارها . [illegible] أن الشعر ديوان العرب .

ولم يكن [illegible] في [illegible] البدوي قبل فجر الإسلام . [illegible]
من شعره غير أثر [illegible] . وإذا كان [illegible] من [illegible]
[illegible] من [illegible] احترام [illegible]
[illegible] لا يكاد يجد [illegible] واحداً [illegible]
[illegible] . [illegible] الصحراء [illegible]
عن الآلهة في [illegible] وكانت علاقة
الآلهة في [illegible] علاقة [illegible] عند المحقق لا
تشجيعاً لعوادي الصحراء القاسية [illegible]
الحق حتى بعد الإسلام . [illegible] الآلهة الوثنية
منزلة [illegible]

وفي مدينة مكة من [illegible] قف [illegible]
[illegible] كان واحداً من الآلهة [illegible]
يدعى [illegible] . وهو [illegible] أهل مكة [illegible]

والتجأوا اليه في أحرج مواقفهم . حتى اذا هتف رجل منهم باسمه في كلام أصبح منذ اليوم عنوان العربية « لا إله إلا الله » دوّى صدى هتافه في الكون المعمور ، ودفع بأهل الصحراء الى أطراف العالم الأوسع فاتحين غالبين .

محمد رسول الله

يجمع المؤرخون ان محمداً ولد عام ٥٧١ م ، وهو المعروف بعام الفيل . وكان قد توفي والده وهو جنين ، ليفقد بعد ذلك والدته قبل ان يتجاوز السادسة من عمره . ولقد دعته امه باسم قد يظل مجهولاً اما الاسم الذي عرف به في القرآن فهو محمد ، وأشير اليه مرة واحدة فقط باسم أحمد . وقد أضفى عليه قومه لقب « الأمين » [illegible] . وكثر تداول هذا الاسم « محمد » الى ان اصبح عدد الذكور الذين يعرفون به اليوم يفوق عدد كل من تسمّى باسم آخر . وينتسب محمد الى قبيلة قريش ، وكانت من أسمى عشائرها [illegible] مركزاً ، تتولى سدانة الكعبة (1) في مكة . وكانت الكعبة تضم بين جدرانها اصناماً كثيرة ، وحولها مناصب عديدة ، وهي مُتّجه أنظار العرب

---

(1) سدانة الكعبة : خدمتها .

الجمهور في عهدهم [illegible] الحجج ليؤيدوا فيها مزاعمهم الدينية .

وعلى الرغم من ان محمداً كان من اولئك الانبياء الذين ظهروا في العصور المؤرخة فاننا لا نعرف إلا اليسير عن حداثته . وليس لدينا الكثير من المعلومات الموثوق بها عن كيفية كسب عيشه ، وجهوده لتحسين شؤونه ، والآلام التي عاناها في اعداد نفسه للمهمة الكبرى التي كانت تنتظره .

ومن هذا العصر الواضح من حياة محمد حتى بلغ الخامسة والعشرين ، حين تزوج من خديجة وهي في الاربعين وكانت خديجة ارملة قرشية ثرية ذات تجارة [illegible] مستقلة و[illegible] الرجال . وكان من مستخدميها الشاب محمد [illegible] من الحاجة . اما محمد فكان [illegible] وهو يفكر في الزواج من امرأة [illegible] خديجة ذات الشخصية البارزة والصفات الممتازة في [illegible] .

ولكن [illegible] محمد في زواجه من خديجة [illegible] فسمع به [illegible] في غار [illegible] خارج مكة ، يمعن في التأمل والعبادة [illegible] ذلك الخلق . وبينما هو نائم يوماً في الغار سمع صوتاً ناداه قائلاً : [illegible] الذي خلق [illegible] (سورة العلق) فكان هذا اول عهده بالوحي ، وملكت [illegible] رعدة الخوف ، فاسرع الى بيته وهو في أشد حالات الاضطراب العصبي ، وسأل خديجة ان تزمله ، فزملته وهو يرتعش فجاءه الوحي ثانية [illegible] (سورة المدثر) واحاطت عليه الاصوات ، واشكل بعد ذلك ،

وحدث احياناً كأنه صلصلة الاجراس ، فيرتاع وحدث تحيّر ووحشة ، وإذا به يتحقق ان هـذا الصوت هو صوت الملاك جبريل .

وتشبه رسالة النبي العربي محمد رسالات الانبياء العبرانيين في العهد القديم . وتتلخص دعوته في ان الله واحد ، لا اله الا هو ، وانه مبدع الكون وخالق الوجود ، وانه على كل شيء قدير ، وان هنالك يوم دين ، وان الناس يجزون باعمالهم فمن عمل صالحاً فله جنات النعيم ، ومن عمل طالحاً فله نار الجحيم .

أيقن محمد بعد ان الله اتخذه رسولاً ليؤدي رسالة الحق ، فوثق من نفسه ، واخذ يجاهر قومه مبشراً هادياً يدعو الى الحق وينهى عن الباطل . واخذ اقوامه يستمعون ، ويستمرئون رسالته ، غير ان ذلك لم يكن سهلاً في عصره ، ان استمر عند الناس مجرد مسرة ، ويجد في تحقيق انه نبي اخيراً امره . فكان يقف ويشرح للناس ملذات الجنة ونعيمها واهوال جهنم ونارها بعبارة صريحة لا غموض فيها . وكثيراً ما هدّد قومه بيوم الدين الحساب ، وبرغم هذا لم يؤمن برسالته الا نفر قليل . وكان اول من آمن به زوجته خديجة ثم تلاها ابن عمه علي ، وصديقه ابو بكر . اما الفئة الارستقراطية ذات النفوذ في قبيلة قريش فقد كانت منكرة تقاومه مقاومة شديدة وتضيّق عليه بلا هوادة . ولما اخذ عدد المؤمنين يزداد تدريجياً ، وجلهم من العبيد والمستضعفين ، خاف القرشيون من اتساع نفوذه ومن خطر رسالته على مصالحهم التجارية والاجتماعية . وتفهم ان الهجرة في حروبه ما لم يكن معه كما أمنوا فلحقوا

الى اضطهاده والتنكيل به وبأتباعه . فكان من جراء ذلك أن
نزحت احدى عشرة اسرة مكية مؤمنة الى بلاد الحبشة ،
وتبعتها في عام ٦١٥ ثمان وثلاثون اسرة اخرى . ووجد هؤلاء
المسلمون في جوار النجاشي النصراني امناً وطمأنينة . وابى هذا
تسليمهم الى خصومهم . ولما كانت هجرة محمد هؤلاء الاتباع في تلك
الايام العصيبة وخلال هذه الفترة من الاضطهاد اشتد له عزمه من
عزيمته فاستمر ينشر دعوته ويدعو الناس الى عبادة اله واحد هو
الاله الحق . وظل الوحي يحثه والآيات تنزل عليه . وود لو ان
بقومه كتاباً كالذي في ايدي اليهود والنصارى مثل الكتاب الذي
أثار في نفسه الاعجاب

ولم تمض سنين حتى اهتدى يثرب الى الحق ، فوجد الاسلام
فيها منعة ، ولقد قدّر ليثرب ان تلعب دوراً هاماً في تأسيس الدولة
الاسلامية فتية كما سنرى بعد . وفي هذه الحقبة كان الاسراء والمعراج ،
وتفصيل ذلك انه اسري بمحمد ليلاً من مكة الى بيت المقدس ، وهو
المسجد الذي قدسه اليهود والنصارى ومن هناك استأنف محمد رحلته
الى السماء السابعة على دابته المجنحة البراق . وبذلك اصبح
بيت المقدس ثالث مدن مكة والمدينة في نظر العالم
الاسلامي . وقد اعطت قصة الاسراء الواناً زاهية رائعة على مرور
الاجيال . ولا تزال جماعات الصوفية في ايران وتركيا تعير
لحدث الاسراء وزناً كبيراً . ويعتقد بعض الباحثين ان الاسراء
والمعراج مصدر « الكوميديا الالهية » التي وضعها الشاعر الايطالي
الخالد دانتي . ومما يدل على تأثر المسلمين اليوم بذكرى الاسراء ما

حدث في آب من عام ١٩٢٩ في فلسطين من شغب بشأن حائط المبكى،
عند اليهود، في بيت المقدس، وهو الذي تعده الأسطورة الموضع
الذي ربط عنده محمدٌ البراق في طريقه الى السماء. وبعد عامين من
الإسراء، جاء محمدًا من يثرب، ستة نفر من أهلها، ووفدٌ مؤلف
من خمسة وسبعين رجلاً، فبايعوه ودعوه الى اتخاذ يثرب
مسكناً. وإذ كان عرب يثرب على اتصال بمواطنيهم اليهود الذين
كانوا يترقبون ظهور المسيح فقد استعدوا الى ان يكونوا أكثر
استعداداً لاستماع صاحب الرسالة من أهل مكة. فزاد هذا في
حنق قريش وإمعانهم في اضطهاد المسلمين. فأوعز محمد الى من
من اتبعه ان يتسللوا متفرقين الى المدينة بعيدًا عن عين قريش
ولحقهم هو نفسه فوصل في ٢٤ ايلول عام ٦٢٢. وهكذا كانت الهجرة
التي لم تكن فراراً فجائياً بل خطة مدبرة من قبل عامين. وأصبحت
السنة التي هاجر فيها الرسول الى يثرب ابتداء من ١٦ تموز بدء
التقويم الإسلامي القمري كما أقره الخليفة عمر بعد سبعة عشر عاماً
من الهجرة. وعُرفت يثرب من بعد ذلك بالمدينة، أي مدينة النبي

هدأت العاصفة الآن بعض الشيء، واطمأن محمد بين المسلمين
في المدينة وبدأ دور جديد من أدوار حياته، هو الدور السياسي
الذي اهتم فيه بمصالح المؤمنين من مهاجرين وأنصار. ولما وثق
من استقرار الأمور انتهز فرصة الأشهر الحُرُم وخرج على رأس
فئة من اتباعه يعترض قافلة قرشية قادمة من الشام الى مكة
واحسّ زعيمُ القافلة بالخطر فطلب نجدةً من مكة. ولكن هذه
المعركة التي عُرفت بوقعة بدر أسفرت عن انتصار ثلاثمئة من المسلمين

على أكثر من ألف من المشركين . وعلى الرغم من أن هذه الموقعة
كانت موقعة حربية بسيطة فقد جعلت حجر الزاوية في تأسيس سلطة
محمد الزمنية . وقد اعتبر الناس هذا النصر العظيم بأنه معجزة تدل على
تأييد الله للإيمان الجديد .

ونجح في المدينة في معركته الأولى وحل الخضوع والطاعة
والازدراء بالموت ، وهي صفات لازمتهم في معاركهم الكبرى إبان
عصر الفتوحات . ومع أن المشركين أخذوا بثأرهم في العام التالي
وجرحوا النبي ، فإن انتصارهم لم يجن ثمره ، إذ استرد المسلمون
حميتهم وانتقلوا من دور الدفاع إلى دور الهجوم . وبعد [illegible]
عشر [illegible] ، وقد كان حتى ذلك الوقت عبارة عن دين
ضعيف الجانب خاضع للسلطة الغاشمة . أما الآن فقد أصبح لا دين
دولة فحسب بل الدولة نفسها . ومنذ ذلك الحين صار الإسلام ولا
يزال قوة حربية سياسية .

وشهر محمد حرباً على اليهود [illegible] وعزم [illegible]
منهم [illegible] الى أهم القبائل اليهودية ، وجلى
[illegible] منهم ، وأسكن المهاجرين في مزارعهم . ولم تكن هذه
القبائل هي الوحيدة في جزيرة الإسلام ، [illegible] آخر القبائل
التي خيّرها النبي بين الاستسلام والموت .

وفي هذه الحقبة من حياة النبي في المدينة صار [illegible] الإسلام
وحدة عربية قومية [illegible] انفصلت ملة الإسلام عن ملتي اليهودية
والنصرانية . وحل يوم الجمعة محل [illegible] الأسبوعية . وقام الأذان
مقام النواقيس والأبواق ، واختير رمضان شهراً للصوم ، وتحولت

الفين من بيت المقدس الى مكة . وأجيز الحج الى مكة وتقبيل
الحجر الأسود ، وهو من فروض الدين المرعية في الجاهلية

وفي عام ٦٢٨ حج محمد على رأس الف واربعمائة مؤمن الى
مكة ، مسقط رأسه ، وأرغم قريشا على توقيع معاهدة تسوي فيها
حقوق المكيين والمسلمين . فانقطع بذلك النزاع الذي استفحل
بينه وبين اهله القرشيين ، ولو الى حين . وفي خلال هذه الفترة من
الزمن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وقد كانا في الجاهلية
رجلين من قريش مشهورين ، ثم قيض لهما فيما بعد ان يرفعا لواء
الاسلام عاليا ويصبحا سيفه الحاد . وتم احتلال مكة احتلالا
كاملا في آخر كانون الثاني من عام ٦٣٠ ، ٨ هـ . فدخل محمد
الكعبة فحطّم الاصنام التي قيل ان عددها كان يربو على ثلاثمئة
وستين ونادى قائلا : جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل
كان زهوقاً . ولأن محمداً حطّم الاصنام وعفا عن معظم أهل مكة ،
وعفا عن مقاوميه فهم الناس سابقا من حرموه منه . وقد ضرب محمد في
التاريخ مثلاً للعفو عند المقدرة قلّ لها المثيل

وقرّر محمد في هذه الحقبة ان تكون مكة ومسجدها حراما
لا يجوز للمشركين الاقتراب منه . وورد في الآية التي ذهب المفسرون
الى ان الله قد حرّم فيها على غير المسلمين الاقتراب من مكة . وربما
كان المقصد من هذه الآية منع المشركين من الحج الى مكة في
موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال مرعيا . ولا يزيد عدد
النصارى الاوربيين الذين وفقوا الى زيارة الحرمين الشريفين
ونجوا بأرواحهم على خمسة عشر رجلا اولهم لودفيكو دي فارتيما

من اهالي بولونيه في عام ١٥٠٣ وآخرهم الدوق بورو الانكليزي .
اما الذي كتب اتم وصف لزيارته فكان بلا ريب السر رتشرد
برتون ١٨٥٣ .

وعقد محمد في العام التاسع من الهجرة معاهدات حسن جوار
مع صاحب مملكة نصراني في شمال ، ومع قبائل يهود المقيمة في
واحات مقنا واذرح والجرباء الى الجنوب . وبحسب معاهدات
اليهود والنصارى في حمى الاسلام وعليهم دفع الجزية والخراج
وصارت هذه الجزية قاعدة وهي في معاملات السياسة الاسلامية
فيما بعد

ويعرف هذا العام التاسع من الهجرة ٦٣٠ - ٣١ بعام
الوفود ، اذ فيه جاءت جماعات من كل حدب وصوب تعلن الطاعة
والولاء للنبي الأمين من انحاء الجزيرة ومن حضرموت واليمن . اما
العشائر الكبيرة فكانت ترسل الوفود . ولقد اعتنق كثير من
هذه قبائل الاسلام عن مصلحة شخصية اكثر مما اعتنقه عن
اقتناع روحي . فقد كان الاسلام يستلزم شهادة التوحيد مع تأدية
الزكاة . وهكذا حملت الجزيرة العربية التي لم تكن عرفت قط في
سابق الايام وحدة دينية ولا سياسية لسلطة محمد وتعلن اطاعته .
وشرعت عشائرها تنسى على الانحراف في ظلمة الجاهلية وتفرقها شيعاً
شتى متعاقدة الحمى واحد اربع

وفي العام العاشر من الهجرة دخل محمد عاصمته القديمة مكة على
رأس دفعة من الحجاج حافلة . فكانت هذه آخر زيارات النبي
مكة فسميت حجة الوداع . وتوفاه الله بعد ثلاثة اشهر من رجوع

أمي إلى المدينة مرض وشكا صداعاً في الرأس شديداً توفي على أثره في الثامن من حزيران عام ٦٣٢ .

وفي المهد المدني نزلت سور القرآن الطويلة ، وكانت فيها فصلاً عن الشرائع المدنية وفروض الصوم والصلاة وواجبات الجماعة [illegible] تبحث مسائل الزواج والطلاق ومعاملة العبد والأسرى الحرب والأعداء . وقد أوصى القرآن خيراً بالعبد واليتيم والمساكين والبائس والمحتاجين . أو لم يكن محمد [illegible] ؟

وعاش محمد حتى في أيام عزّه وعظمته [illegible] لا تكلف فيها ولا تظاهر . كان طويل [illegible] شديد الزهد في اللذة ، فسكن بيتاً من الطوب صغيراً لا يختلف عن بيوت القدماء التي يشهدها اليوم في الجزيرة وسورية ، [illegible] غرف وليس به [illegible] لا محل واحد من [illegible] العرف . وكثيراً ما شهده الناس [illegible] وكان يشاطر الناس حياتهم العادية ولا يرد أحداً من نعمة صغيراً كان أو كبيراً . ويروي أحد المستشرقين الإنكليز أن عمل محمد [illegible] صغيرة كانت أم كبيرة تركت أبعد الأثر في نفوس [illegible] حتى أصبحت قدوة يقتدي بها [illegible] إلى يوم الحاضر ، ولم [illegible] في [illegible] البشري فرد [illegible] [illegible] الإنسان [illegible] [illegible] التي [illegible] محمد .

ولم يترك محمد أي ثروة ، [illegible] عادت إلى بيت المال . ولقد تزوج من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوجهن بدافع الحب ومنهن من كان زواجه منهن لغرض سياسي أو اجتماعي . وكان منه

أي عائشة بنت أبي بكر أحب من سواها من أزواجه وقد ولدت له
خديجة عدة بنين وبنات ماتت صغاراً ولم يبق من نسله إلا فاطمة
زوج علي وقد كان موت ابنه إبراهيم من مارية القبطية فقد ترك
لوعة أليمة في نفسه .

ونشأت من الجماعة الدينية في المدينة من مهاجرين وأنصار أمة
الإسلام وهي أول من وحد بينهم وكانت هذه الجماعة نواة
في بناء دولة الإسلام الواسعة وفي الواقع كانت هذه أول محاولة
في تاريخ الجزيرة لتكوين أمة مبنية على رابطة الدين وتنظيم
الاجتماعية لا على أساس العصبية القبلية كما كانت الحال في
الماضي وبموجب العقيدة بأن الله يجمع كلمة المؤمنين وأن محمداً
خليفته على هذه الأرض وخاتم الأنبياء وما دام الرسول في
هذه الجماعة فهو المنفذ لأوامر الله والمرجع الأخير في شؤون الأمة
الدينية وعلى أساس هذه العقيدة التي جعلت من الجماعة الإسلامية
تابعة له في سلطته الروحية ، وشرعية من الحكم كما تدرسه رؤساء
الدول في العالم وعلى هذا الأساس أصبح المسلمون إخواناً في الدين
والعقيدة فتبع ذلك تضامن وعدم التعدي ، وكان خلافهم فيما عدا
رعاية قبائلهم . وقد أكدت ذلك كله خطبة النبي في حجته
الأخيرة في حجة الوداع « أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن
أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ
من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم »

وهكذا قضى الإسلام دفعة واحدة على رابطة العصبية القوية
في الجزيرة واستعاض عنها برابطة جديدة هي رابطة الدين فقضت

الجامعة الاسلامية ولا كهنوت فيه ولا رهبنة دينية ذات رتب
ومراتب واديرة . واصبح المسجد فضلا عن كونه بيت العبادة
منتدى المؤمنين ودار ندوتهم تلقى فيه الخطب وتجري البحوث
والمحادثات وساحة للتدريب العسكري . وصار الامام يقود
المؤمنين في ساحات القتال كما يؤمهم في الصلاة . وفرض على
المسلمين الزكاة والاحسان [illegible] ان العرب الذين [illegible]
الاديان الجديدة [illegible] الجامعة الروحية . ووسع الاسلام ما
قبله . وفي هذه الوحدة حرم القرآن الخمر والميسر وكان [illegible]
النساء ، الامر الشائن على [illegible] العربي . وكذلك نجح الاسلام
[illegible] الذي كان [illegible] الجزيرة [illegible]

ومن المدينة امتد الحكم الاسلامي الى كافة اطراف الجزيرة
ليشمل في مدة قصيرة [illegible] العربية و [illegible] الشمالية فغدت
جزيرة العرب في [illegible] مثلا [illegible] وجدت الجامعة الاسلامية
بعد . ولقد نجح محمد في سحابة عمر قصير [illegible]
[illegible] بفضله في تكوين امة متراصة من قبائل مختلفة متناحرة في
بلاد لم تكن تلك العهد الا تعبيرا جغرافيا . وإن [illegible] دينه قد
انتشر بسرعة في انحاء اقطار العالم كلها [illegible] اليهودية
والنصرانية . وفضلا عن ذلك فقد وضع محمد حجر الأساس
لامبراطورية [illegible] فضلى [illegible] العالم المتمدن
يومئذ . واليوم يدين جزء كبير من العالم بالاسلام [illegible] معالم
هذا الرجل الأمي الذي كان الواسطة في اخراج كتاب لا يزال
ثلث سكان المعمور [illegible] العصر في علم والحكمة والدين .

القرآن والإيمان

ليس غريباً أن ترى في [illegible] مصحف ورقة من
الأرض [illegible] مكاناً في [illegible] خشية أن يكون في [illegible]
ذكر الله وآية من القرآن [illegible] واسم [illegible] القرآن
كتاب الله [illegible] وتقديسه [illegible] كلمة الله التي املاها
جبريل على محمد [illegible] ([illegible] سورة الواقعة)

ومع أن في [illegible] من العرب من [illegible] عدد
[illegible] القول بأن القرآن هو الكتاب الذي يقرأه الناس
أكثر من [illegible] ليس كتاب [illegible] فقط بل هو كتاب درس
و[illegible] كل مسلم [illegible] في [illegible] اللغة العربية وليس
للقرآن ترجمة [illegible] في لغة [illegible] الترجمة التركية [illegible] ولكنه
[illegible] وأول ترجمة للقرآن الى

لغة اجنبية كانت في اللغة اللاتينية وتم بها في القرن الثاني عشر
بطرس كلوني الملقب بالموقر . وقد زيدت هذه الترجمة الى بعض
المعاهد الاسلامية وتكلم عنها ارسوب . أما اول ترجمة انكليزية فقد
ظهرت عام ١٦٤٩ وتم بها اسكندر روس معتمداً على نسخة
افرنسية ووضع لها الاسم ... محمد . وهي ترجمة انكليزية حديثة
وضعت ارضاء لرغبات من يريد الاطلاع على بعض التراث .

ولسنا نجد في القرآن آيات كثيرة وقع الاختلاف في القراءة
كما هي الحال في بعض التوراة والانجيل . ولقد كان المؤمنون في
البدء يحفظون سوره وآياته عن ظهر قلب ، حتى اذا خشي
انقراض الحفاظ بسبب الحروب شرعوا بجمعه . وقد تم جمع
المصحف من قطع الورق ... جمع عثمان وهو ... النحل)
ورقاع اللحف والحجارة البيضاء الرقيقة ومن صدور الرجال .
... نقص ... ثم ... نص القرآن
الرسمي كاملاً وكان ذلك في ... عثمان بعد موت النبي بخمسة عشر
عاماً ... وما زالت هذه النسخة هي النسخة ... فلا يجوز
الحذف منها ... زيادة عليها ... بسبب ... م
... .

ولقد احصيت آيات القرآن فكانت ٦٠٢٣٦ ... واحصيت
كلماته فكانت ٧٧٠٩٣٤ كلمة ، واحصيت كذلك حروفه فكانت
٣٢٣٠٦٢١ حرفاً والقرآن هو ... الدين الاسلامي والهادي الى احكامه ،
وهو فضلاً عن ذلك موجز علمي وبحث ... مجموعة قوانين وشرائع ... شؤون مملكة على هذه الارض .

ولا يفوت الناظر أن معظم ما يحتويه القرآن من حوادث
تاريخية امثالها واردة في التوراة . ومن رجال العهد القديم الذي
ورد ذكرهم في القرآن : آدم ونوح وابراهيم ، وورد ذكره سبعين
مرة ، واسماعيل ولوط ويوسف وموسى ، وورد ذكره في ٣٤
سورة ، وشاول وداود وسليمان والياس وايوب ويونس
وهارون . وقد ورد ذكر قصة خلقة وسقوط آدم خمس مرات
وورد ذكر قصة الطوفان ثماني مرات ، وسبع قصة سدوم . والقرآن
لا يذكر شيئاً من رجال العهد الجديد سوى زكريا ويحيى (يوحنا
المعمدان) وعيسى ومريم . ومن الآيات التي وردت فيها عبارات
كهذه : والعين بالعين ، والسن بالسن ... الخ ، ولا تزر
وازرة وزر اخرى ، وكل نفس ذائقة الموت . فالظاهر
انها من الامثال السائرة في ذلك العهد واقوال مشتركة بين العبرانيين
والعرب فهي واردة في العهدين القديم والجديد . اما القصص
التي ينسبها القرآن الى عيسى كالعجائب ، وتكلمه الناس في المهد
(آل عمران ، والمائدة) وخلقه من الطين كهيئة الطير (آل
عمران) فهي من الخوارق التي جاء ذكرها فقط في الاناجيل
الابوكريفية غير المعترف بها كانجيل الطفولة .

والدين الاسلامي اقرب الى اليهودية القائمة على العهد القديم منه
الى النصرانية والعهد الجديد . ومع ذلك فمعرفته من النصرانية كان
شديداً بحيث حسبه الناس في اول عهده بدعة نصرانية جديدة
لا ديناً مستقلاً ومن هؤلاء دانتي في روايته الكوميدية الالهية .

ومن ينظر في القرآن يجد ان ترتيب سوره جرى على أساس

الطول والقصر . فسور مكة وهي نحو سبعين ترجع الى عهد
الجهاد في حياة النبي . وهي سور بعضها قصيرة موجزة جامعة ذات
اسلوب قوي فصيحة بحسب السورة ومحورها الدلالة على
وحدانية الله وصفاته وواجبات الانسان الادبية والحساب الاخير .
اما السور المدنية التي نزلت على محمد في عهد النصر فهي اربع
وعشرون وتبلغ نحو ثلث مجموعة القرآن . وهي تتوسع مفصّلة
عنه مادّة الشريعة . وفيها وردت اهم تعاليمه واحكام الصلاة
والصوم والحج والاشهر الحرم . وفيها ايضاً شرائع تحريم الخمر
ولحم الخنزير والميسر واحكام تتعلق بالمال والحرب وفروض الزكاة
والجهاد وقوانين مدنية وجزائية تتعلق بالقتل والثأر والسرقة
والزنى والزواج والطلاق والارث والميراث وعتق العبيد . اما
احكام الزواج التي تنكر الاستبداد في المرأة فهي في الواقع
محدّدة عدد الزوجات وقيود لما كان قبله . ويعتبر الغربيون
خصوصاً احكام الطلاق اشد الاحكام استنكاراً ، والشرائع التي
تبيح تعدد النساء والتسري وضرب النساء اكثرها رقة وروحاً . ولقد عدّ
القرآن ان عتق العبد صدقة يرضى بها الله من الانسان كفّارة عن
ذنوبه .

والقرآن كتاب حي فعال له تأثير عجيب في النفوس وخصوصاً
اذا تلي مرتلاً بلغته الاصلية . وبعض تأثيره في النفس راجع الى
ما هو عليه من حسن السبك وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى
الالفاظ والانغام . ومن العسير او المستحيل ان يستطيع مترجم
نقل هذه المميزات في اسلوب انشائي رائع الى لغة اجنبية . وليس

القرآن كتاباً صغير فصوله لا يزيد في الواقع على اربعة اخماس العهد
الجديد باللغة العربية . أما تأثير القرآن الديني في الاسلام وسلطته
الحازمة في الشؤون الروحية والادبية فناحية أخرى من نواحي
عظمته . والمسلمون الذين يحصلون علم الدين والفقه والعلوم الاخرى
يعرفون معرفة موضوع واحد يحفظون القرآن ويجب تحديثهم من
كافة النواحي ومن هنا كان عندهم كثير ممن يستطيع يحفظ من هذه
كل صاب للعلم الحر . وما يزال القرآن في الأزهر ، وهو اقدم
جامعة اسلامية في العالم ، اساس منهج الدراسة والتعليم .
وللقرآن فضل كبير على الادب في صيانة اللغة العربية ، ولولاه
لأصبحت لهجات متعددة لغات مستقلة كما جرى للهجات الرومانية
التي كانت في اول عهدها لهجات من اللغة اللاتينية ، فليس يلقى
العراقي اليوم صعوبة في فهم لغة المراكشي العامية ولكنه لا يلاقي
جهداً في ادراك لغة مراكش المكتوبة لأن اللغة العربية المكتوبة
سواء كانت في العراق ام مراكش ام سورية والجزيرة ومصر ام في
غيرها من الاقطار العربية الاخرى هي لغة نسجت على هدى القرآن
انموذج نسج عليه الكتاب . ولم يكن في اللغة العربية من قبله
كتاب نثري على الاطلاق . ومن هنا كان القرآن في الحقيقة ، ولا
يزال الى يومنا هذا ، المثل الاعلى للاسلوب النثري الرشيق . وليس
من شك في ان لغته موسيقية وبليغة ، ولكنه غير شعرية
والكتاب المحدثون يحذون حذوه ويحاولون تقليده ما استطاعوا
الى ذلك سبيلاً .

ويعتبر القرآن في اصول الدين الاسلامي بين الاقوال والمعتقدات .

أما الإيمان فهو الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر. واول عقائد الايمان واهمها انه لا اله إلا الله، وانه هو
المهيمن على كل شيء. والواقع ان محور العقيدة في الله من اصول
الدين الاسلامي يدور حول فكرة الوحدانية، فهو الاله الحق والحقيقة
السامية، الكائن منذ الأزل والخالق العليم القدير، الحي القيوم،
وله من الاسماء الحسنى تسعة وتسعون وهي تمثل هذا العدد من
الصفات. وليس هذا هو السبب في ان تسعة اسماء [illegible] من سبع
وسبعين حرفاً. وتتغلب صفات القوة والجلال في الله على صفات
الحب [illegible] الاسلام [illegible] والاسلام [illegible]
كان [illegible] التي حدثت في قصة
ابراهيم، [illegible] ان فكرة الله هي الاصل في نشأة هذا
الدين الاسلامي. [illegible] في الاسلام [illegible] من سلطة
والإيمان واسع [illegible] هو فكرة التوحيد [illegible] وهذا
نرى الشيعة يسمون [illegible] والاسلام لا [illegible] اتباع الاديان
الأخرى. ونحسب هذا سر الاستقرار [illegible]

والعقيدة الثانية في الايمان هي ان محمداً رسول الله وعبده،
ومدير قومه، وحلقة سلسلة طويلة من الانبياء، وهذا فهو اعظمهم
وليس محمد إلا بشراً في عين الاسلام القرآن. والمعجزة الوحيدة
التي جاءت عن محمد كانت إعجاز القرآن. إلا ان العقائد
والاساطير التي راجت بين العامة قدمت الرسول هالة من نور
الالهي. والدين الاسلامي مبني على ليس فيه ما يصعب ادراكه،
ويكاد يكون خلواً من التعقيد والالتباس وليس فيه شيء مما

مثل الاسرار السبعة المقدسة ، والمراتب الكهنوتية ، او فروض التوبة والمسح والتكريس ، و « الخلافة الرسولية » .

والقرآن هو كلمة الله ، وآخر الكتب المنزلة . وهو « غير مخلوق » وكل اقتباس منه يسبق « قال تعالى » . وكل ما فيه من تركيب لفظي او تعبيري نسخة طبق الاصل عن ام الكتاب أي اللوح الازلي المحفوظ في السماء السابعة . وإذا كانت هنالك معجزات فالقرآن اعظمها ، ولو ان الانس والجن اجتمعوا لما استطاعوا ان يأتوا بمثله .

ويجمع الدين الاسلامي عناصر في مقدمتها الملائكة فهو حامل الوحي ، والروح القدس ، والروح الامين .

والخطيئة الاصلية او فرضية ، والاثم الوحيد الذي لا يغفره الله هو خطيئة الشرك . « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك » (سورة النساء) والمرجح ما كان يعنيه محمد هو ان تتخذ لله شركاء ، وهكذا ترى السور المدنية وهي ملأى بتهديد المشركين ووعيدهم بسوء المصير . والراجح ان محمداً لم يشمل اهل الكتاب وهم النصارى واليهود في عداد المشركين ، مع ان بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك .

وأشد اقسام القرآن تأثيراً في النفس تلك التي تعنى عناية خاصة بموضوع حقيقة الآخرة ، ففيها اشارات متتالية الى « يوم الدين » و « يوم البعث » و « اليوم » و « الساعة » و « الحاقة » . والآخرة التي صورها القرآن وما فيها من عذاب ولذة جسدية تدل على الاعتقاد بالبعث الجسدي .

اما العبادات في الاسلام فتقوم على خمسة اركان : اولها
الشهادة وتتلخص في العبارة الموجزة التالية : « لا اله الا الله محمد
رسول الله » . وهذه اول عبارة تطرق اذن الطفل المولود في
حضن الاسلام ، وهي آخر ما تقال على الميت . والمسلم لا يسمع
بين مرحلتي الولادة والموت عبارة تتكرر اكثر من هذه ، وهي
ترد في دعوة المؤذن للصلاة فيدوي بها مرارا كل يوم من على
رؤوس المآذن . وقد اكتفى الاسلام ، على العموم ، بهذه الشهادة
البسيطة ، فهي تتسم بوضوح اتسمت به العقيدة نفسها .

وثاني هذه الاركان الصلاة التي فرضت على المسلم البالغ ان
يؤديها خمس مرات في اليوم ، موليا وجهه شطر مكة ، وذلك عند
الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . وعبارة « شطر » تعني ان العالم
الاسلامي في صلواته يؤلف دوائر متحدة المركز الواحدة
ضمن الاخرى ، وكلها تلتقي في مركز واحد هو الكعبة .
وآخر هذه الحلقات تمتد من سيراليون في الغرب الى الفليبين في
الشرق ، ومن تركستان في الشمال الى رأس الرجاء الصالح في
الجنوب .

والصلاة المفروضة كما يحددها الشرع يجب ان تؤدى باتجاه نحو
القبلة ، وعلى طراز واحد من السجود والركوع . وعلى المتعبد ان
يقوم بها وهو في حالة طهارة ، وان يؤديها باللغة العربية مهما كانت
لغته القومية . وهذه الصلاة تشكل ثلاث حقائق مهمة ، وهي تقوم على
الاكثار من ذكر الله والتكبير ثم تقوم على المؤمن والتضرع .
والفاتحة على سبيل تسمية السبع المثاني ، ويشبهها بعضهم بالصلاة الربانية

عند العسكري، والمسلم يردده نحو عشرين مرة في اليوم. فهي اكثر الصلوات المعروفة في الدين ورودا. ثم الصلاة التي يقوم بها العبد احتسابا اثناء الليل التهجد فهي في نظر الله تعالى تستحق التقدير المزدوج.

وصلاة العصر من كل يوم جمعة هي صلاة الوحدة العمومية ودوام على كل مركز جمع عدد . وبعض الجوامع تحتوي حتى على ... وفي صلاة الجمعة يدعو الامام للخليفة الشرعي العمومية. وليس من شك ان الصلاة العمومية فوق صلاة الجمعة صلاة وحدة ونظام. ومن غير الممكن عدم ان ترى العابدين مصطفين في المسجد اثناء الصلاة في صفوف منتظمة تشبه ... الامام يده وخشوع. ومن لا ريب فيه ان هذه الصلاة العمومية كانت اكبر عامل ادبي في توحيد صفوف المسلمين من ... ذوي النفوس الصغيرة لانها تشبعهم روح الخيرة. وقد غرست فيهم روح المساواة الاجتماعية وسمو التوحيد وقد قربهم الحق الذي الذي يشده مع ... من المؤمنين ... العمومية. وهكذا اصبحت هذه الصلاة حصة اولى في الدرس العسكري.

وثالث هذه الاركان الزكاة. وقد كانت في الاصل عملا احسانيا تقصد منه اسداء الخير والاحسان الى ذوي الحاجة لكنها ما عتمت ان اصبحت فرضا على المقتدرين فيه المال وتصبح والحبوب والاثمار والمواشي. وقد عهدت الدولة الاسلامية العتيدة جباية الزكاة الى عمال في مختلف الولايات. ويوجد بيت المال

ادارتها منذ تحققت الدولة وفق عدة الفقراء وبناء الجوامع ، ومنذ الذي تقوم عليه الزكاة تقرب من مبدأ العشر الذي كان عرب الجنوب يؤدونه لآلهتهم قبل ان يستجمعوا محصولهم ولقد اختلف مقدار الزكاة على مر الايام ، ولكنه كان على وجه العموم اثنين ونصفاً في المئة ، ولم يستثن من هذا ولا بيت المعاهد في الخدمة ، ولما تضعضعت الدولة الاسلامية رجعت الزكاة الى مبدئها الاصلي نذراً على الوجدان

ورابع هذه الاركان صوم رمضان ، ومع ان تسمية اللفظة وردت في القرآن عدة مرات فصوم رمضان لم تذكر الا مرة واحدة . ويحتم الامتناع فيه عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس . وقد عرفت حوادث استعملت فيها الحكومات واندفعت في البلاد الاسلامية العنف مع المسلم غير الصائم . وليس لدينا دليل على ان عرب الجاهلية كانوا يمارسون الصوم ، إلا ان هذه العادة كانت معروفة عند اليهود والنصارى في اوائل عهدهم

أما الحج فهو الركن الخامس والاخير ، وهو فرض موجب على كل مسلم ومسلمة زيارة البيت الحرام مرة واحدة في العمر في وقت معين من السنة ، اذا استطاعا الى ذلك سبيلا . وعلى الحاج ان يكون في حالة الطهارة المرموز اليها بلبس إزار ، وهو قطعة واحدة من قماش غير مخيط ، وان يراعي علاوة على المحظورات المفروضة في صوم رمضان ، كمقاربة النساء (انظمة خاصة تحرّم إهراق الدماء والصيد وقلع النبات) والحج الى الاماكن المقدسة

كان لهذه السنة القديمة ظاهرة آثارها في التوراة

وجماعات الحجاج من الشمال والجنوب والغرب تزداد عدداً بمواصلة الرحلة وهي تختار أواسط أفريقيا متجهة شرقاً . وبعض الحجاج يسير مشياً على الأقدام وغيرهم يركب الإبل . ومنهم من يعوّل على الأنهار في طريقه وغيرهم يعتمد الاستجداء . وكثير من الحجاج يموتون على قارعة الطريق فيعدّون شهداء . أما الذين يحجون برواحلهم فيسعون في انتهاء أحد مرافئ البحر الأحمر العربية ، ومنه ينقلون بقوارب إلى الشاطئ المقابل على أن مواكب الحجيج الأربع الكبرى تجيء من اليمن والعراق وسورية ومصر . وقد كان كل من هذه المواكب في ماضي يرأس كل عام على رأس قافلة حججت محملاً يرمز إلى مكانتها . والمحمل مظلة تنسج من الحرير وأنواع الزينة والزخرف تحمل على جمل قد زين دون أن يركبه أحد . ولم يبق في الأعوام الأخيرة ما يشبه ركوبه وانتهت العادة القديمة إلا المحمل المصري

ولقد بلغ متوسط عدد الحجيج السنوي بعد الحرب العالمية الأولى ١٧٢٠٠٠ حاجاً . وكان عددهم لعام ١٩٠٧ حسب الإحصاء التركي ٢٨٠٠٠٠ حاج . وبمكة يرى عادة أكبر عدد من الحجاج في كل عام ويبلغ نحو ٣٠٠٠٠٠ حاج . ويعتبر الحج على أنه أكبر مظهر أكبر عامل موحد في الإسلام ، وأقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين . وهو ابدي يحمل من كل مسلم قادر رحلة ولو مرة في عمره . واجتماعات كهذه ذات تأثير اجتماعي فعال بين جماعات المؤمنين الذين يأتون من أقصى المعمورة الأربعة . وتختلف اليوم الجنوب والغرب

و حسين والفرس والسوريين و [illegible] والعرب [illegible] الفقير [illegible]

والغني والوضيع والرفيع [illegible] أن يجتمعوا [illegible] على [illegible] لا [illegible]

المشترك [illegible] وحتى ان الاسلام قد وفق أكثر من الأديان [illegible]

في القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية [illegible]

ولا شك في أن الحج في موسم [illegible] له فضل أكبر في

تحقيق هذه [illegible] ، وعلاوة على ذلك فقد [illegible] الحج [illegible]

لنشر الدعوة والأفكار [illegible] من الناس [illegible]

[illegible] لا [illegible] ،

[illegible] قبل [illegible] .

وهناك فرض آخر [illegible] الخوارج [illegible] العرق

الاسلامية [illegible] وهو الجهاد [illegible] في توسيع

الاسلام [illegible] لا [illegible] واجب

الخليفة الرئيسية [illegible] عملا في توسيع [illegible] الاسلام

[illegible] في [illegible] في

[illegible] العالم الاسلامي [illegible]

[illegible] حكومات [illegible] وقد كان

[illegible] العالم الاسلامي [illegible] للجهاد وذلك في

حرب سنة ١٩١٤ [illegible] .



سير الإسلام

إن أهم حدثين في أوائل العصور الوسطى كانا هجرة
القوطيين التي نجمت عن انحلال الأمبراطورية الرومانية، ثم
الفتوحات العربية التي قضت على دولة الفرس وزعزعت أركان
الامبراطورية البيزنطية. ولو نظر أحدهم إلى البداوة في أوائل
القرن السابع المسيحي لظهور قوة سبق لها خطر تقوم في كاهل
الجزيرة العربية التي لم يكن لها ملاذ إلا رعي ودفع بعضهم على
لذويهم الغنيمة الوحيدتين في ذلك العهد فتحل الواحدة
مستضعفة، وتجرد الأخرى المنتصرة من غنى ولا انتهاء
أقول لو تجرأ احد على مثل هذه النبوءة لعدّه الناس مجنوناً. وقد
حدث هذا عينه. إذ بعد وفاة النبي العربي تحولت الحروب من دائر
غزوات أخرى وبدأت فتحت أفضلاً في سيشهم في العالم.
فحملات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في العراق والشام ومصر

تعدّ من أروع الحملات [illegible] في تاريخ الحروب [illegible]
حملات [illegible] والإسكندر.

وقد ساعد العرب في فتوحاتهم عوامل عديدة. فالحروب المتواصلة
بين البيزنطيين والفرس [illegible] في [illegible]
وأضعفت قواهما. والضرائب الفادحة [illegible] هذه الحروب
المفروضة على رعايا الدولتين [illegible] حدت من ولائهم [illegible] واستياء
بعض القبائل العربية [illegible] والعراق، والانشقاق في الكنيسة
المسيحية، واضطهاد الكنيسة [illegible] المنشقين عنها [illegible] كل هذه
[illegible] السبيل [illegible]. وقد رحب سكان البلاد [illegible]
في سوريا وفلسطين والأقباط في مصر [illegible]
[illegible] من حكامهم [illegible] وفضلاً عن ذلك [illegible]
[illegible] كانت [illegible] في حين [illegible]
المسلمون [illegible] على [illegible] أوسع [illegible]
أكثر وهكذا [illegible] الشرق [illegible] من [illegible] الطويل وأمسك
[illegible] للغرب الأوروبي [illegible] ولا غرو فقد
كان العرب [illegible] ومشرقاً [illegible]
والانحدار، [illegible] الجديد

ويرجع [illegible] العرب [illegible] إلى استخدامهم
[illegible] على
[illegible] وكان [illegible]
[illegible] والقلب، والميمنة، والميسرة،
والساقة [illegible] وكان [illegible]

على اساس وحدة القبيلة، وكان لكل قبيلة قائد يرأسها، وهو [illegible] عن رمح مرفوع على قمته [illegible] شعار [illegible] شعار النبي فكان العقاب. وكان المشاة يستعملون القوس والنشاب والمقلاع والحربة والسيف والترس، وكانوا يحملون السيوف في اغماد [illegible] في الكتف [illegible] الخوذة التي [illegible] من [illegible] فكان ظهورها متأخراً. وكان سلاح الفرسان الرئيسي الرمح، وهو مع القوس والنشاب قوام السلاح الفردي [illegible] عمدة [illegible] الترس الذي كان اخف من ترس المشاة.

وكان القتال [illegible] من الصفوف في ترتيب متراص. وكانت المعركة تبتدئ [illegible] الابطال الذين كانوا يتقدمون من مراكزهم في الصف [illegible] الخصم للبراز. وكان [illegible] على [illegible] او البيزنطي [illegible] انه كان [illegible] من [illegible] ولم تكن الخوذة [illegible] في [illegible] وخفة [illegible] ولا شك ان قوة الجيش العربي [illegible] على تفوق سلاحه وحسن [illegible] على قوة [illegible] من [illegible] وعلى [illegible] التي اعتادوها في صحرائهم، وعلى [illegible] القتل.

وتكاد المراجع العربية [illegible] الحركة الاسلامية كحركة [illegible] ومن جهة اخرى [illegible] ان [illegible] في [illegible] في [illegible] ان [illegible] ذلك [illegible] وهو الحرب [illegible]

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» سورة التوبة .

وليس من شك في ان الاسلام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الصحراء الجدبة الى الاستقلال [illegible] كبرى

[illegible] وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر ، [illegible] الاسلامية [illegible] مرسومة [illegible]

كانت مبنية على ثروات مصدرها أروع الحركات للفتح ، الفتح
الذي حرّم الاسلام به وسمة بين القرى الشمية الضخمة ... وعقب
الاولى العسكرية لا انفتح الدائم والاستمرار . ... انه ... الاتباع
أصبحت هذه الحركة من يد اصحابها وازدادت قوة وشعر بالظفر
بعد الظفر والانتصار بعد الانتصار . وعندئذ بدت الحملات العظيمة ،
وأصبحت تسمى الدولة العربية دولة عظيمة . وفي ... لعرب ...
هذه الدولة كانت دولة مصيبة غرى الحوادث لا ... و ...
- ق

و ... الذي ... الاسلامي ... [illegible] ... عهد ...
في العهد القديم ... في العصور الوسطى وهو
فضلا عن ذلك يستند الى ... لغوي ايديولوجي ... خاص . فحقيقة
الاسلام تشكل اسسها ... ثلاثة : هو الدين وثانيها
الدولة وثالثها الثقافة . فالاسلام ، كدين ، ... على العبودية
الوثنية القديمة ، ومع ... في كونه دينا ... فضلا .
والاسلام ، كدولة ، ... الاول هو الذي ... الأوائل
الشمالية . فالصحراء ... الدولة لا الدين ، وخروج
عرب من جزيرتهم ... كغنيمة ... فوسعه
كان في الدرجة الأولى فوز للعروبة ... السواد الأعظم
من أهل سورية والعراق وفارس في دين الاسلام حتى القرن الثاني
والثالث للهجرة . وكان يحرص في الأصل ... كي لا
يدفعوا الجزية وليصبحوا في عداد الطبقة الحاكمة . أما الاسلام ،
كثقافة ، فقد تكونت تدريجيا بعد الفتح على أساس حضارات

التربة الزراعية ، أعرض بالعودة الى سقفه . وهكذا لم يستعد الشرق الأدنى الإسلامي مكانه السياسي في عصرنا بل استعاد أيضاً ثقافته السابقة الرفيعة .

وقبل أن يتدفق العرب من جزيرتهم ويحتلوا بلاداً أخرى كان لزاماً عليهم أن ينظروا في شؤون عقيدتهم وأن يجيبوا في حل مشكلة معقدة هي مشكلة خلافة الرسول .

كان الرسول وهو في قيد الحياة يوحد وظائف عدة : كان هو النبي والمشترع والإمام والقاضي وأمير الجيش ورئيس الدولة السياسي ولكن محمداً مات فبرزت مشكلة الخلافة على وظائف النبي بشعبها المتشابكة ، ووظيفته الروحية التي لا يستطيع أحد أن يخلفه فيها ، ووظيفته حاكم الزمن والسلطة .

مات الرسول عن ابنة واحدة فاطمة زوجة علي — دون أن يعقب ذكوراً . والشيعة اعتبرت هذه القربى وراثة من شأنه أن يحتج به على أساس الأقدمية في النسب . ومن هنا جرى أن يعترض أنه يوم يحتجب النبيّ ستنفتح مشكلة الخلافة دون حل . ثم إن النبيّ لم يعيّن خليفته بنص واضح . فالخلافة إذاً أقدم مشكلة عرفها الإسلام ولا يزال يحتج بها الى اليوم . ففي آذار سنة ١٩٢٤ ألغى الأتراك الكماليون الخليفة عبد المجيد الثاني وألغوا الخلافة العثمانية وكانت نشأت منذ ستة عشر شهراً من تقويضهم للسلطنة . ومنذ ذلك اليوم انعقدت عدة مؤتمرات إسلامية في القاهرة ومكة للبحث في أمر الخلافة ، ولكن دون جدوى . ولقد صدق الشهرستاني عندما قال : « وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سُلّ في

الاسلام على قاعدة دينية مثل ما حدث في الامة في كل زمان .

وعلى ان وفاة النبي قد نتجت عنها انقسامات كما يحدث في اي جماعة يتداول الناس فيها امر الحكم . فادعى المهاجرون المكيون انهم اولى الناس بخلافته لانهم من قبيلة النبي ولكونهم اول من صدق بدعوته . ومن جهة اخرى ادعى الانصار المدنيون انه ولا حماية للنبي والاسلام الا في مدينتهم التي وهبت الاسلام خير ابناء العرب الذين حاربوا في صفوف [illegible] المعروف [illegible] ثم جاء حزب النبي والعباس وحجتهم [illegible] كما كانوا من اسبق الى [illegible] و [illegible] فيما بعد [illegible] وعلي من مخلفي النبي ، وابن عمه ، [illegible] وزوج ابنته فاطمة ، واحد [illegible] في [illegible] ولهذا هو الخليفة الشرعي [illegible] بعد [illegible] آمين . وهكذا اعتمد الشيعة في حكمهم على شرف العنصر الالهي لا على شرف الدم [illegible] وكان هناك حزب آخر هو الامويون من اشراف قريش الذين تفوقوا على غيرهم بالسعة والثروة في الجاهلية ، وقد حاولوا [illegible] بالخلافة ، رغم كونهم آخر من اعتنق الاسلام من هذه الاحزاب .

ثم ان اول هذه الاحزاب فوزا بالخلافة [illegible] يقول المتشيعون ان [illegible] وكان ابو بكر شيخا [illegible] ومن اول الذين صدقوا النبي وآمنوا بنبوته . وهو ابو عائشة ، احدى ازواج النبي . ثم تبع ابا بكر في الخلافة عمر وعثمان وعلي . وهؤلاء الاربعة هم الخلفاء الراشدون . وفي مدة خلافتهم كانت حياة النبي [illegible] وهيجانها [illegible] ولا [illegible] فقد [illegible] وانتصر

الصداقة والقربى .

ويقول المؤرخون العرب إن الجزيرة ، بعد الحجاز ، ارتدت عن الإسلام على أثر وفاة النبي . أما الواقع فهو أن المقاطعات التي أسلمت في حياة النبي وخضعت لسلطته ، تحررت [illegible] تلك الجزيرة . وذلك لجهود [illegible] [illegible] السياسية [illegible] الواقعة بين [illegible] وفاة النبي [illegible] [illegible] حتى سنة [illegible] وفاة النبي . فالحروب [illegible] التي قام بها أبو بكر [illegible] لم يكن المقصود منها إكراه [illegible] إلى حظيرة الإسلام [illegible] غير المسلمين في حظيرة ، وفي هذه الحروب اشتهر خالد بن الوليد ، أظهر من براعة في القيادة ونبوغه في [illegible] وهكذا توحدت الجزيرة تحت راية الإسلام وذهب [illegible] على [illegible] . وكان لا بد ولا من أن [illegible] من [illegible] الأرض الأخرى

وجاء دور [illegible] وكان [illegible] في [illegible] البيزنطيين الذين ورثوا عن الرومان . وكان قد أصاب هؤلاء من [illegible] الإسكندر الذي اكتسحهم قبل [illegible] نحو [illegible] عام . وقد أدرك قواد البيزنطيين أن [illegible] من الجزيرة الذين [illegible] يعبرون الحدود و[illegible] إلى [illegible] . [illegible] يكونوا غزاة عاديين كالذين عهدوهم من قبل . وما لبثوا أن اكتشفوا عدوهم هذا فيه نشاط جديد وإذا بيده سلاح جديد . وكان سلاحهم هذا سرعة حركتهم [illegible] العربي [illegible] عنصر جديد فعال في الحرب وما [illegible] « سيف الله » الأمر [illegible] الجيوش العربية

لما كان معظم جيش البيزنطيين مشتبكاً مع قسم من جيش العرب

الشرقي كان خالد ورجاله يطوون الصحراء قادمين من جنوب العراق الى

ان ظهر بغتة بجوار دمشق العاصمة السورية . وقد حمل المحاربون

معهم في القِرَب الماء حتى اذا عطش الخيل شرب الماء في بطون

الرواحل . فكانوا ينحرون هذه الرواحل ويسقون خيولهم

ويروون ظماها بما حوته اجوافها من ماء . وبعد

اسبوعين من مغادرة العراق وقف خالد امام ابواب دمشق منتقلاً

ومن هنا بدأت غزوات العرب الحقة .

واستسلمت دمشق بعد حصار طال ستة أشهر وهي التي كانت

رواية عربية قديمة مدينة في العالم ، والتي قدّر لها ان تصبح فيما

بعد عاصمة للدولة الأموية . ان المعارك الأخرى فقضت على ما

العاهل سعود اوراق احب عند هبوب ريح ، عمر ان الفرس ،

امبراطور الدولة البيزنطية حشد جيشاً مؤلفاً من خمسين الف مقاتل

لمقابلة المسلمين فهاجمهم خالد ، بعد ذلك عند وادي

اليرموك ، احد روافد الأردن ، في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ . وكان

يوماً شديد الحرّ عصفت فيه الرياح فحملت الغبار والرمال سحاباً

كثيفاً أعمى عيون البيزنطيين . ويظهر ان القادة العربية اختارت

هذا اليوم بحد ذاته لأنهم اعتادوا هذه الحوادث الجوية وعرفوا

كيف يتحاشونها في حين لم يعتدها البيزنطيون . فلما هجم أبناء

الصحراء على البيزنطيين لم يثبت امامهم جيش على الرغم من

صلوات قسسهم وترتيلهم ووجود الصلبان في صفوفهم . فهزموا

وانكسروا هزيمة منكرة . ولم يقف بعد في سبيل الجيوش العربية ،

فسيرت في سيرها حتى بلغت خط الحدود، وهي تخوم سوريه الطبيعية في الشمال.

وقد أكسب هذا الفتح السريع، على ما وصفه البلاذري، الدولة الإسلامية الفتية هيبة ووقاراً في أعين الناس، وزادها اعتداداً بنفسها وثقة في هذا العالم [illegible] وقد كانت مغامرة حربية [illegible] من [illegible] دون ذلك الخطر. فأصبحت سورية أكبر مركز استطاع المسلمون الزحف منه الى أرمينية وحتى العراق وبلاد الكرج و[illegible] ووجهة آسيا الصغرى عدة مرات في السنين التي تلت.

وخالف [illegible] وجهوا الى الفرس واقتحموا [illegible] الحرب [illegible] في سنة ٦٣٧ وفي يوم اشتدت عواصفه واكفهر جوه [illegible] كيوم موقعة اليرموك[1] اشتبكت العرب مع الفرس [illegible] على الفرس [illegible] وسهول العراق [illegible] وتابع المسلمون تقدمهم [illegible] على الرغم من [illegible] سهول الربيع، دون أن [illegible] اي [illegible] في الفرس [illegible] أهل العراق كما [illegible] أهل سورية [illegible] عقوبتين، ولأن الثقافتين [illegible] متصلا في [illegible] كسرى مع [illegible] الفرس من عاصمته

---

(١) جمع عاصفة [illegible] موضع [illegible] في [illegible].

المدائن دون دفاع . فدخل المسلمون اعظم عاصمة في غربي آسيا ظافرين . وقتل كسرى بيد احد رعيته طمعاً في جواهر تاجه فقضى آخر عاهل لامبراطورية ازدهرت مدة اثني عشر قرناً . ولم تنهض تلك الامبراطورية ثانية الا بعد تسعة قرون من ذلك التاريخ

ولاول مرة واجه ابناء الصحراء الحياة غير الخشنة وشاهدوا ، فخامة القصر الملكي ومجالسه الرحبة ودقة الصنعة ورونق الفن واكوام النقد في الخزينة فبهرت البدوي اول الامر وادهشته غير انه ما لبث ان ألف هذا كله تدريجاً . فبدت منه في اثناء ذلك امور مضحكة . فظن الكافور ملحاً واستعمله للطبيخ . وسارع الى استبدال الفضة بالذهب لعدم معرفته بالاول وجهله بالثاني . ولما لام بدوياً اصحابه لبيعه بنت احد الاعيان التي كانت حصته من الغنيمة بالف درهم ليس غير اجاب بانه لا يعرف عدداً فوق العشر مئة .

حتى اذا غزا العرب العراق وتوغلوا في فارس جابهوا مقاومة متزايدة . ولم تنته هذه الفتوح الا بعد عشر سنين حرباً اذ كانت بلاد الفرس آهلة بالسكان ، وكانت ذات مدنية وذات قوة حربية متينة قاومت الرومان طوال اربعة قرون . وتغلب العرب اخيراً على امرها وهكذا وجد العرب انفسهم على حدود الهند سنة ٦٤٣.

وفيما كان هذا النصر يتقرر في الشرق كانت موجة الاسلام تمتد نحو الغرب . وتفصيل ذلك ان العرب في عهد عمر نفسه عبروا الى مصر بقيادة قائدهم الشهير ، لموقعها الحربي الخطير ، ولقربها من سوريه والحجاز ، ولكونها ممراً لافريقية الشمالية ، ولجودة تربتها التي جعلت منها اهراء القسطنطينية . ولان فتح الاسكندرية

كانت قاعدة للاسطول البيزنطي حتى اذا كانت سنة ٦٣٩ نهض
عمرو بن العاص بها لفتحها ، وفي صحبه الزبير في سراياه خالد ،
فاصطحب اربعة الاف فارس ، واتخذ الطريق من فلسطين الى مصر
محاذيا الشاطئ ، وهي الطريق التي سلكها من قبل ابراهيم وقمبيز
والاسكندر وانطيوخوس والعائلة المقدسة وفي هذه [illegible] وحول
بها ، وهي الطريق العامة الرئيسة في العصور القديمة

وقد [illegible] عمرو [illegible] [illegible] فتحه و
اشتد [illegible] صيحة الله اكبر . وفي هذه الاثناء كان حصن
بابليون ، وهو في جزيرة الروضة قد سقط .

وتحصن عمرو بالامدادات اللاحقة به من الجزيرة فبلغ عشرين
الف مقاتل [illegible] وزحف عمرو بهم [illegible] الى الاسكندرية .
[illegible] واهم [illegible] بالاسوار المنيعة والابراج . فمن
جملة ابراجها برج السواري الذي حوى [illegible] هيكل الاله
سرابيس ومكتبة الاسكندرية العظمى . ومن [illegible] لاحت
كالمرآة [illegible] كانت في [illegible] هيكل [illegible]
[illegible] كليوبترة . [illegible] مصر
[illegible] . وامتدت في الغرب [illegible]
[illegible] اسوان الاحمر واسموهما مسلتي كليوبترة [illegible] والواقع ان
مشيدهما تحتمس الثالث حوالي ١٤٥٠ ق . م . [illegible] ترى
الواحدة منهما اليوم على شاطئ التيمس في لندن والاخرى احدى
الحدائق العامة في مدينة نيويورك . وفي جوف البحر تحت شرف
المنارة [illegible] الذي كان يعكس شعاع الشمس في النهار وشع

داره في المدن – وكان من عجائب الدنيا السبع

وكانت الاسكندرية [illegible] مع [illegible] لها [illegible] الاسطول البيزنطي وعدته في مينائها . أما العرب فكانوا دون البيزنطيين عدة وعددا ، ولا مراكب لهم ، ولا مجانيق ، ولا معين يؤمن حاجتهم الى الطعام .

ولكن بعد سنة دخل على عمر في [illegible] الشرقي ومؤذنه [illegible] غير اني اصبت فيها اربعة آلاف منية واربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية و [illegible] للملوك [illegible] عمر رسول [illegible] والتمر [illegible] صلاة شكر [illegible] في مسجد النبي .

ثم ان الموقع الذي نصب عليه عمرو خيمته في [illegible] أصبح العاصمة الجديدة التي [illegible] والتي لا تزال قائمة ، [illegible] مصر العتيقة . وهنا شيد عمرو اول مسجد في مصر ، وهو مسجد سقط ورمم عدة مرات ولا يزال قائماً .

[illegible] قصة احراق مكتبة الاسكندرية التي [illegible] الناس عن عمرو [illegible] الخليفة [illegible] الاسكندرية [illegible] شهور [illegible] مكتبتها . والواقع ان مكتبة البطالسة احرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق . م . وان مكتبة اخرى [illegible]

(١) جمع اتون : وهو موقد نار الحمام .

والمكتبة الصغرى ، ذهبت سنة ٣٨٩ م ضحية اثر امر اصدره الامبراطور الروماني تيودوسيوس . واذن لم يكن هناك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربي ولم يرو هذه القصة احد من مؤرخي في ذلك الزمن . واول من رواها هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ ١٢٣١ م ولا نعرف المصدر الذي استند اليه الى اختلاقه . غير ان بعض المؤرخين اللاحقين اقتبسوها عنه وزادوا فيها حتى ان اكثر الكتب في ذلك الزمن كانت من الورق الذي لا يحترق

[illegible] هذه الواقعة في [illegible] لا [illegible] في [illegible] في [illegible]



شبه جزيرة العرب
أراضي مزروعة أو صالحة للزراعة
البحر الأبيض المتوسط
النفود
الربع الخالي
الأحقاف
خليج عدن

الخلافة

من الظواهر التي [illegible] في [illegible]
[illegible] على [illegible] ذي [illegible] عريقة [illegible]
[illegible] هذه الحضارة و[illegible] في [illegible]
الى [illegible] ونحن نجد هذه الظاهرة [illegible] في [illegible] العرب
الخارجين من الجزيرة .

[illegible] العرب [illegible] ومصر [illegible] هذه
مراكز الحضارة في العالم [illegible] عن [illegible]
من [illegible] و[illegible] والآداب وفن
الحكم [illegible] وكان [illegible]
شديدة . وكان [illegible] الاستيلاء [illegible] الكاملة
[illegible] ان [illegible] من [illegible]
[illegible] استطاعوا [illegible] العسكري والثقافي [illegible]

فيه وتكسعه [illegible] الأثر عقيب . ففي المدائن ودمشق وبيت المقدس
والاسكندرية شهدوا عمل [illegible] [illegible] ونتائجه [illegible]
و[illegible] على سواه

ولم يكن واحد [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] او [illegible]
[illegible] [illegible] العوامل [illegible] [illegible] مسحة [illegible]
الأجناس الخاصة في هذه [illegible] [illegible] عن [illegible] بعض [illegible]
[illegible] . وكان الشاميون والفرس والمصريون وغيرهم من [illegible]
و[illegible] في [illegible] عصور الخلافة في [illegible] [illegible] من رفع [illegible]
[illegible] [illegible] وكان [illegible] في [illegible] [illegible] من [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] هؤلاء عقلية وروحية [illegible]
و[illegible] [illegible] الاسلامية في [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] الخلافة [illegible] على [illegible] [illegible]
[illegible] العربي ولغة [illegible] آخر [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] والآشوريون
والفينيقيون والآراميون والعبرانيون .

و[illegible] [illegible] الرجال الذين [illegible] [illegible] [illegible] في
الاسلام حتى نحاول [illegible] [illegible] أبي بكر الذي تولى أمور المسلمين
من سنة ٦٣٢ الى ٦٣٤ وخلافة عمر الذي تولى خلافتهم من ٦٣٤
-٦٤٤ . عاش أبو بكر ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الاسلام ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] . وفي [illegible] الأشهر
الأولى من خلافته القصيرة كان [illegible] كل يوم من [illegible] [illegible]
[illegible] وزوجته [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ولم يكن

يتقاضى راتباً لأنه لم يكن للدولة إذ ذاك دخل يستحق الذكر
وكان يدير جميع شؤون الدولة في صحن المسجد النبوي

[illegible] عمر، خليفة ثاني، وكان رجلاً [illegible] النشاط ومثلاً لا
[illegible] للنزاهة والاقتصاد ومن صفاته أنه كان طويلاً ضخم شديد
الأدمة. وقد [illegible] في [illegible] عهد خلافته [illegible]. وكانت
[illegible] شأن [illegible] أي [illegible] على الأمة [illegible]
الانتصار. [illegible] الولايات الإسلامية [illegible] أرفع اسم في دواوين
الإسلام بعد النبي. وقد كان عمر [illegible] المسلمين بقوله وبعمله
[illegible]
[illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] شؤون [illegible] المسجد النبوي [illegible]
[illegible] الإسلام [illegible]
[illegible] والآداب [illegible]
[illegible] يروى أنه [illegible] على الشرب وأخلاقه [illegible].
ويروى [illegible] عمر [illegible] أمير المؤمنين [illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] لا يدعون أمير المؤمنين وهو [illegible] [2]
حتى [illegible] في أمر [illegible]
[illegible]

---

1 [illegible] على [illegible]
2 [illegible]

بمعرفته [illegible] وفي الأمس [illegible] فعل ولا وإنه [illegible] يعرف
خشيته حتى ذهب ماله فصلي وركعتين وقال [illegible] حتى غسله [illegible]
اختلف [illegible] وجمع فرفعت أمه، وكتب لا يهدك الله،
وكتب لا [illegible] الله، ثم خاف على [illegible] نفسه [illegible] رجل
يستعدك فتضربه. هذا قول [illegible] عند ابن الأثير.

وقتل عمر في أوج حياته وهو يصلي في الجامع بطعنة خنجر
مسموم سددها له أبو لؤلؤة، وهو غلام فارسي. وخلفه عثمان
٦٤٤ – ٦٥٦، فحدثت في ولايته فتوح أبواب وأذربيجان وبعض
أرمينية. وكان عثمان شيخاً وقوراً حسب الأرومة، إلا أنه عجز عن
الحكم في أطماع ذوي قرباه. وصدق الناس ذلك، وخرجت على
الخليفة ثلاثة من جيوش الثوار. وكان لكل منهم [illegible]
خلافة وهم طلحة والزبير [illegible] وفي الكوفة أصحاب
[illegible] علي، ثم اشتد شعورهم في مصر [illegible] من أنصار [illegible]
جسيمة [illegible] الخليفة [illegible] عثمان. [illegible]
وهو [illegible] عند [illegible] على المصحف [illegible]
[illegible] محمد بن أبي بكر [illegible] عثمان [illegible] في [illegible]
ومن ثم [illegible] أحدهم [illegible] ذلك
في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦.

ولما قتل عثمان [illegible] الإسلامية كان يومئذ
وعلي هو ابن عم الرسول وزوج ابنته [illegible] ووالد الحسن

(١) [illegible] من [illegible]: [illegible] منه.

واحسان ، وهو ثاني من آمن بمحمد او ثالثه ، وتحلى بصفات العفو والتقوى والبسالة .

وان مشكلة حدثت عندما كان الخليفة [illegible] طلحة والزبير — وهما حزب المكيين وجماعة من الصحابة في الحجاز والعراق الذين لم يعترفوا ببيعته — والتجأت عائشة ام المؤمنين وزوج النبي الى المعارضة [illegible] كان من علي [illegible] لقمع الفتنة فتغلب على [illegible] في ٩ كانون الاول سنة ٦٥٦ وعرفت هذه بمعركة الجمل نسبة الى جمل عائشة التي التف الثوار حولها كانت تمتطي جملا . وفي هذه الوقعة [illegible] طلحة والزبير ، ووقعت عائشة اسيرة في يده .

[illegible] لم يستتب الامر لعلي في [illegible] معاوية بن ابي سفيان امير الشام [illegible] دمشق [illegible] هذه الخصومة على [illegible] فانتقل [illegible] الى [illegible] من قريش ، والى [illegible] الكوفة ودمشق [illegible] بين العراق والشام ، [illegible] في [illegible] الاسلامية .

[illegible] علي على اهل العراق وهم [illegible] ومعاوية على اهل الشام فجرت مناوشات [illegible] ذي [illegible] شديدة في [illegible] اشتد القتال وكاد [illegible] علي ينتصرون فعمد [illegible] علامة [illegible] حكم الله لا حكم [illegible] فوقف [illegible] وجرى التحكيم [illegible] ابو موسى الاشعري عن علي وعمرو بن العاص عن

معاوية ، ورافق كلا منهما اربعمئة شاهد في مؤتمر أذرح في جنوبي
فلسطين على طريق الحج والقوافل . على ان حقيقة ما دار في هذا
المؤتمر التاريخي يصعب استجلاؤها . وفي المصادر المختلفة روايات
شتى . والرواية المعتمدة تقول باتفاق الحكمين على خلع الرجلين
وجعل الامر شورى بين المسلمين يختاروا لأنفسهم من شاؤوا .
فتقدم ابو موسى فخلع عليا ومعاوية معا ، ثم عمرو فخلع عليا
وثبت معاوية بعد ان خلع عليا . غير ان النقد الحديث يقول ان
كلاً من الحكمين خلع صاحبه وبذا خسر علي مقامه بصفته
الخليفة المعترف به ، ولم يخسر معاوية شيئا .

ثم ان فريقا من اتباع علي ذهبوا الى انه ارتكب خطأ فادحا
في قبوله مبدأ التحكيم ، وخرجوا عليه فسموا الخوارج ، فاصبحوا
اشد اعدائه نقمة عليه . وكان عددهم نحو اربعة آلاف ، فتغلب عليهم علي
في معركة النهروان عام ٦٥٩ م ، ولكنهم ظلوا شوكة في جنبه . ولا
يزال الى يومنا هذا بقية من الخوارج يسمون بالأباضية في شمالي
افريقيا وعمان .

وكان احد هؤلاء الخوارج هو الذي قتل عليا في ٢٤ كانون
الثاني سنة ٦٦١ وهو خارج من داره في الكوفة لصلاته . وبذلك
اصبح للخليفة الرابع عند الشيعة مقام ، فهو ولي الله ، وهو
مقام رفيع لا يسمو عليه الا مقام نبي الله ورسوله .

وهنا يجب ان نحترس من خطأ وقع فيه الكثيرون وهو ان
الخلافة وظيفة دينية ، والواقع ان منصب الخليفة لا يماثل صورة
البابوية المقدسة ورئاسة الكنيسة الكاثوليكية ، فهذا سواه

السنين فخضعت في الدرجة الاولى [illegible] عليه تقاليد [illegible]
الإسلام . [illegible] حرفي . وهو في الوقت
نفسه [illegible] حق التقدم في الصلاة والقاء الخطبة . ولكن هذا
الحق [illegible] والخلافة اذ اقتصرت
على الناحية [illegible]
روحية [illegible] وانتهت زعامته الدينية بموته ،
ولم يكن لأحد ان يخلفه فيها [illegible] خليفة
[illegible]
[illegible] اوروبا السلطنة [illegible]
[illegible] الإسلام [illegible]
[illegible] كله استخدم الخليفة سلاحه الدعوي

اما فكرة [illegible] خليفة [illegible]
ومن [illegible] في [illegible] حتى
اواخر القرن الماضي [illegible] هذه الفكرة الجامعة
عند [illegible] في [illegible] الدول الاوروبية التي سيطرت
يومئذ على معظم البلاد الإسلامية في آسيا وافريقيا ثم
[illegible] في اواخر القرن الماضي ظهرت حركة [illegible] الجامعة
الإسلامية [illegible] وجهة [illegible] في مجرى
واحد [illegible] الأنظار نحو تركيا [illegible]
مركز الخلافة [illegible] الحركة [illegible] الخلافة
العثمانية الشاملة .

وبقي [illegible] الأمر [illegible] وكانت [illegible] في أمية.

وفي خلافته اتخذت سلالة امويه نهجاً جديداً ، فاصبحت الخلافة
ملكية تتكرر على عهد وراثي لا على عهد شبه انتخابي كما
كانت من قبل . ولقد عرفت ثلاث خلافات سلالية عظيمة في
المدة التي يسوقها هذا الكتاب ، هي الاموية وقد ابتدأت سنة
٦٦١ بخلافة معاوية في دمشق ، والعباسية في بغداد من سنة
٧٥٠ الى ١٢٥٨ ، والفاطمية وهي شيعية في اكثر هذه المدة
القاهرة من سنة ٩٠٩ الى ١١٧١ ، وهي السلالة الوحيدة الهامة
التي ادعت انها تتحدر من علي ، وكانت هنالك سلالة اخرى ازدهرت
في الاندلس وهي فرع من الخلافة الاموية وحكمت قرطبة
ودامت من سنة ٩٢٩ الى ١٠٣١ . وليس من شك في ان ما يسند
للسلسلة الوراثية هذه قد ساعد في حدوث ... كبير
ابث فيها مخالفة قوية في تاريخ الاسلام ... خروج
الخارجة . كما ان الخليفة ... لم يكن
يمارس سلطته حتى في عاصمته .

وفي مدة حكم معاوية وقعت حركة اخرى كان لها شأن كبير في
الاحداث التي تلت ، اذ بايع اهل العراق الحسن بن علي الخليفة
الشرعي ... هذا ... ان الحسن كان اكبر ابناء
علي وفاطمة ابنة النبي الوحيدة ... ولكن الحسن
الذي كان يميل الى الترف وبعيداً عن الحكم والادارة لم يكن
رجل الموقف . فتنازل عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه اياها
معاوية . وتوفي الحسن في الخامسة والاربعين والراجح انه مات
مسموماً . فاشيعه ... مقتله الى معاوية ، وجعل الحسن

شهيداً لابن سيد الشهداء أجمعين

وكان أخوه الحسن الذي آثر العزلة أحبّ نزول مدينة جده خلافة معاوية. حتى إذا دعي إلى البيعة ليزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ أبى إباءً شديداً. واتصل به أهل الكوفة الذين كانوا يدعونه من عهد علي والحسن، وبايعوا الرسول إليه حتى حملوه على الخروج، فخرج متوجهاً إلى الكوفة ومعه جماعة من أسرته ومن والاه. وزحف عامل الأمويين على العراق بجيش مؤلف من أربعة آلاف مقاتل بعث عليهم عمر بن سعد، فوافى الحسين في كربلاء، وذلك في العاشر من محرّم سنة ٦١ هـ، ١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠، وكان الحسين قد برز مع جماعته وتقدمهم، وأبى الحسين نفسه حتى الاستسلام فأحاط به رجال الأمويين من كل جهة وضيقوا عليه حتى قتل أصحابه، ثم قتل بعد أن صرع فسقط شهيداً، واحتزّ رأسه فحمل مع أهله إلى يزيد بدمشق، ثم ردّ الرأس إلى أخت الحسين وأمه فدفن مع الجسد في كربلاء. ويعيد الشيعيون ذكرى الحسين، فيقيمون له كل سنة في العاشوراء، عاشر محرّم، أي موعد مقتله، المآتم ومظاهر الحزن والحداد، مراعين في ذلك مقدمة من الرسوم وجروحه وآلامه وصبره.

وكان معاوية ذا مقدرة عظيمة في الإدارة، فحقق من الوحدة السياسية مجتمعاً إسلامياً متضامناً، وطهّر أول جيش منظم عرفه الإسلام، وأسس أول ديوان للسجل في الدولة الإسلامية، وسعى لإنشاء مصلحة للبريد ربط فيها جميع أجزاء الدولة بعضها ببعض.

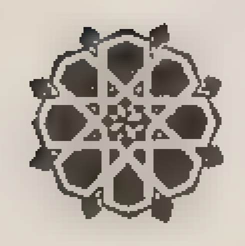
وفي حكمه سياسة فرجل معاوية حسنة من الحلم،

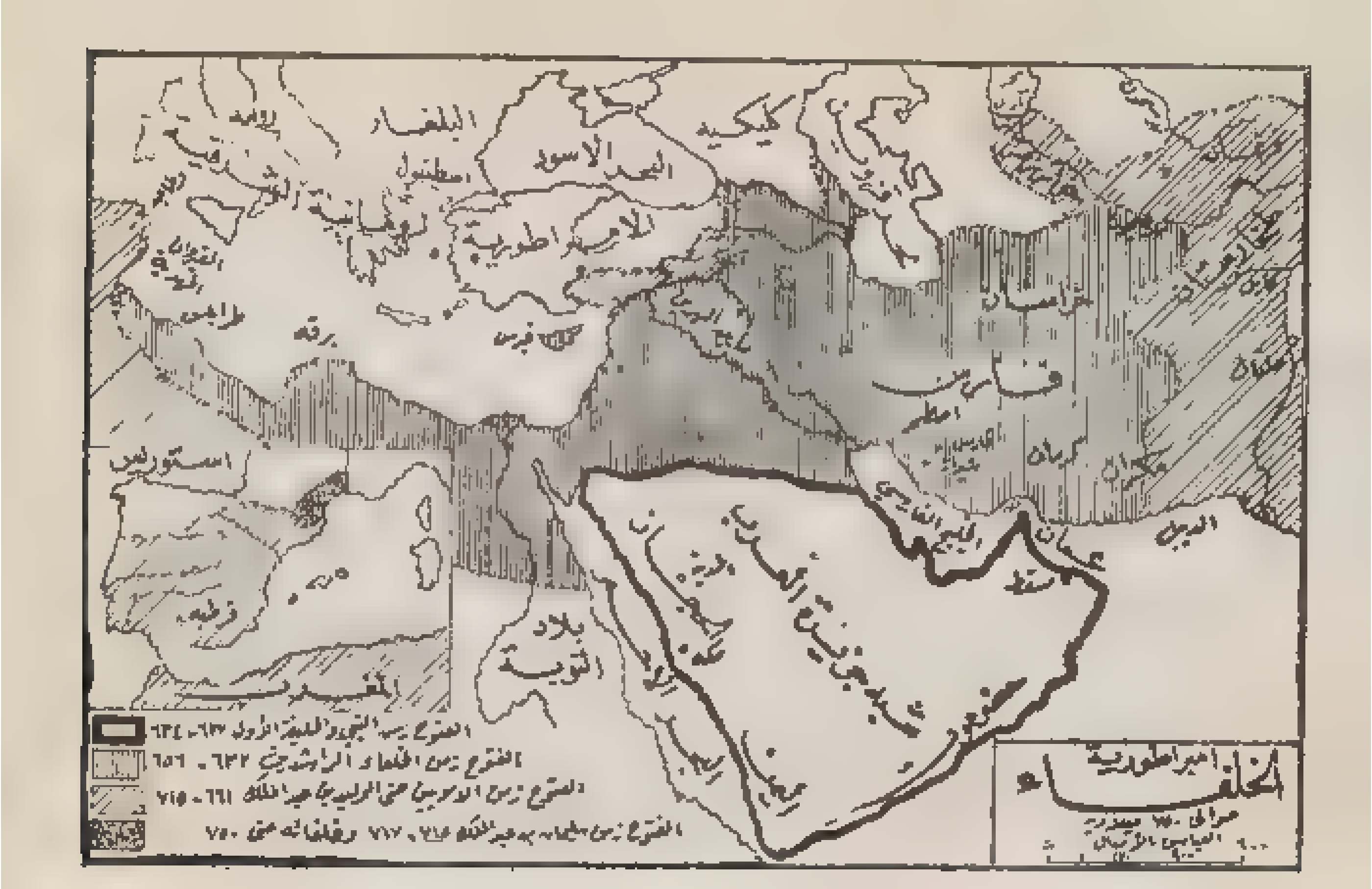
وذهب مؤرخو سيرته من العرب الى ان حلمه كان احدى صفاته، فلم يكن يستعمل الشدة إلا متى رأى استعمالها محتماً، اما في غير ذلك فكان يحاول استرضاء مقاوميه والتودد الى الناس. وكان اذا اشتد الموقف تجرّد عدوه من عدائه، وأبطل مقاومته بلطفه ولينه. وكان حبيباً للعقل [illegible] [illegible] [illegible]. ومن اقواله الدالة على حنكته: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت [illegible] مدوها خليتها واذا خلوها مددتها».

وهناك كتاباً قيل انه بعث به [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] خلافته [illegible] [illegible] [illegible] الامر [illegible] [illegible] [illegible] ولو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] هذه الامة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وفي ذلك الكتاب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] فكان [illegible] [illegible] [illegible].

وقد قام معاوية بالغزو البحري، وكذلك بعض الخلفاء الذين تبعوه، وحاول مرتين اخضاع القسطنطينية فخاب. وفي خلال امارته على الشام في ايام عثمان تعرض اسطول الاسلام لقوة بيزنطة البحرية، وانتصر عليها في اول معركة بحرية عظيمة في تاريخ الاسلام (ذات الصواري) وهي معركة دموية وقعت قرب شاطئ [illegible] في آسيا الصغرى. اما القسطنطينية فلم تسقط، وبقيت في يد البيزنطيين حتى ايام الاتراك. وعجز العرب عن ان يثبتوا اقدامهم

في قلب الصحراء او ان يعبروا مضيق مرة ثانيــة . لذلك وجهوا
جهودهم الى التوسع شرقاً وغرباً حيث كانت المقاومة عـلى اقلها
وهكذا استأنف الاسلام في زحفه وامتداده ومسيره الى الامام
والى العلاء .





البلغار
البحر الأسود
الإمبراطورية
برقة
قبرص
طرابلس
استوريس
قرطبة
المغرب
بلاد النوبة
شبه جزيرة العرب
المدينة
مكة
حضرموت
مسقط
عمان
الخليج الفارسي
فارس
كرمان
خراسان
إمبراطورية الخلفاء
الفتوح زمن النبي والخليفة الأول ٦٣٢ - ٦٣٤
الفتوح زمن الخلفاء الراشدين ٦٣٢ - ٦٥٦
الفتوح زمن الأمويين حتى الوليد بن عبد الملك ٦٦١ - ٧١٥

فتح الأندلس

انتهى الدور الأول من الفتوحات الإسلامية باستيلاء المسلمين على سورية والعراق وفارس ومصر ، وتلاه اضطرابات داخلية لم يطل أمرها .

وبدأ الدور الثاني من الفتوحات بحملة شديدة الخطب شرقاً ، فعبرت نهر جيحون ، الحد الفاصل في عرف الفقهاء بين ايران وطوران ، أي بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية . وتابعت تقدمها الى بلاد المعون الخارجية . وسقطت في أيدي المسلمين بخارى وشاش وسمرقند وهي المدن التي كان لها شأن كبير في تاريخ الاسلام اللاحق . وتوطدت سلطة الاسلام في آسيا المتوسطة الى درجة اضطرت الصينيين ان يخلدوا الى السكينة . ومن هذه الجهة توجهت فرقة الى الجنوب واجتازت البلاد المعروفة اليوم

بلوجستان . وفي عام ٧١٢ استولوا على السند وشمل وادي الاندس
وارض الملتان منه ، سندو ، واتسع مدى الفتوحات الى ممالك في
جنوب السحاب وهي مرار بوادي شهير واعتبرت المقاطعات
الهندية على الحدود الاسلامية ، ولا تزال عليه حتى اليوم وبذلك
احتك الاسلام بثقافة جديدة هي الثقافة الهندية .

واصطدمت الموجة العربية في الجبهة الشمالية الوسطى مرة اخرى
بالقسطنطينية . فجرى الحصار المشهور الذي دام من آب ٧١٦ الى
ايلول ٧١٧ والذي حالت فيه سلسلة حديدية منيعة دون مرور
الاسطول العربي الى القرن الذهبي

على ان أروع الحملات الاسلامية وأوسعها مدى هي التي اتجهت
غرباً . وكان العرب قد اخترقوا افريقيــة الشمالية الى قرطاجنة
القديمة . وقد قاد هذه الحملة موسى بن نصير وهو من موالي الشام ، وقد
كان من ابرز قواد الاسلام وتوغل المسلمون في بلاد البربر ، والبربر
يمتون الى الفرع الحامي من الجنس الابيض . والراجح انهم والساميون
من اصل واحد . وكان معظم هؤلاء البربر الذين قطنوا السواحل
قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامي . وفي هذه الربوع نشأ
القديسون ترتليانوس وقبريانوس واوغسطينوس وغيرهم من آباء
الكنيسة الأولى . اما في داخل البلاد فلم تؤثر الحضارة الرومانية
او البيزنطية في الشعوب الاصلية تأثيراً محسوساً لانها كانت اجنبية
وغريبة عن عقلية اهالي افريقيا الشمالية من البدو وشبه البدو .

والظاهر ان الاسلام كان له تأثير خاص في الشعوب التي في
مستوى البربر الثقافي . فما اسرع ما استطاع العرب الساميون

وثيق عرى الإخاء بين شعوبها الخمس . وكان الإسلام في
أواسط آسيا عرّب الأقوام لغة وديناً كذلك فعل الآن في الأقوام
الزنجية . وهكذا اغتنى دم المسلمين فأصبح بامتزاجه بدماء جديدة
ونشر للغة العربية مجال واسع للانتشار . ووحدت عقيدة الإسلام
واتحدت بتدرج في معارج الرقي نحو السلطة العالمية الشاملة

وليس في تاريخ القرون الوسطى الحربي ما يشبه الحملة العربية
على بلاد الإسبان من حيث الجرأة وسرعة الانتصار واستحكام النظام .
ولقد بدأت هذه الحملة في شهر تموز من عام ٧١١ بنزول فرقة
الاستطلاع إلى مدينة طريف . والمؤلفة من أربعمائة من المشاة
ومائة من الفرسان - كلهم بربر من جنود موسى عامل بني أمية في
أفريقية .. إلى شبه جزيرة صغيرة سميت طريفة باسم قائد الفرقة .
وهي أقصى نقطة جنوبية من القارة الأوربية

واستطاع موسى الذي كان قد تولى الإمارة على أفريقية منذ
سنة ٦٩٩ أن يجلي البيزنطيين عن الأراضي الواقعة غربي قرطاجنة .
ثم توجه بفتوحاته إلى الأوقيانوس الأطلنطي توطئة لشن الغارة على
أوربا . وشجعه على ذلك ما كان من نجاح الغزوة الأولى وما عرفه
من التفسخ والاضطراب السائدين بين أعضاء الأسرة القوطية
الغربية الحاكمة . والحق أن أكبر دافع له كان الغنيمة لا الفتح
فوجه في عام ٧١١ إلى الأندلس مولى له بربرياً كان قد أعتقه
يدعى طارق بن زياد على رأس سبعة آلاف رجل أكثرهم من البربر .
فنزل بهم طارق الجبل الذي خلّد اسمه فعُرف منذ ذاك الحين بجبل
طارق . وجاز القناة الضيق إلى الأندلس ، وعرضه ثلاثة عشر

مثلاً ، في مراكب قدمها لهم [illegible] على ما جاء في الروايات .

وبحسب أوثق الأخبار التقى في ١٠ تموز عام ٧١١ على رأس اثني عشر ألف رجل بجيش لذريق عند مصب وادي [illegible] (سلادو) . وكان لذريق قد جمع سبعين [illegible] من [illegible] ، وتشتت الجيش ودارت الدائرة على القوط ، وكان عددهم نحو من خمسة وعشرين ألفاً ، فانكسروا انكساراً تاماً وتشتتوا . أما ما حدث للذريق فلا يزال سراً غامضاً ، ويكتفي مؤرخو الإسبان والعرب بالقول إنه اختفى .

بعد هذا النصر الحاسم [illegible] على المسلمين في إسبانيا ، فلم يلقوا مقاومة شديدة إلا في المدن التي كان يحميها فرسان القوط . واتجه طارق بسواد جيشه إلى عاصمة الإسبان طليطلة عن طريق استجة وجيان . وقد ساعده على ذلك جماعة من أهلها من اليهود . وأخذ طارق بعض الحصون في المدن المجاورة لكنه أعرض [illegible] عن إشبيلية في الجنوب [illegible] واحتلت فرقة من الجيش [illegible] دون أي مقاومة . واحتلت فرقة ثانية [illegible] وهي غرناطة اليوم . وزحفت فرقة ثالثة من الفرسان قرطبة فحاصرتها مدة شهرين . ويقال إن الذي مهد لفتح هذه المدينة التي صارت فيما بعد عاصمة المسلمين راعٍ دلهم على ثغرة في سورها . أما أشد معارك هذه الحملة فوقعت عند استجة ، وكان الظفر فيها للمسلمين . وهكذا أصبح طارق الذي فتح الأندلس في ربيع عام ٧١١ على رأس غزوة بسيطة [illegible] في آخر صيف



الصيف من هذه السنة ، وباتت في حيز تمكنه بسرعة .

وحسد موسى مولاه طارق بن زياد على ما ناله من ظفر عظيم ، ولكن موقفه . فعبر في حزيران من سنة ٧١٢ الى الاندلس على رأس عشرة آلاف من العرب والسوريين العرب متوجهاً الى المدن وافتتح التي لم يفتحها طارق كمدينة شذونة وقرمونة . ثم اشبيلية اكبر مدن الاندلس وهي دار ملكهم ، وقد كانت عاصمة الرومان قبل عهد القوط على " الا انها فتحت بعد محاصرة حتى آخر حزيران من عام ٧١٣ . وكانت اشد مقاومة لقيها موسى في حملاته عند مدينة ماردة . فقد قاومته مدة ، ثم افتتحها بعد شدة في اول حزيران من عام ٧١٣ .

وكان اجتماع موسى بطارق في طليطلة او قرب منها ، ويروى ان موسى غضب على طارق وحبسه … وقيده بالسلاسل لخروجه على اوامره … تقدمه السريع في اوائل حملته ، على ان الصلح لم يقف عند هذا الحد فسار موسى … الى … في الشمال فسقطت … وعبرت جنوده مرتفعات … وجليقية . وفي خريف هذه السنة استدعى الخليفة الوليد موسى عامله في افريقية ووجه اليه التهمة التي كان موسى يتهم بها طارق — وهي تهمة الاستقلال بالامر دون مراجعة السلطة العليا .

وغادر موسى الاندلس مستخلفاً عليها ابنه عبد العزيز . وسار متمهلاً حتى قدم دمشق يصحبه طارق وطائفة من الجيش واربعمائة امير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى … ذهبية ،

تضم عدداً كبيراً من العبيد والسبي ، ومحملين بمقادير عظيمة من
الكنوز والغنائم . وقد أفاض كثيراً مؤرخو العرب الإسبان في وصف
هذا الموكب الفخم الذي سار من إسبانيا عبر افريقية الشمالية من
الغرب الى الشرق حتى بلغ أخيراً العاصمة الشامية . وهو وصف
يذكرنا بمواكب النصر التي سارت على رأسها قواد الرومان القدماء .
وكان أخبار الموكب قد سبقه الى دمشق فتلقى موسى عند وصوله
طبرية في فلسطين أمراً من سليمان ولي عهد الخلافة يشعره فيه بوجوب
تأخير دخوله العاصمة لأنه أراد أن يجعل وصول هذا الموكب
ارتقاءه كرسي الخلافة فأخاه الوليد المريض يزداد سوءاً .

ودخل موسى دمشق في شباط عام ٧١٥ بصحبة الأمراء
القوطيين بملابسهم الرسمية وعليهم الحلي والجواهر والعبيد الى
الوليد وحشد بهم في احتفال مهيب في الجامع الفخم . وكان
ذلك هو المشهد في تاريخ الفتوحات الإسلامية إذ شهد المسلمون
لأول مرة ملوكاً من أعظم أسرة أوربية مالكة والوفاً من سبي
الأوربيين يقدمون الطاعة لأمير المؤمنين .

وكان في التحف الثمينة التي جلب موسى طاولة المائدة بصحبته
التي تنسب الخرافات صنعها للجن في خدمة الملك سليمان ، وزعم
أن الرومان نقلوا هذه التحفة الثمينة الفريدة من بيت المقدس الى
عاصمتهم ، ثم أخذها القوط منهم فيما بعد ، فكان كل واحد من
ملوكهم ينافس سلفه في ترصيعها بالحجارة الكريمة . وقد حفظت
هذه المائدة في كاتدرائية طليطلة وعثر طارق عليها يوم هرب بها
أسقف المدينة حتى إذا التقى موسى بطارق في طليطلة طلبها

بساط واغتصب منه . ويحكى ان طارق كان قد أخفى احدى
قوائمها فلما كان هو وموسى في حضرة الخليفة أبرز هذه القائمة
ليدلل على انه هو الذي غنم المائدة فصدقه الوليد وعظم حنقه .
وحق موسى من حنق كثير غيره من قواد عرب الدارين .
فقد ذاق الخليفة سخطه ، وعاقبه بوقوفه يوماً كاملاً في حرارة
الشمس حتى وقع مغشياً عليه ، وصادر امواله وجرده من كل
سلطة . وآخر عهدنا بموسى انه حج الى بيت الله ، ومات معدماً في
قرية نائية بالحجاز وهو طاعن في السن .

أصبحت اسبانيا الآن ولاية من ولايات الخلافة ، واطلق عليها
العرب اسم الاندلس تحريفاً لاسم الولاية الغوطية التي كانت قد
احتلها الفندال من قبل الغوطيين الغربيين . ولم تلق موسى
خلفاءه الا مقاطعات صغيرة في الشمال والشرق تتعصب ، وبعض
الثورات تضطرب . وتم فتح هذه البلاد كلها وضمها الى ملك العرب في
خلال سبع سنين . وهي من اكبر اقطار اوربا في العصور الوسطى
واجملها . وقد قدّر لهؤلاء العرب ان يحكموها قروناً

اما سبب هذا الفتح الذي قد لا يكون له مثيل في التاريخ
فيمكن استخلاصه من هذه الحوادث التي سردناها بعد ، ومنها
ان العرق القومي بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانيا في
اوائل القرن الخامس ، وهم من برابرة الغوطيين ، وبين اهل
البلاد الاسبان الرومانيين كان لا يزال ظاهراً . وقد حكم هؤلاء
القوط زمناً طويلاً قبل ان استولوا على البلاد من الاقوام الجرمانية
التي سبقتهم كالسويفي والفندال . وحكم ملوك القوط البلاد حكماً

مستقلاً عنها، وظلوا محافظين على المذهب الآري في الكنيسة حتى
عام ٥٨٧ حين قبل [illegible] الكثلكة مذهب أهل البلاد
الذين كانوا [illegible] ويحملون مذهبهم [illegible]
اليهود والأقليات [illegible] كبير من السكان [illegible]
من [illegible] ولا عجب [illegible] هؤلاء المسلمين الفاتحين ويبدوا
لهم [illegible] وكثرت ثورات اليهود على حكم القوط [illegible] من
[illegible] على [illegible]
وكان أحدهم [illegible] في عام ٦١٢ أمر [illegible] على اليهود [illegible]
يجاهروا [illegible] ومصادرة الأموال.
[illegible] في [illegible] في
[illegible] في [illegible]

ولا [illegible] خلاف سياسي [illegible] كان [illegible]
بين الأسرة المالكة وبين طبقة [illegible] من القوط أنفسهم،
والنزاع [illegible] في البلاد [illegible] أركان الدولة. ففي أواخر القرن
السادس [illegible] هؤلاء [illegible] أن يكونوا [illegible] في
مقاطعاتهم. ووافق الفتح الإسلامي [illegible] أحدهم [illegible]
من [illegible] حلا [illegible]
الملك [illegible] العرب [illegible] أنهم آتون
[illegible] لاسترجاع
[illegible] في [illegible] من مظاهر
الأبهة. [illegible]
أما الدور الذي [illegible] قبل إنه [illegible]

الجيش العربي بمراكب التي اخذ روابه التحقيق فيه ولع به كثيراً .

واراد سقوط سرقسطة احد الحواضر الاخيرة من اسبانيا وفرنسا ، ولكن في امة العرب حجر ممنع هو جبال البرانس على ان موسى لم يقطع هذه الجبال على ارجح من ان بعض مؤرخي العرب ينسب له هذا العمل بغير انه اختار بلاد غالة ليعود الى الشرق عن طريق قسطنطينية الى دار الخـــلافة في دمشق . ولا يستغرب ان يكون شيء من هذه الاخبار قد جرى في مخيلات هؤلاء المؤرخين لان معرفتهم بجغرافية اوربا كانت قاصرة . والواقع ان اول من قطع سلسلة جبال البرانس هو ثالث خلفاء موسى على الاندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي . وذلك في عام ٧١٧ او ٧١٨.

وقد اغرى الحرّ ثروة المعابد وكنوز الأديرة والكنائس في فرنسا . وشجعه عليه الاضطرابات الداخلية بين قواد البلاط الميروفنجي ودوقات اكوتين . فجرد حملات دفعها من بعده خليفته السمح بن مالك الخولاني . وفي عام ٧٢٠ استولى السمح على سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط المنقرضة . ثم احتل اربونة التي جعلها العرب مدينة حصينة تشرف على دار الصناعة للمعدات الحربية ومستودع للاسلحة والمؤونة . ولكن محاولته في السنة التالية سبيل اكتساح تولوز كرسي دوق اكوتين باءت بالفشل . لان المسلمين من خلافه عوده الداهم . وقد استشهد السمح وبهذا الفشل تم اول انتصـــار لأمير جرماني على جيش عربي . وجاءت غارات العرب اللاحقة فيما وراء جبال البرانس غير موفقة .

وقد عبأ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي جيش المسلمين في اسبانيا
آخر حملة واشدها خطورة . فتقدم وعبر سلسلة جبال البرانس
الغربية في صيف عام ٧٣٢ فقهر دوق اكويتين على ضفتي نهر
غارون ، ثم هاجم بوردو بعد مقاومة شديدة واحرق المدن في كنائسها ،
وبعد ان أحرق الباسيليكا القائمة خارج أسوار بواتييه زحف شمالاً
حتى حوالي مدينة تور . وقد كانت تور شبه عاصمة دينية لممالك
بلاد الغال تحتوي مرقد القديس مارتينوس الذي تنسب اليه
التقاليد تنصير الغاليين . ولا ريب ان الذي جذب غزاة العرب
حواليها ما زارها من مقدسات المدينة الشهيرة
وهب الى تور ووافته لصد عبد الرحمن شارل عاهل البلاط
الميروفنجي الذي لقب فيما بعد بمارتل اي المطرقة والذي استنجد
به دوق اكويتين . وكان شارل رجلاً شجاعاً حارب خصوماً اعداء
كثيرين واخضع دوق اكويتين الذي كانت له نزعة للاستقلال بدوقية
مقاطعته وفي تلك المدة الاخيرة للمملكة الميروفنجية . ومع ان
شارل وهو ابن غير شرعي لملك افرنسي لم يكن ملكاً فانه
تصرف تصرف الملوك .

وقف الجيشان — الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن والجيش
الفرنجي تحت امرة شارل ، واكثر افراده (اي جيش الفرنجة)
من المشاة اللابسين جلود الذئاب وقد تدلت ذوائبهم المتلبدة على
اكتافهم . احدهما في وجه الآخر مدة سبعة ايام يرقبون فيها التحام
المعركة . وطال أمد المناوشات حتى كان يوم سبت من تشرين
الاول عام ٧٣٢ . فبدأ القائد العربي الهجوم . أما جند الفرنجة

— حسب وصف مؤرخ عربي — فقد لقوا من الفرنج في وطيس المعركة شكلاً مهيباً يبعث الخوف ووقفوا متراصين كتفاً الى كتف ، وجمدوا أمام ضربات العدو كأنهم من جليد لا تزعزعه العواصف . وتوالت هجمات العرب الخفيفة العدة على هذا الجمع المتراص فلم تنل منه شيئاً وصمد عدوهم في مراكزهم يجدلون كل مهاجم دنا منهم . وقد كان ممن سقط في هذه المعركة عبد الرحمن نفسه . وانسدل الظلام حتى على الجمعين ستر أحدهما عن الآخر . ولما طلع فجر اليوم التالي حتى حين شعروا ان السكينة المخيمة على معسكر العدو انما هي خدعة . فبعث الفرنسيس يستطلعون حقيقة الامر فتبين لهم ان العرب انسحبوا تحت جنح الظلام بعد أن أخلوا معسكرهم وتركوا معظم متاعهم .

وقد روت الاساطير العربية يوم بلاط الشهداء ، واسرفت في المبالغة بأهمية نتائجه ، وعدّه المستعربون آخر حلقة في سلسلة الفتوحات التي اشتدت منذ قرن في البلاد الغربية . ويقول المؤرخ الانكليزي « غيبون » (وتبعه بعض مؤرخينا) انه لو انتصر العرب في ذلك اليوم لكنت ترى المساجد لا الكنائس في باريس ولندن ، ولسمعت تفسير القرآن لا الكتاب المقدس في جامعة اكسفورد وغيرها من معاهد العلم في الغرب . وبعض المؤرخين المحدثين يعدّ معركة تور هذه احدى معارك التاريخ الفاصلة .

والواقع ان هذه المعركة لم تغير شيئاً . فموجة المزاحمة من العرب والبربر كانت قد استنفدت كثيراً من قوتها فوصلت الى حدّ طبيعي من التوقف اذ بعدت عن جبل طارق ، نقطة بدايتها ،

نحو انحاء مصر . وكانت قد دبت الخلافات الداخلية بين العنصرين
اللذين يتكون منهما جيش عبد الرحمن اعني العرب والبربر ،
ودبت طلائع الضعف في صفوفه . ولم يكن للعرب انفسهم
شعور بوحدتهم او هدف يجمعهم . والواقع انه وان كان خروج
العرب بعد هذه المرحلة فقد واصلوا غاراتهم في جهات اخرى .

ففي عام ٧٣٤ مثلا احتلوا افنيون ، وبعد عشر سنين
أغاروا على ليون ، ولم تنقطع روح النشاط العسكري من نفوسهم
حتى عام ٧٥٩ . ولا شك ان طرد العرب من ناربونة لم يكن سبب
توقف الحرب الرئيسي ، لكنه جزء من حد اقصى لتقدم الجيوش
الاسلامية من الظفر .

وامتدت الامبراطورية الاموية بعد وقعة ... التي شملت ما بين
حدود الصين الى غانة . واصبحت دمشق البلد الذي تقول الرواية
ان محمداً صلعم رفض دخولها لانه اراد ان يرى جنة مرة واحدة عاصمة
هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وفي وسط هذه المدينة قام
قصر الامويين مطلا على الشوارع الممتدة الى الجنوب
العربي حتى يحمل شيئا من الشكل المنبوح . وكانت قبته معروفة بمؤسس
السلالة الاموية ، وقد شهدت حكم الخليفة الاموي الذي يدعى الوليد
وحفيده ... لا تزال تجذب الناس عشاق الفن الجميل . وفي ردهة
الاستقبال كان مقعد العرش المربع تغطيه الوسائد المزركشة بحجرة
ويجلس عليه الخليفة في الحفلات الرسمية شبه القرفصاء متربعاً .
وكان يقف عن يمينه لفيف من اقربائه مصطفين حسب الاقدمية في
السن ، وعلى شماله ذوو الارحام منهم ، وخلفه حاشيته والشعراء

والملتمسون . أما المجالس ذات الحلقة الرائعة الممتازة فكانت تعقد في الجامع الاموي العظيم وهو لا يزال حتى يومنا هذا من القمم المعدودة في العالم وأعجب . ولعل الحلقة استقبلت موسى وطرقاً مع إسرائيل وكتبوهم في مجلس كهذا . ففي هذه الحلقة الاموية نبعث العروبة على قدم جديدة ، وسعى الاسلام الى آخر مرحلة من مراحل تقدمه وسيره .



بدء الحياة الثقافية والاجتماعية

نمضي الآن في بحث هذا الجانب من جوانب النهضة في التاريخ الاسلامي ، وننتقل من سرد أحداث الحروب والفتوح الى ما هو أكثر حضارة ، أعني بعد العسكري والتطور الثقافي في الامبراطورية الاسلامية نعني وما رافقها من نهضة أدبية في العلم والفلسفة والفن وهندسة البناء . في هذا الطور كانت فتوح العربي عن طريق العقل لا عن طريق السيف ، وذلك بالانصراف الى نقل الآداب والعلوم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية منقولة الى العربية .

ومن الحقائق الرائعة أن طبيعة الحياة اليوم في دمشق وعادات سكانها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه مذ كانت عاصمة الامويين . في ذلك العهد كان في دمشق وغيرها من المدن الكبرى أحياء خاصة

يحكمها العرب محافظين فيها على الانتساب القبلي ، واليوم لا تزال هذه الاحياء في دمشق وحمص وحلب مستقلة عن سواها .

وكان سكان الامبراطورية ينقسمون الى اربع طبقات اجتماعية ، وكانت الطبقة العليا تتألف من الفئة المسلمة الحاكمة ، وعلى رأسها أسرة الخليفة والارستقراطيون من العرب الفاتحين . ولا يُعرف بالتدقيق عـــدد هذه الطبقة ولكنه بلغ في حمص والشام عدداً يتراوح ما بين العشرين والخمسة والاربعين الفاً .

وكانت الطبقة الثانية تتألف من الموالي اي المحدثين في الاسلام ممن قبلوا رسالة محمد طوعاً أو كرهاً . وكان لهذه الطبقة حقوق في الجنسية الاسلامية بالاسم لا بالفعل وذلك لأن الأثرة (الشوفينية) العربية كانت قوية الى حد لم تستطع معه هذه الحقوق النظرية ان تتحقق في الواقع ، ولم يكن الاعتراف بها الا ظاهرياً . ولا شك في ان مالكي الاراضي أجبروا على دفع الخراج طوال معظم العهـــد الاموي سواء أكانوا من المؤمنين أم من غـــير المؤمنين . ومما لا ريب فيـــه ابداً أن أكبر العوامل التي سببت التناقص في دخل الدولة كان كثرة عدد الداخلين في الاسلام ، لان الجزية تسقط في الاسلام .

وادرك الموالي انهم كانوا في احط المراتب الاجتماعية في البيئة الاسلامية ، فاستنكروا هـــذا الوضع ولم يقنعوا به قط ، وهذا الوضع السيء الذي حملهم عـــلى تأييد حركات الشيعة في العراق والخوارج في فارس وغـــير ذلك من الحوادث التي أثارت نزاعاً مـــديداً في الاسلام وسفكت دماء غزيرة . الا ان بعضهم ترفعوا عن

تشبث بدين الجديد اكثر من اصحابه وتحمسوا له الى درجة من التعصب جعلتهم يضطهدون غير المسلمين وكان اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الاسلام من اشد المسلمين الأولين صلابة في عدم التسامح .

ولما كان معظم هؤلاء الموالي أبناء ثقافة عريقة في القدم فليس عجباً ان يكونوا اول من أقبل في النشأة الاسلامية على الدروس العلمية والفنون الجميلة . وما كادوا يظهرون على اخوانهم المسلمين العرب في مجال الثقافة حتى اخذوا يطمحون الى الزعامة السياسية . ولقد تزاوجوا بالعنصر العربي فاختلط بهم الدم العربي حتى ضاع بين خليط العناصر .

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من ابناء المذاهب التي تدين بالديانات المنزلة المعروفين باهل الذمة ، وهم النصارى واليهود والصابئة الذين كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . وليس من شك في ان اعتراف المسلمين بكيان هذه الطبقة ، بعد ان اشترطوا عليها التجرد من السلاح وتأدية الجزية مقابل الحماية الاسلامية ، كان من اعظم الأحداث السياسية التي جاء بها الاسلام . وانما يرجع ذلك ، اكثر ما يرجع ، الى ما كان يكنه محمد من الاحترام للتوراة ، في حين يرجع بعضه الى العلاقات الودية مع رؤساء بعض القبائل المسيحية العربية .

وقد تمتع اهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج . فكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية الى رؤسائهم الروحيين ، إلا اذا كانت القضية تمس مسلماً . لقـــد

كان القانون الاسلامي أقسى من ان تنطبق على العبيد . ولم تعرف
شيئاً من هذا النظام ظل معمولاً به حتى آخر العهد العثماني وقيام
الانتداب في سورية وفلسطين .

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة العبيد ، وكانت في أسفل درجات
السلم الاجتماعية . فقد احتفظ الاسلام بنظام العبيد ، وهو نظام
سامي قديم اعترفت به التوراة . على ان الاسلام حسّن حالة العبد بعض
الشيء . ومع ان الشرع الاسلامي منع استرقاق المسلم ، فهو لم يعتق
العبد ، حتى اذا أسلم . وكان معظم العبيد في فجر الاسلام من
أسرى الحرب ومنهم النساء والأحداث الذين لم يقتلوا والذين
أسروا في القتال او أخذوا في الغزو . وما لبثت تجارة العبيد ان
أصبحت تجارة نشيطة رابحة في جميع البلدان الاسلامية . وكان
الرقيق أجناساً شتى فمنه الزنوج من افريقية الشرقية والوسطى ،
والأصفر من تركستان الصينية ، والأبيض من الشرق الأدنى او
من أوربة الشرقية أو الجنوبية . وكانت أثمانهم مختلفة أيضاً فقد بلغ
ثمن العبد الاسباني نحو الف دينار ، في حين ان العبد التركي لم يزد
ثمنه على ستمئة دينار . ولقد نصّت الشريعة الاسلامية على ان مولود
الأمة عبد سواء أكان الوالد عبداً أم حراً إلا اذا كان الوالد هو
سيد الأمة واعترف بأبوته . أما أولاد العبد من زوجة حرة
فأحرار .

ويمكننا الاستدلال على عدد العبيد الذي طغى سيلهم على
الامبراطورية الاسلامية بدافع الفتوحات من الروايات التالية ،
وهي بلا ريب مبالغ فيها . فقد ذكروا ان موسى بن نصير رجع

ثلاثة عشر اميراً من حرب افريقيا ، واهدى خمسين الى الخليفة ، وانه احد من بنات الامراء مخصوصة لنفسه في اسره . ثلاثين الف عذراء كما ذكروا ان عدد اسرى قائد واحد فقط من قواد سعيد في تركستان بلغ مئة الف .

وكان الزواج الشرعي محصوراً على ... واما التسري فكان مباحاً . والاولاد الذين يولدون في حالة التسري هذه ينسبون الى الوالد ، فهم احرار ، غير ان ربة الاولاد وهي سرية ترتفع في مرتبة ام ولد ، فلا تكون سبية او امة ، ومتى مات سيدها اعتقت . وقد لعبت كثرة الرقيق دوراً هاماً في اختلاط العرب بمختلف العناصر الاجنبية ، فنتج عن ذلك امتزاج تام بينهم وبين شعوب غريبة متعددة .

لا يخفى ان العراة من عرب الصحراء دخلوا الامصار التي فتحوها خالي الوفاض من كل تقدم علمي او تراث ثقافي . ولقد حال عرب عهد الامويين من عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة وعدم استقرار الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي دون استخدام الفكر في [illegible] عهدهم ، غير ان بذور الفكر انبثقت عن الثقافات السابقة من يونانية وفارسية وهندية كانت قد زرعت في تربة العهد الاموي ثم جاءت الدولة العباسية حتى نبتت هذه البذور لتصبح اشجاراً باسقة ذات اثمار يانعة . فالعصر الاموي اذاً كان على الجملة عصر استعداد وتحضير .

وشعوب الفرس والسريان والاقباط والبربر وسواهم حضيرة الاسلام وتزاوجهم بالعرب زال ذلك الحجر المنيع الذي وضعه

الاولون من العرب والاعاجم فلم يعد لقومية المسلم اهمية .

ومهما كانت قومية المسلم أصلاً فقد صار بعد الآن عربياً . أصبح كل من اعتنق الدين الاسلامي وتكلم اللغة العربية عربياً بقطع النظر عن قوميته الأصلية . وهذا الحدث كان من اشد الامور خطورة في تاريخ المدنية الاسلامية . فنحن اذا ذكرنا « الطب العربي » أو « الفلسفة العربية » أو « الرياضيات العربية » فلسنا نقصد بذلك ان هذه العلوم كلها كانت من نتاج العقل العربي ، وان الذين وضعوها ورقّوها هم من ابناء الجزيرة بل نعني مجموعة تلك العلوم التي وضعها في اللغة العربية رجال نشأ جلّهم في عصور الخلافة وهم فرس ومصريون وعرب من نصارى ويهود ومسلمين ، وقد استمدّ بعضهم معلوماته من مصادر يونانية و بعضهم الآخر من مصادر آرامية او هندية فارسية أو غيرها .

وبدأت دراسات اللغة العربية وفيها الصرف والنحو في البصرة على تخوم فارس ، وكان الباعث الأول على ذلك حاجة الداخلين في الاسلام الى تعلّمها . غير ان هؤلاء أنفسهم قدموا فيما بعد قسطاً وافراً من هذه الدراسات . وكانت الرغبة الأولى الملحّة هي تلقين الموالي اللغة العربية كي يفقهوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم . وتنص الروايات على ان واضع قواعد النحو العربية هو ابو الاسود الدؤلي (توفي عام ٦٨٨) . ولقد زعم ابن خلكان ان الخليفة وضع للدؤلي هذا الاساس وهو ان « الكلام كله ثلاثة أضرب إسم وفعل وحرف » . ثم دفعه اليه وقال له « تمم على هذا » فتمّ موفّقاً . على ان النحو العربي ينمّ عن

شوطاً طويلاً لم يقم به عمل من أعمال . وقد اصطبغ في خلال شوطه بألوان المنطق اليوناني .

وقضت دراسة القرآن وضرورة شرحه الى ظهور علمي فقه اللغة (الفيلولوجيا) ومفرداته ، والى ظهور علم الحديث وهو أبرز العلوم الاسلامية والحديث بمعنى الاصطلاحي عمل أو قول منسوب الى النبي أو أحد الصحابة . وقد كان القرآن والحديث الأساس الذي قام عليه علم أصول الدين وعلم الفقه أو الشريعة الاسلامية أشد علاقة بالدين وأخوه من علم الحقوق المعروف عندنا بهذا اللقب اليوم . ولا شك في أن الشرائع الرومانية أثرت مباشرة ، وبواسطة التلمود وغيره ، في التشريع الاموي . بيد أن مدى هذا التأثير لم يتحقق بعد .

وقد شهد هذا العصر نشأة العلوم العربية التي حفظ معظمها عن طريق الترجمة . وكان أقدم ما أخرج للناس رسالة في الطب نقلها الى العربية رجل يهودي عن كتاب يوناني ألفه كاهن مسيحي في الاسكندرية . واعتنى العرب في بدء نهضتهم الأدبية بعلم الكيمياء ، كما عنوا بعلم الطب فأبدعوا فيها . وكان لهم فضل كبير في هذه العلوم التي اتسع مداها على مرّ الأيام .

وازدهر فن الشعر في البلاط الاموي في دمشق وكذلك ازدهر فن الموسيقى على الرغم من مقاومة المحافظين الذين اعتبروا فن الموسيقى ولعبه بمنزلة الخمر والميسر اللذين حرمهما القرآن . ولا شك في أن الرقي العسكري في عهد الامويين تبعه ابعد غاية في صناعة الشعر . أما عصر الفتوحات السابق فقد كان محدثاً لم يظهر فيه

شاعر واحد في العرب وهو إمامة الشعراء . ولما أن تسلم الأمويون زمام الحكم حتى استعادت آلهة الخمر والغناء والشعر عروشها السابقة فظهر لأول مرة شاعر الحب في العربية عمر ابن أبي ربيعة المتوفى حوالى ٧١٩ ، وهو قرشي أمه نسبة جميل لم يعرض تحدث الحب تعبيرات لجمالات العصابات الحجازية ودمشقية ، وتودد الى سكينة ابنة الحسين المشهورة بجمالها وأدبها .

أما أعظم براعة فقد ظهرت للمسلمين فكانت في هندسة المعمار ولا سيما بناء المساجد . فالمعماريون المسلمون وبعض من استخدموا في هذه السبيل اختطوا في فن البناء خططا جديدة بقيت راسخة دوم على أسس من تقاليدهم ولكنها تعد بميزة خاصة وهي أنها تعبر عن روح الدين الجديد . ولما أن صار المسجد خلاصة لجميع امتداد الثقافة الإسلامية سواء أكان ذلك قبل الإسلام وعصوره الأخيرة أم خارج الإسلام في مختلف بلاد الأمم الأخرى . فالمسجد خير شاهد يمكن أن يتخذ دليلا على العلاقات الدقيقة بين أسسها وجوانبها .

ولقد أصبح المسجد النبوي الذي في المدينة على الجملة نموذجا لمعابد الغرب الإسلامي الأول . وكان أول أمره عبارة عن فناء بلا سقف بين جدرانه ذوات اللبن . ثم مد النبي سقفا فوق الجهة المجاورة فظل ما بقي مكشوفا لأشعة الشمس المحرقة . وكانت عمده من الجذوع وسقفه من الجريد عليه طين . وكان الرسول يؤدي الأمر بخطبة الناس غير مستند الى شيء ، ثم بدا له أن جذع قائم في هذا المسجد يستند عليه إذا طال قيامه . ثم بدا له أن يتخذ منبرا وتخذه من خشب الأثل ذا درجات ثلاث على

نحو ما عرف من الطراز في الكنائس النصرانية في الشام ، وكان
كل ما اشتمل عليه المسجد الجامع الاول بناء وسقف يغطي المصلين
ومنبراً يرقاه الخطيب .

ولما تقدم العرب فاتحين الأمصار العربية منها ولعدد من
انحاء آسيا الغربية وافريقيا الشمالية صار لدى ابنائهم ثبات لاغنى
عن المدنية والرقي ، شأن رقياً فرقياً ورقياً والأمم من حيث انه
اصبح في حوزتهم معارف فنية جمة ورثوها من الامم المغلوبة عن
عصور خالية . ولما انشئت هذه الاوضاع الفنية التي حوّرت وعدلت
احتياجات الاسلامية لم يلبث ان اصبحت تعرف على مرور الايام بالفن
العربي .

والمعلوم ان بيت المقدس قبل ان يكون مقدساً منذ عهد الاسلام بلداً
مقدساً في نظر المسيحيين واليهود ، وجميع ذلك لما له من منزلة بيت المقدس
في التوراة ولأنه كان القبلة الأولى في الاسلام والموضع الذي
وطأه محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة الاسراء ، وفيه تقوم اليوم
قبة الصخرة التي بنيت عام ٦٩١ في بقعة تعد أكثر بقاع الأرض
قداسة لما لها في احترام اليهود والوثنيين والنصارى والمسلمين
وعدّها التقليد الموضع الذي اراد ابراهيم ان يقدم اسحق ابنه فيه
ذبيحة لله . وتختلف هندسة قبة الصخرة هذه عن الأساليب القديمة
فقد ادخلت في بنائها لعقدها وسواها من اساليب الزخرفة
ولقد سرف في صنع القبة كما عوق فيه كنيسة القيامة أناقة وفنا
فكانت النتيجة ان جاءت رائعة فيها تجد ما يضاهيه في اقطار
العالم .

أن الجامع الأموي في دمشق أكبر دليل على ما وصلت اليه
المدنية العربية من تطور . ففي سنة ٧٠٥ أخذ الوليد بن عبد الملك
في سلطنة دمشق الكنيسة المكرسة للقديس يوحنا ، وكان في
الأصل هيكلا لجوبيتر ، وبنى هنالك المسجد العظيم المعروف بالجامع
الأموي . ومن الغريب أن شيئاً ما بقي في هذا الجامع من
أصل البناء المسيحي إلا أن المئذنتين الجنوبيتين تقومان على
أبراج كنيسة قديمة هي من أبراج البيزنطيين . أما المئذنة الشمالية
التي كانت تستخدم برجاً للاستطلاع في الشام أيام الوليد
وقد أصبحت نموذجاً لكثير من المآذن في سورية وشمالي
افريقيا واسبانيا . وهي أقدم المآذن الاسلامية . حرمه الساعة
واستخدم الخشبة في بناء هذا الجامع الضخم بفرش والعمود
والمهرة من الوطنيين ، ولعل بعضهم كان من الروم الذين أوفدهم
امبراطور القسطنطينية . وتعد أوراق البردي المكتشفة حديثاً
أن بعض مواد البناء استقدمت من أسواق المصرية ، وكذلك بعض
الحذّاق العمال .

وسنتقدّم ونبين سبق أن العرب لم يبلغوا قصب السبق في
ميدان الحروب فقط بل في ميدان العلوم والفنون أيضاً

بغداد في أوج مجدها

ما كانت امهات العرب في البدء من حصة رماحهم ليقلّ عن اهتمامهم في علومهم وفنونهم ولاسيما بعد ان جعل أبناء الجواري يستوون عرش الخلافة . وكان اول هؤلاء يزيد بن الوليد ٧٤٤م وقد تمّ ولده ، وكذلك كان الخليفتان الاخيران بعده – وهما آخر السلالة – من أمّي ولد . ففي هذا الزمن نشأ عدم التعصب الذي اولاه [illegible] عصر الحريم ، وتعدد الزوجات وكثرة العبيد ازدياد انعكاس القوم في العرب ، ثم تقطيع السلالة [illegible] امتزاج صفاء دمها العربي . وما ذلك الا دليل واضح على الانحطاط الاخلاقي الذي كان متفشياً في المجتمع عامة .

وما زاد في ضعف السلالة الاموية والخلافة اشتداد شقة الخلاف بين قبائل عرب الشمال وبين قبائل عرب الجنوب . والحق ان

هـــذا الاختلاف كان وثيق الأسلام وبقيه مع الآن أقصاه ، فهو يثير أشد الشعور والخصام . فعلى ضفتي الأندلس وشواطئ صقلية وتخوم الصحراء الافريقية ظهرت تلك الضغائن الكامنة من أمد بعيـــد وصورت في شكل حروب سياسية قد أشعلت فتن وفتن . واستمر هذا النزاع في العصور الحديثة اذ نشبت معارك من الفريقين في بلاد فارس وفلسطين حتى القرن الثامن عشر

وهناك عامل آخر زاد سلالة الأموية وهناً وهو عدم وجود قاعدة نائب صريح يحكي توجيه الخلافة في الخلفاء . ولقد أدرك معاوية خطورة هذا الأمر ودعى بخـــلافة من بعده لابنه يزيد فأدخل بعمله هذا مبدأ جديداً حكم يتركز في الوراثة . لكن مبدأ الأقدمية في السن الذي جرى عليه العرب كان أبداً يدفع من الخليفة الى جعل اخلافه في ذريته وعلى كل حال فقد بقيت البيعة معمولاً بها ، ولكن في الظاهر فقط .

وفي سنة ٧٤٧ م قام العباسيون بثورة على بني أمية الأمويين ، وينتسبون الى العباس عم الرسول ، فنجحوا في حركتهم وكادوا يبيدون البيت الأموي . ويروى ان قائدهم عبـد الله بن العباس دعا ثمانين رجلاً من الأمويين للطعام في أبي فطرس على نهر العوجاء قرب يافا ثم أمر جنوده ان يضربوا رؤوسهم حتى أتوا عليهم ، ثم أمر فمدّ فوقهم البسط وجلس فوقهـــا ودعا بطعام فأكل ، وهو يسمع أنينهم . ولقب الخليفة العباسي الأول بالسفاح لهذا الملقب وعمد العباسيون الى استعمال العنف في تنفيذ خططهم . ولأول مرة في تاريخ الأسلام صار النطع الى

جانب كرسي الخلافة واتخذ منه ومن فيه اداة لتوحيد
حوله العرش وجمع حكم [illegible] القسم الشرقي من العالم
الاسلامي ، أما حكمهم فكان اوثق بالأمس [illegible] ودام
حكمهم خمسة قرون [illegible] حتى أتى على
آخر خليفة منهم سنة ١٢٥٨ [illegible] هولاكو ، وفي ايامهم او عصر
الحضارة العربية فسميت بالعصر الذهبي

وفي سنة ٧٦٢ أمر المنصور الخليفة العباسي [illegible] بغداد
عاصمته الجديدة على ضفة دجلة الغربية وهو موضع [illegible] فيه قرية
[illegible] بغداد [illegible] وفي وادي دجلة
والفرات [illegible] القديمة قال المنصور
« هذا موضع معسكر صالح . هذه دجلة [illegible] كل ما في
البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة [illegible] وما حول ذلك ، وهذا
الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك . »
وكان اختيار المنصور هذا الموضع حكيماً حقاً . واستغرق بناء
المدينة اربع سنوات استخدم في انشائها مئة الف من المهندسين
والصناع والعمال وما لبثت ان اصبحت مدينة عظيمة .

وجعل المنصور مدينته مدورة فسميت بالمدينة المدورة ، وبنى
سوراً مؤلفاً من حائطين من الآجر ، واحتفر خندقاً عميقاً وأقام
سوراً ثالثاً داخلياً علوه تسعون قدماً يحيط بأواسط المدينة . وجعل
للمدينة ابواباً اربعة تؤدي اليها طرق اربع تبتدىء من وسط المدينة
وتترامى الى اطراف الامبراطورية الاربعة وكأنها شعاع منبثق من
دولاب . فكانت المدينة عبارة عن دوائر ذات مركز واحد قام في

فيها قصر الخليفة المسمى باب الذهب وقبته الخضراء ، والى جانبه
المسجد الجامع . اما قبة علي القصر الخضراء التي غلب اسمها على
القصر وقمتها ترتفع مئة وثلاثين قدماً . ولقد جاء في رواية متأخرة
ان صنم هيئة فارس يحمل رمحاً كان في اعلى هذه القبة ليشير في
الأوقات الحرجة الى الجهة التي قد يجيء منها العدو . ولكن هذه
هذه الخرافة لم تفت ياقوت الحموي فقال ان الصنم لا محالة يتوجه الى
جهة ما في كل حين ، فيدل على وجود عدو يطل على المدينة في كل
وقت . وأن أمة الاسلامية قد تجلّ عن هذه الخرافات .

وقرّب مركز الخلافة الجديد من فارس حدا بها على ان تتجه نحو
الشرق . فخضع الاسلام العربي لمؤثرات الفارسية ، واصبحت
الخلافة أشبه بحكومات الاستبداد الفارسية منها بمشيخة عربية
فتسرب الى الحضارة العربية من فارس شيء كثير كالألقاب والخمر
والزوجات والسراري والأغاني والأفكار . على ان هذه بدّلت
خشونة الحياة العربية ومهدت السبيل لبزوغ عهد ممتاز بالعلوم
والاستقلال الفكري . إلا ان صفة العروبة احتفظت بأمرين هامين
وهما الاسلام دين الدولة ، والعربية لغة الدواوين الرسمية .

وفي مستهل القرن التاسع ظهر عاهلان كبيران في شؤون
العالمية ، هما شرلمان في الغرب وهرون الرشيد في الشرق . وليس
من شك في ان هرون كان اقوى من زميله ، وفي انه كان يمثل
ثقافة ارفع من ثقافة الغرب . وقد تبادل العاهلان علاقات ودية
اساسها المصلحة ، فسعى شرلمان صداقة هرون كي يعينه على خصمه
امبراطور بيزنطة ، وودّ هرون مساعدة شرلمان على منافسه واعدائه

الأمويين في الأندلس الذين كانوا قد شيدوا دولة منيعة الجانب تتمتع بالرخاء . وهكذا تبادل الاثنان — على قول المؤرخين العربيين — السفراء والهدايا . ويروي مؤرخ افرنجي عرف شرلمان معرفة شخصية ان سفراء الملك العظيم في الغرب رجعوا من الشرق بجملة من الهدايا الثمينة من « ملك فارس هرون » ، ومنها منسوجات وعطور وفيل واحد وساعة دقيقة التركيب تقيس الوقت بواسطة الماء . أما حجر الأرغن الذي يقال ان هرون أهداه الى شرلمان فهو ككثير من الأخبار الجذابة في التاريخ وليد الخيال ولا يستند الى الحقيقة . وقد نفى البحث العلمي أيضاً القصة التي تقول بأن هرون أعطى شرلمان مفاتيح كنيسة القيامة . والغريب في أمر تبادل السفراء والهدايا هذا الذي جرى ما بين سنتي ٧٩٧ و ٨٠٦ ان المؤرخين المسلمين لا يشيرون اليه البتة ، على الرغم من انهم أشاروا الى مبادلات دبلوماسية أخرى .

وفي أيام هرون الرشيد هذا (٧٨٦ – ٨٠٩) أصبحت بغداد مركزاً للغنى الباذخ والأهمية العالمية ، ولم يكن قد مضى بعدُ على تأسيسها نصف قرن ، فوقفت وحدها تجاه بزنطية . وكان مجدها متناسباً مع تقدم الامبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير » .

وكان القصر الملكي وما يتبعه من ملحقات للحريم والخصيان والخدم يبلغ ثلث المدينة المدورة . وأعظم ما فيه المجلس المفروش بالطنافس والمجهّز بالتحف والمساند بحيث لم يكن في الشرق أبدع منه . وكانت زبيدة ، زوج هرون وابنة عمه ، تشاركه في تلك الهالة من المجد التي أكسبتها اياها الأجيال اللاحقة ، فهي تساهم في

ان ترى على مائدتها أوعية غير مصنوعة من الذهب أو الفضة وغير مرصّعة بالجواهر . ويقال انها أنفقت في حجّتها هذه ثلاثة ملايين دينار من بينها نفقة إيصال الماء خمسة وعشرين ميلاً الى الحرم بمكة

وكانت لزبيدة مزاحمة هي علية المغنية أخت هارون لأبيه من أمّ ولد . وكان بها عيب في جبينها فاستحدثت العصائب المكللة بالجواهر لتستره به فحدث شيئاً . لكن ما ابتدعته النساء أحسنّ منه . وجدته لنفسها عيب .

ومع مدح البلاط وعظمته أقصى درجاتها في الاحتفالات الرسمية كتنصيب الخلفاء والأعراس والحج والاحتفاء بالسفراء الأجانب . وقد أنفق في زواج الخليفة المأمون على بوران ابنة وزيره سنة ٨٢٥ مقادير هائلة من المال . فتحدث الأدب العربي عن هذا الزواج الذي تم بهذه المناسبة في عدد من الأخبار . قيل : وقد جلس العروسان وقد فرش لهما حصير كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ومكللاً بالدرّ والياقوت . ونُثرت على بوران ألف درّة كانت في صينية ذهب ، وأوقدت شموع العنبر في كل واحدة منها مئتا رطل . فقست [illegible] الضيعة حسناً . وأسمى أمر في العرس العظيم أن نُثر على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد رجل فتحها وقرأ ما فيها ومضى يتسلم الموهوب سواء أكان ضيعة أم فرساً أم جارية أم مملوكاً . وفي سنة ٩١٧ استقبل الخليفة المقتدر في قصره رسل الامبراطور الشاب قسطنطين السابع استقبالاً فخماً وأظهر أن القصد من ذلك

كان سادة الأمراء وأقدرهم . ولقد مشى في موكب لاستقبال
يومئذ مئة وستون ألف فارس وراجل ، وسبعة آلاف خصي منهم
البيض والسود ، وسبعمئة حاجب ونحو منه ... . وكان مما علق
من الستور في قصر الخليفة ثمانية وثلاثين ألف ستر منها اثنا عشر
ألف وخمسمئة من الستور المذهبة وبلغ ما حواه من الطنافس اثنين
وعشرين ألف قطعة . وقد ... الرسل من الأعاجيب والروعة
الشيء الكثير ، وما نظروا إلى دار الحاجب ودار الوزير حسبوها
مجلس الخليفة فقيل لهم ... هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب
ولكن دهشتهم كانت على أشدها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها
شجرة من الفضة والذهب وزنها خمسمئة ألف درهم وعلى كل غصن
عصافير وطيور من كل نوع مذهبة ومفضضة متحركة كلما هزت الريح
ورق الشجر فتصفر الطيور وتهدر . ثم خرجوا إلى بستان فيه نخل
حول كل نخلة خمسة أذرع قد أحاط بجميعها صحن منقوش وهي
مثقلة بأطايب الثمر .

وكان هذا من أبهى المواكب في الإسلام . ويحفزه
كرم الخلفاء ... على المغنين ... فيجذب إلى الخلفاء الشعراء
وأهل الذكاء والفكاهة وأرباب الموسيقى والغناء والرقص وغيرهم
من أرباب الملاهي كمربي الكلاب والسنانير الذي كانوا يحضرونها
قصور الخلفاء . ولقد وصف الشاعر العربي أبو نواس ، وهو
نديم الرشيد ، وصفه في كثير من قصائده ، حياة البلاط
خلال هذا العصر الزاهي ، في أعذب الشعر ، وصفحات الأغاني
للأصفهاني حافلة بقصص شتى ... خبرة ... لا

يضعف استجلاء الحقيقة من تلافيفهم . فمن أن الخليفة الأمين بن هرون غنّاه ابراهيم بن المهدي عمّه ، وهو مغنٍّ شهير ، صوتاً في شعر لأبي نواس فأمر له بثلاثمئة ألف دينار . فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم هل هي إلا خراج بعض الكور ؟ ، وكان للأمين عدّة حرّاقات مصنوعة في دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب . ولقد أنفق في عمل واحدة منها ثلاثة ملايين درهم . وفي « الأغاني » أخبار تطالع وصف مشهد من مشاهد الرقص الغنائي الرائع فاذا دارُ الخليفة الأمين مملوءة بالوصائف يغنّين على الطبول والسرناءات والأمين واقف في وسطهن يرقص في دارة النعمى ، والجواري والخدم من حوله يزمّرون ويضربون . وذكر المسعودي أن ابراهيم بن المهدي استزار أخاه الرشيد فلما وُضعت الموائد على المائدة رأى الرشيد سمكاً صغيراً مقطعاً فقال ابراهيم : هذه ألسنة السمك ، وردف الخادم قائلاً : يا أمير المؤمنين فيها أكثر من مئة وخمسين لساناً . فاستحلفه الرشيد عن مبلغ ثمن السمك فاعترف : بأكثر من الف درهم . وإننا إذا جرّدنا صورة حفلة البلاط بعهد الرشيد عما أسبغته عليها القرائح الشرقية من الأطايب والمبالغة لرأينا فيها بعد ذلك السحر ما ملأ النفس عجباً من دهشة .

وامتدّ مرسى بغداد أميالاً وحوى مئات السفن ومن بينها السفن الحربية ومراكب النهو والسفن الصغيرة والأطواف وهي زقاق تُنفخ فيها ويُشدّ بعضها الى بعض كهيئة السطح وتشابه الأطواف المعروفة في عصرنا هذا الشائعة بين الموصل وبغداد ،

وكان يرد الى اسواق المدينة الخزف والحرير والمسك من الصين ، والطيوب والمعادن والأصباغ من الهند والارخبيل ملقة ، والياقوت واللازورد والمنسوجات والأرقاء من اراضي الترك في آسيا الوسطى ، والعسل والشمع والفراء والعبيد البيض من اسوج ونروج وروسيا ، والعاج والتبر والعبيد السود من شرق أفريقيا . وقد أفردت لبعض أنواعها سوق خاصة بها . وكانت الامصار ترسل محصولاتها سواء بحراً ام براً في قوافل . فيرد الارز والحبوب والكتان من مصر ، والزجاج والادوات المعدنية والفواكه من الشام ، والقماش الحريري والمقصّب واللؤلؤ والاسلحة من جزيرة العرب ، والحرير والعطر والبقل من فارس .

وقد قام التجار العرب بتصدير المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخرز والزجاج والطيوب وغير ذلك من بغداد ومراكز التصدير الأخرى الى أنحاء الشرق الأقصى واوربا وافريقيا . ويشهد النقود المسكوكة التي وُجدت طائفة كبيرة منها في روسيا وفنلندا واسوج والدنمارك على اتساع نطاق تجارة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها سواء في هذه الحقبة ام في الحقب المتأخرة من تاريخهم . وليست حكايات السندباد البحري التي هي من أمتع قصص « الف ليلة وليلة » الا اخباراً ذات اساس واقعي لسفرات قام بها اهل التجارة من المسلمين . ولقد لعب التجار دوراً هاماً في حياة بغداد . فكان لكل تجارة او صناعة سوق خاص بها كما هو الحال اليوم . ولم يكن يعكّر من اطراد الحياة في السوق الا مرور مواكب الأعراس او المحتفين بختان .

وقد أصبحت مدن من مثل بغداد وحمص ودمشق وكثير
وغيرها لشعوب مراكز عامة في الجميع وقد نقل لنا أحد الكتاب
صورة مصغرة لأعقاب أحد هؤلاء المترجمين وهو الطبيب المعروف
حنين بن إسحق عميد المترجمين من اليونانية . فحين يعود في كل يوم ،
بعد فراغه من ركوب الخيل ، يدخل الحمام فيصب عليه الماء ، ثم
ثم يخرج فيلتف في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة
ويتكئ حتى ينشف عرقه ، وربما نام ، ثم يقوم ويتبخر ويقدم له
طعامه ، وهو فروج كبير مسمن ورغيف وزنه مائتا درهم
فيحسو المرق ويأكل من الفروج والخبز وينام ، فإذا انتبه
شرب أربعة أرطال شراب عتيقا ، فإذا اشتهى عقيبه الفاكهة
أكل التفاح الشامي والسفرجل .

واشتهرت هذه الحقبة في تاريخ الترجمة والنقل لأسباب
منها حاجة العرب إليها ، ولكن أهم الأسباب ظهور
أعظم نهضة فكرية في الإسلام أو في إحدى الحركات الفكرية
والثقافية العظيمة في العالم أجمع . وترجع هذه النهضة في معظم
أسسها إلى مؤثرات خارجية بعضها هندي أو فارسي أو سرياني
وأكثرها يوناني . وهي نهضة تطلبت من حركة النقل إلى العربية
من الهندية والفارسية والسريانية واليونانية لأن العربي لم
يكن لديه الشيء الوفير من العلم والفلسفة والأدب ولكنه كان
يمتاز بذكاء طبيعي ، وبقوى عقلية ذهنية ، وبرغبة في
الاطلاع على الجديد . فأصبح بعد وقت قصير وارث حضارة
الشعوب العريقة في القدم التي تغلب عليها واختلط بها . فلم

جو الشام الصبغة من حضارتي الآرامية التي كانت قد تأثرت
بثقافة اليونان . وفي العراق فستمد حضارة الآرامية التي كانت
قد تأثرت بثقافة الفرس . ولم يمض على تأسيس بغداد ثلاثة ارباع
قرن حتى اصبح في حوزة العرب اهم كتب ارسطو المنطقية ،
وجملة من كتب الشروح لاهل المدرسة الافلاطونية الحديثة ،
ومعظم كتب جالينوس الطبية ، وطائفة من الكتب العلمية من
فارسية وهندية . ففي عشرات السنين امكن للعرب الوقوف على
آثار عقلية قديمة كان اليونان قد انفقوا قروناً في انشائها . ولا
شك في ان للاسلام حظاً كبيراً من فضله الاخير باستمداده هذا
من الحضارتين الفارسية واليونانية ، فكان فضله عظيماً في تنمية
نهضة الفلسفة العربية ، فصار الآن يشغل مركزاً هاماً في ثقافة
العصور الوسطى التي ربطت جنوبي اوربا بالشرق الادنى . وهذه
الثقافة نبعت من مجرى واحد ترجع اصوله الى مصر القديمة وبابل
وفينيقية واليهودية ، وعرج هذا المجرى على بلاد اليونان فرجع
وصب الى الشرق الادنى بشكل الحضارة اليونانية . وسوف نرى فيما
بعد كيف اتجه هذا المجرى الثقافي صوب اوربا عن طريق العرب
في اسبانيا وصقلية حتى ادى الى عصر النهضة الاوربية الحديثة .

وكانت الهند من اهم مصادر الفكر وخصوصاً في الحكمة
والأدب والرياضيات . فحوالي سنة ٧٧٣ قدم رحالة هندي بغداد
ومعه رسالة في الفلك . فأمر الخليفة بترجمتها فترجمها الفزاري إلى
العربية . ومعرفة العرب بالنجوم قديمة ترجع الى عهود البداوة . ولكن
الاهتمام العلمي بها لم يظهر حتى هذا الزمن . ولقد ورث الأسلام

حقولاً جديدة لدرس علم الفلك وهو الرغبة في معرفة جهة القبلة
بالضبط . ثم جاء الخوارزمي المشهور المتوفى عام ٨٥٠ فوضع
جداوله الفلكية المعروفة استناداً الى كتب الفزاري فجمع بين
علم اليونان والهنود في هذا العلم ووحّده وزاد عليه أموراً جديدة .
ويعود الفضل بإدخال الأرقام في العالم الاسلامي الى ذلك الرحالة
الهندي نفسه . فقد حمل معه رسالة في الرياضيات حوت تلك
الأرقام التي تعرف في أوربا بالعربية ، وفي البلاد العربية بالهندية .
وعقب ذلك بمدة أخذ العرب عن الرياضيات التي عرفت في القرن التاسع
قانون الكسور العشرية .

أما التراث الفكري اليوناني فكان لا شك من أهم عوامل الانتقال
الخصب عند العقل العربي . فحركة الثقافة اليونانية كانت من عوامل
الاحتكاك تأثيراً في الحياة العربية . وقد بلغ هذا التأثير أوجه في
أيام المأمون وذلك لأنه كان هذا الخليفة من النزعات الفكرية الحرة
ولما كان يعتقد كالمعتزلة بوجوب الاتفاق بين العقل والشريعة وبين
أحكام العقل انصرف الى فلسفة اليونان يعتمد عليها في الاطلاع
على ما في آرائهم . وفي سنة ٨٣٠ أنشأ بيت الحكمة في بغداد
وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتب ترجمة . وكان
هذا المعهد ، من وجوه عدة ، أعظم المعاهد الثقافية التي نشأت
بعد متحف الاسكندرية الذي ظهر في النصف الأول من القرن
الثالث من الميلاد . وقبل تأسيس بيت الحكمة كان بعض النصارى
واليهود والمستعربين من معتنقي الاسلام قد قاموا بتراجم متفرقة
من تلقاء أنفسهم . أما الآن ، في أيام المأمون وخلفائه ، فقد كثرت

الترجمة في هذا العهد الجديد . ولقد دام عصر الترجمة هذا ما يقرب
من قرن ابتداءً من سنة ٧٥٠ . وقد كان الآراميون (السريانيون)
أنفسهم معظم المترجمين فقد نقلوا كثيراً من الكتب اليونانية إليهم أولاً
قبل صوغها في العربية .

على أن العرب لم يتعرفوا بالأدب اليوناني ، ولم
يكن هناك من شيء يغري العقلية العربية بدراسة اليونان أو
شعرهم أو تاريخهم . فبقيت السيادة في هذه الميادين للمؤثرات
الفارسية على أن الثقافة السامية في حوض الفرات الفكري كانت
الثقافة اليونانية التي وضعها أفلاطون وأرسطو وتوسع فيها رجال
الفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

وكان شيخ المترجمين حنين بن إسحق (٨٠٩ - ٨٧٣) وهو
أحد أعاظم العلماء وأنبل من في عصره خلقاً . وكان عبادياً ، والعباد
هم قوم من نصارى قدموا من الحيرة . وفي حداثته خدم
الطبيب يوحنا بن ماسويه خدمة صيدلي ، وغضب عليه يوحنا يوماً
فقال له ما لأهل الحيرة وتعلم الطب ، اذهب فبع الفلوس في الطريق ،
فخرج حنين ، كما وعزم على درس اللغة اليونانية . ومن الترجمات
التي تعزى إلى حنين ترجمة كتب جالينوس وأبقراط وديسقوريدس
فضلاً عن كتب السبعة (الجمهورية) لأفلاطون والمقولات
والطبيعيات والخلقيات لأرسطو . ومن أهم مجهوداته ترجمته
جميع مؤلفات جالينوس الطبية تقريباً إلى اللغة السريانية فالعربية .
وقد فقدت لجالينوس كتب سبعة في علم التشريح في أصلها
اليوناني إلا أنها لحسن الحظ محفوظة في اللغة العربية . ما ترجمة

حتى العهد المتقدم من ترجمة الموسوعة سيئة فقد تقدمت

ويشهد لحنين ببراعته في الترجمة ما روي من أنه هو ومن معه من النقلة كانوا يرزقون حوالي خمسمائة دينار في الشهر ، وأن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب على أنه لم يبلغ ذروة مجده إلا في [illegible] الخليفة المتوكل [illegible] طبيبه الخاص . ثم إن المتوكل حبسه في قصر بغداد سنة كاملة لأنه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً . ثم أحضره وعرض عليه القتل وأحضر سيفاً ونطعاً فقال حنين : قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية . فقال الخليفة : فإني أقتلك . فقال حنين : لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف الأعظم . فتبسم المتوكل وقال له وطب نفساً فإنا أردنا امتحانك . ثم سأله : ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق الأمر منا ؟ فقال حنين : شيئان هما الدين والصناعة . أما الدين فإنه يأمرنا بصنع الخير مع أعدائنا فكيف ظنك بالأصدقاء . وأما الصناعة فهي موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ، ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالاً لأحد ويقول مؤرخ افرنجي حديث إن حنين كان أعظم شخصية في القرن التاسع

ولم يكد عصر الترجمة ينتهي حتى كانت مؤلفات [illegible] الموجودة ، وكثير من منسوب إليه ، قد أصبحت في متناول القارئ العربي بكل هذا وأورث لا عجب الأفكار والعلوم اليونانية . وقد كان الرشيد والمأمون يتحران في الحكمة اليونانية والفارسية

كان أشهرها في الغرب كتب [illegible] ولا يزالون يحوون القول الكثير في
المسيحية . ولم تلبث مؤلفات [illegible] في علم النبات والمنطق وعلم
الشعر وكتب [illegible] أن أصبحت مركزا عالميا
الى جانب [illegible] واسحق كانت معقود الاسلامية في الأندلس .
ولا تزال محفوظة على [illegible] هذا حتى اليوم . واعتنق المسلمون عقيدة
المدرسة الافلاطونية الحديثة التي تقول بأن العالم والعقل والافلاطون
هي واحدة [illegible] . وكانت مؤلفات الافلاطونية الحديثة في
العروبة الى حد كبير . وعن طريق الفلسفة الارسطية والافلاطونية
الى الآداب الفلسفية عن طريق مؤلفات ابن سينا وابن رشد فأثرت
عقول فلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى كما سنرى

ويتبع دور الترجمة الطويل هذا ، كان منه من ابتداع دور آخر
هو دور الابتكار والابداع . وسنتطرق اليه في فصل آخر من
هذا الكتاب . ومنذ القرن العاشر حتى [illegible] لغة العربية ،
تلك اللغة التي أصبحت بعد أن كانت أداة للشعر فقط وعرف المسلمون
بعد محمد في الاخص منه الوحي والدين ، تقول تحولت الى لغة جديدة
عجيبة دقيقة المعاني سهلة المراس تطوع رغبة المرء في التعبير عن
الفكر العلمي والادبي عن الآراء الفلسفية والمعقدة . وفي
الوقت نفسه أصبحت لغة السياسة والتخاطب الادبي من آسيا
الوسطى الى شمالي افريقيا والأندلس . ومنذ ذلك الحين وأهل العراق
وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش
يفصحون عن أسمى أفكارهم باللسان العربي

مناحي حياة العامة

قصر مؤرخو العرب اهتمامهم على مشاكل دار الخلافة ، وعلى قيام السلالات الملكية وسقوطها وما نشأ عن ذلك من حوادث دموية معقدة ، وعلى القوّاد والوزراء ورجال السياسة يومئذ وما أصابوا من انتصارات وما أصابهم من نكبات . فهم لم يتركوا لنا صورة جليّة عن حياة العامة الاجتماعية والاقتصادية . غير أنه يمكننا أن نستخلص صورة تقريبية على الأقل لهذه الحياة من وجهتيها الاجتماعية والاقتصادية من فقرات وردت عرضاً مبعثرة في كتبهم ومن بعض مصادر أدبية وخصوصاً من درس الحياة العادية اليوم في الشرق الإسلامي الذي لم يتغير كثيراً عما كان عليه في الماضي .

تمتعت المرأة في القرن التاسع بقسط وافر من الحرية يعادل

قسط المرأة التي سبقتها . ولكن في آخر القرن العاشر اصبحت
أحكام الحجاب وعزل المرأة عن الرجال معمولاً بها دون [illegible]
هوادة . ولم يكن سوء [illegible] في اواخر العصر العباسي
الوحدات اللواتي كان من شأنه [illegible] في سياسة الدولة حين
كانت الفتن العديدة تحرض الى الحروب وتوالي هذه الجيوش
ويظهر الشعر [illegible] في الحرف الأدبية ، ووصف المجالس
المجالس [illegible] والموسيقى والغناء .

وفي حقبة [illegible] كثر [illegible] في المسلمين
وسقط مستوى الآداب العامة . وهكذا [illegible] المرأة الى [illegible]
[illegible] في [illegible] وتبدت [illegible] مثل
المكر والدسيسة [illegible] الأفكار الردئة [illegible] .

واعتبر الزواج في الاسلام [illegible] يجب [illegible]
[illegible] اللوم . [illegible] الاولاد [illegible] منهم [illegible]
[illegible] . أما الزوجة [illegible] واجب على خدمة [illegible]
وتدبير شؤون منزلها [illegible] من [illegible] الفقر [illegible]

[illegible] في عهد العرب الأقدمين ، كما
يستدل على ذلك من تعابير [illegible] والتشبيه الواردة في [illegible]
شعرائهم ، لم تتغير كثيراً . وقد اورد النويري جانباً منها [illegible]
من مؤلفه « نهاية الأرب في فنون الأدب » الأقوال المعروفة في
جمال [illegible] المرأة [illegible] الخيزران
[illegible] كان كاملاً [illegible] وشعرها احوده [illegible]
[illegible] والقوام [illegible] مع حمرة في الخدين ، [illegible]

كحبة عنبر في صحن مرمر . وقد تأنقوا في انتقاء السواد الشديد
دون اثر الكحل . والكمود من شحوب عيون النبي ، والحسن
شدّوا به دعجاً ستقيماً ، واسم صغيراً تترتب الأسنان فيه كعقد
اللؤلؤ في مرجانه ، و [illegible] كرمانه ، والخصر مرهفاً [illegible]
يرتدي [illegible] . والأصابع [illegible] مستدقة الأطراف مخضوبة
بالحناء .

وكان الديوان أهم قطع الأثاث في هذا الزمن وهو كناية عن
أريكة محشوة [illegible] ثلاثة جوانب من الغرفة . وكانت
المقاعد المرتفعة على شكل الكراسي مما أحدث في الدولة [illegible] ،
إلا أن [illegible] على [illegible] ، [illegible] موضوعة على الأرض
يجلس عليها [illegible] مريحاً [illegible] الى يومنا هذا .
وكانت أرض الغرفة [illegible] المنسوجة باليد . وكان
الطعام [illegible] في [illegible] واسعة مدورة على [illegible] واحدة
أمام الديوان او على الأرض [illegible] وفي [illegible] الأغنياء
كانت الأطباق تصنع من فضة ، والأخرى من الخشب المطعّم
بالأبنوس واللؤلؤ او الصدف على غرار المصنوع اليوم في دمشق .
هذا هو الشعب العربي عشية [illegible] في شظف العيش
وخشونة [illegible] الانسان [illegible] والذي
[illegible] الأزر [illegible] وصلوا [illegible] من الخبز [illegible]
[illegible] هذا الشعب [illegible] الآن [illegible]
للطعام العربي [illegible]
الفرس [illegible] وهو مرق [illegible] من اللحم والخل ، والفالوذج

(وهو صهباء) واصبح وجهه مثل الخمر المعتق والنور وأسفى
الخشب . وجرت مدراه في جنيف حرقة نسمع ونحن نحتسيه فوائد
انه أثبات فيه السكر ومقاومة المسمم والبرد والورد او
معطر شوب . أما القهوة فلم ينتشر استعمالها حتى القرن الخامس
عشر ، وكذلك الشمع فلم يعرف قبل اكتشاف العالم الجديد .
ونجد في « كتاب الموشى » لمؤلفه من ابناء القرن العاشر وصفاً
للرجل الظريف الاديب في ذلك العصر . فالظريف كان يتحلى
بالأدب الجم والمروءة والكياسة ، يترفع عن المزاح ، ويتحرز من
الصلاح ، يكره الكذب ويصدق الحديث ، ويفي بمواعيده ،
ويكتم السر ، ويرتدي الثياب النظيفة التي لا رقع فيها . وهو
اذا جلس على مائدة حفظ لقمه صغيرة ، ولا يكثر من حديث
والكلام ، ولا يسرع في مضغ الطعام ، ولا يلعق أصابعه ، وهو
يتجنب الثوم والبصل ، ويتحاشى استعمال مسواك الأسنان في
الخلاء والحمام والمجالس العامة وعلى قارعة الطريق

وقد عرف الناس في الشراب سراً وعلناً ، ويستدل من
قصص الف ليلة وليلة ، ومن الاغاني ، ومواضع من
كتب الادب والشعر ومن الخمريات التي خلفها الشاعر ابو نواس
ان تحريم الخمر الذي نص عليه الاسلام لم يلق نجاحاً اكثر مما
لاقى قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة . فقد شرب الخمر
الخلفاء والوزراء والامراء ولعبت بعقول بعضهم حتى صرعته في الحال .
وكان احب الخمور عند العوام المصنوع من عصير التمر

وكانت معروفة منذ الخلافة حفلات تسمى « مجالس شراب » أنس

إليه القوم . فكان المغنون وصبيانهم يحضرون جميعاً بمسك أو ماء
الورد ويرتدون أثواباً خفيفة مصبوغة زاهية الألوان، وإرجاء لعرقة
مصبوغ فيه رائحة العنبر والندّ المشتعل . وكانت أكثر المغنيات
اللواتي يحضرن هذه المجالس من النساء الخليعات كما تشهد بذلك
القصص الكثيرة . فكان أكثر نفقة على أخلاق شباب ذلك العصر .
ووجدت عامة الشعب إلى الخمر في الأديرة ، وفي حانات خاصة كان
يديرها على العادة يهود . وكانت تجارة الخمر في الجملة في أيدي
النصارى واليهود .

وانطلقت من الأمثال ، حدث سوى لا يزال شائعاً على الألسن
في البلدان الإسلامية . ولم يكن في الجزيرة العربية حمامات في عهد
من محمد الذي قيل إنه استكرهها ولم يبح لأحد دخولها إلا
بمئزر وعلى شرط أن يكون مستوراً . وفي هذا العصر الذي نؤرخه فقد
كثرت الحمامات العمومية وراح الناس يعدّونها مواضع للهو
والترف أيضاً . وأخيراً للصحة ودخولها في أيام معيّنة . وقد حصرت
ببغداد في أوائل القرن العاشر سبعة وعشرون ألفاً من هذه الحمامات
العمومية ، وكانت في زمن آخر ستين ألفاً . وهذان الرقمان
وسواهما من الأرقام التي نجدها في المصادر العربية لا ريب مبالغ
فيها . أما الرحالة العربي ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧
فإنه شاهد في الجانب الغربي من المدينة ثلاث عشرة محلة ، كل محلة
فيها حمامان أو ثلاثة من أبدع الحمامات مجهزة بماء الحار والبارد .

وكانت الحمامات يومئذٍ مثلها اليوم تحتوي خلوات كثيرة
مرصوفة بالفسيفساء ، مُطلي نصف حائطها بما يلي الأرض بالقار

والنصف الآخر الأمامي يخصّ الصحن الناصع ، ووسطه حول ردهة واسعة عليها قبّة فيها ثقوب للنور . وفي كل حجرة حوض من الرخام فيه انبوبان للماء الحار والبارد . اما الغُرف الخارجية فمُخصّصة للاتّكاء والاستراحة وتناول المشروبات والاطعمة الخفيفة .

والالعاب الرياضية ، كالفنون الحربية ، كانت في كل عصور من ميزات المدنية الاوربية الحديثة اكثر من القديمة . فان الصحراء المحرقة تعتبر الرياضة الجسمية في حدّ ذاتها امراً شاقاً يتطلّب جهداً لا يتلاءم مع حرّ الشمس الذي يتعرّض له في بدوه . ومن الالعاب الرياضية التي مارسها العربي في الخلاء : الرماية والحركات (لعبة فارسية معروفة عند معظمهم وهي « البولو ») والصولجان ولعب السيف والترس والجريد وسباق الخيل ، والصيد وهو اهمّ جميعاً . ومن الالعاب التي يجب أن تُذكر في المقدمة امثالها في الرماية والصيد ولعب الكرة والشطرنج . وفي كل هذه الالعاب لم يكن من حرج على النديم فيما اذا ساوى سيده . ومن الخلفاء المغرمين بالحركات المعتصم . وقد جعل يوماً الافشين قائده التركي في جهة وأقام هو في جهة مستقبل الافشين مثلاً : « لا أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل » . وهناك اشارات الى لعبة الطبطاب وهي خشبة عريضة يُلعب بها ولعلّها لعبة « التنس » في شكلها البدائي . والراجح ان اشتقاق اسم هذه اللعبة يرجع الى بلدة « تنّيس » في الدلتا من اعمال مصر التي اشتهرت في العصور الوسطى بصنع القماش المعروف بهذا الاسم

ويدل على شيوعه [illegible] من اللهو ما نجده في

كتب قديمة تبحث في موضوعات الجنس ووصف الشراب وترويح

الروح. وقد دخل [illegible] الحياة ونوع [illegible] واستعبدهم للحمداني

خروجه عن طريق [illegible] كما تشير الألفاظ المستعملة [illegible] وشعب

على المختصين في أواخر عهد الخلافة وفي عصر الحروب الصليبية

ولا يزال الناس في فارس والعراق وسوريا [illegible]

[illegible] على الفرقة الموجودة في [illegible] سنة [illegible] وعلى [illegible]

[illegible] أي [illegible] فرنسية قبل [illegible] ولا [illegible] أكثر.

وكان الخصيان [illegible] عسكري [illegible] أصحاب الكلمة

[illegible] شؤونهم [illegible] الموظفين ومن لا [illegible] من [illegible]

[illegible] واحد [illegible]

وكان أكثر الخدم من [illegible] عن [illegible] يؤخذون [illegible]

يؤسرون في الحرب [illegible] في [illegible] الترك [illegible]

وآخرون من الصقالبة وكان معظم [illegible] من السودان

و[illegible] الأحباش والروم والبربر [illegible] الخصيان [illegible]

بخدمتهم [illegible] وفيهم الخصيان أيضاً وكانوا موضوع

عناية خاصة من أسيادهم لدى [illegible] على طراز [illegible]

وجعلوهم يترنمون ويتغنون إلى درجة التخنث. وإذا كانت بعض

الكتب قد أشارت إلى وجود الغلمان في عهد الرشيد فالراجح أن

الأمين كان أول من أنشأ نظام الغلمان في العصر العربي لغاية اللواط

[illegible] ولقد عاش في زمن المأمون [illegible]

[illegible] غلام [illegible] حسان الوجوه كانوا [illegible] ولم يستنكف

الشعراء كأبي نواس من نظمه في الغزل [illegible] ومدح [illegible] والمجاهرة
بحبوهم الجنسية الشاذة

واتخذ سراة القوم الجواري من مختلف الأقوام معشوقات
وراقصات وسراري . وكان بعضهن ذا تأثير محسوس في سادتهن من
الخلفاء ، كما حدث للجارية التي اشتراها الرشيد [illegible] ثم وهبها
[illegible] ذات يوم [illegible] وعتق [illegible] جارية اخرى
[illegible] زوجة [illegible] عشر [illegible] ، فولدت له احداهن
المأمون واخرى المعتصم . وكانت بعض هذه الجواري من المثقفات
الراسخات القدم في العلم والأدب [illegible] في
[illegible] الرشيد [illegible]
[illegible] الموهوبة [illegible] تفوق [illegible]
[illegible] في الطب والفقه والحديث والفلسفة والموسيقى والرياضيات
فضلا عن علوم المعاني والبيان والنحو والشعر والتاريخ والقرآن
ويعرف عن الأمين انه [illegible] من الجواري الحسان فقص
شعورهن وألبسهن [illegible] وكسا رؤوسهن بالعمائم الحريرية
[illegible] بالغلاميات . وقد راجت سوق هذه البدعة بين خاصة
ولمة من الناس . ويروى [illegible] على المأمون في
أحد الأعياد [illegible] عشرين وصيفة [illegible]
بالديباج يرقصن وفي أعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن أغصان
الزيتون [illegible] حتى [illegible] لرقصهن من
الخليفة بأن يوزع عليهن ثلاثة آلاف دينار .

ويقول بعض المؤرخين انه كان للمتوكل اربعة آلاف سرية

شاطرن فراشه وهو قول يصعب تصديقه . وجرت سنّة العمّال والقوّاد عادة اهداء الخليفة او الوزير هدايا تشتمل على الفتيات اللواتي يأخذونهن من الرعية وإلاّ حسب الخليفة تخلّفهم عن ذلك علامةً العصيان .

وكانت عامة الناس مؤلفة من طبقة عليا تلي بعض مزايا الارستقراطية وفيها الادباء والعلماء والفنّانون والتجار والصنّاع واهل المهن الحرّة ، وطبقة سفلى مؤلفة من سواد الشعب وهم الفلاّحون وزرّاع المواشي وأهل الرّيف وهؤلاء اهل البلاد الأصليون الذين اصبحوا الآن اهل الذمّة . ثم ان اتساع نطاق الامبراطورية وما وصلت اليه من غنىً في المدنيّة قضى بنشوء تجارة عالمية واسعة تقلّد زعامتها اول الامر النصارى واليهود واتباع زرادشت ، لكن المسلمين بعدُ قليل تفوّقوا فيها ، لانهم لم يزدروا التجارة بقدر ازدرائهم الزراعة . وما لبث ان اصبحت مرافئ بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية مراكز نشيطة لتجارة البرية والبحرية .

وقد توغّل التجار المسلمون شرقاً حتى الصين فحملوا الحرير الصيني للتاجر ، وهو أهمّ ما أتحف به الصينيون العالمَ العربي وقد سلكت هذه التجارة طريقاً عُرفت بطريق الحرير العظيمة ، مارّة بسمرقند وتركستان الصينية التي قلّ من طرقها من المسافرين والسيّاح حتى اليوم . وكانت هذه البضائع تُنقل مرحلةً فمرحلة . وقلّ من القوافل ما قطع هذه المسافة كلها دون تبديل في الرّواحل .

وبلغت تجارة الاسلام مراكش واسبانيا غرباً . وقد فكر الرشيد بحفر قناة السويس قبل دي لسبس بألف سنة . ولكن العرب لم يبرزوا في ميدان بحرية البحر المتوسط ولم تمل تجارهم على شواطىء البحر الاسود ملاحاً ، مع ان القرن العاشر شهد لهم تجارة نشيطة في اتجاه الفولكا شمالاً . وكانت تجارتهم على شواطىء بحر قزوين نشيطة جداً تقربها من الاوساط الفارسية ومدن سمرقند وبخارى العامرة وغيرها من المدن الماهولة الآهلة بالسكان . وكان التجار ينقلون محاصيل التمور والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والادوات الفولاذية والاواني الزجاجية ثم يعودون ومعهم امتعة كثيرة من التوابل والكافور والحرير من اقصى آسيا ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من افريقيا .

اما بعض الثروات في ذلك العصر فكانت لا تقل عن ثروات ملوك المال في عصرنا هذا . ولا ادل على ذلك من حكاية ابن الجصاص الجوهري ببغداد وما خلفه من الثروة بعد ان صادر الخليفة المقتدر املاكه ستة عشر مليون دينار ، وهو اول مثر في اسرة اشتهرت بعده بتجارة الجواهر . وكان الدخل الفردي لبعض تجار البصرة الذين نقلوا تجارتهم وصنائعهم الى الاصقاع النائية ينيف على مليون درهم . واشتهر في بغداد والبصرة تاجر ارز صاحب مطاحن بصدقته اليومية على الفقراء تبلغ مئة دينار . وكان التاجر العادي في سيراف ينفق على داره اكثر من عشرة آلاف دينار في حين ينفق غيره من التجار ثلاثين الفاً . واثرى الكثيرون من تجار البحر فبلغت ثروة الواحد منهم اربعة ملايين دينار

ولولا [illegible] [illegible] [illegible] لبلغ التوسع التجاري
هذا المدى. فقد نبغت في كثير من الجهات الأمصار [illegible] صناعة النسيج
وانحصرت في أسر معروفة صناعات حاكة السجاد والبسط والصوف
والأطلس والأقمشة المطرزة والأثاث و[illegible] [illegible] وغيرها من
قطع الرياش وأواني الطعام. واشتهرت دور الحياكة في فارس
والعراق بصنع السجاد والمنسوجات المطرزة. وكانت لأم الخليفة
المستعين سجادة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] منه [illegible] مليون
درهم، وعليها صور [illegible] [illegible] الذهبية ذات عيون من
الياقوت وسواه من الأحجار الكريمة. وكان في [illegible] [illegible] يسمى
بالعتابي نسبة إلى أمير أموي كان من [illegible] [illegible] النسيج
المخطط مصنوع منه [illegible] لأول مرة في القرن الثاني عشر
يعرف [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible]
حياكته حتى اشتهرت [illegible] [illegible] في فرنسا وإيطاليا وسواهما من
الأقطار الأوروبية [illegible] [illegible] اللغة الإنكليزية التي [illegible] [illegible] هذه
اللفظة على القطعة المخططة [illegible] [illegible] [illegible] الحريرية
[illegible] [illegible] وهي المعروفة اليوم بهذا [illegible]. وكان في [illegible]
والموصل [illegible] [illegible] (موسلين القديمة) [illegible] [illegible] شهيرة [illegible]
الدمقس (وهو نسيج [illegible] أصلا في دمشق) [illegible] [illegible]
والستائر المصنوعة من الخز. [illegible] منسوجاتهم المصنوعة من وبر الإبل
ومعزى والأردية المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كثيرة
الانتشار. وصدرت شيراز العباءات الصوفية المخططة والأقمشة
[illegible] الشعرية والمنسوجات المقصبة. وكانت [illegible] العصور

ويحتفظ الأوروبيون ببعض من الأسماء للحرير الفارسي المعروف بالتافته (وهي كلمة فارسية) .

اما زجاج حلب وصيدا وغيرهما من مدن الشام فقد ضرب المثل برقته وصفائه . ولقد عدت صناعة الزجاج هذه من المستغلات التي برعوا فيها وكانوا فيها من المتفوقين بعد الصليبيين . وعرف الأوروبيون في هذا الزجاج عن طريق الحملات الصليبية فاصبح من الأ جميع انواع الزجاج الذي كانوا يصنعونه كالشبابيك والأواني الزجاجية الملونة من صنع ... حتى خرجت من ... والزخرفة . فكثر ... في اسواق اوروبا .

ولم يعرف الغربيون صناعة ورق الكتابة الا بعد ان عرفها العرب في اواسط القرن ... من الصين عن طريق سمرقند ، وكان ورق سمرقند في الشرق عند المسلمين عام ٧٠٤ مقطع ... وفي ايام هارون الرشيد شهدت بغداد اول مصنع للورق ... . وظهر اول مصنع للورق في مصر حوالي سنة ٩٠٠ او قبل ذلك ، وفي مراكش سنة ١١٠٠ ، وفي الاندلس حوالي سنة ١١٥٠ . ثم ظهرت ضروب مختلفة من الورق من الأبيض والملون ووصلت صناعة الورق الى اوروبا المسيحية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق الاندلس وصقلية . وكان للورق اهميته الكبرى لا سيما عندما اخترعت الطباعة بالحروف المتحركة بين عامي ١٤٥٠ و١٤٥٥ اذ سهلت الآثار نشر العلم والتهذيب ... لا ... اوروبا واميركا تستمد الى اليوم ...

وانتعشت الزراعة في دور العباسيين الأوائل انتعاشاً محسوساً لأن عاصمتهم بغداد وقعت في قلب منطقة من السواد، ولأنهم أدركوا ان الفلاحة تدر على الدولة أهم موارد الدخل، ولأن حراثة الارض وحتى خراجها كان معظمه في ايدي اهل البلاد الاصليين الذين كانت قد تحسنت حالتهم وعلا شأنهم في عهد العباسيين. وعادت العمران المزارع المهجورة والقرى الخربة في انحاء الامبراطورية وقد وجهت الحكومة المركزية عنايتها خاصة الى القسم الأسفل من وادي دجلة والفرات، وهو ما يعرف بالسواد، أكثر البلاد خصباً حتى اعتبر بالفعل البقعة التي قامت فيها جنة عدن. وقد شقت بعض قنوات من الفرات تنصب منها شبكة متسعة. اما ما عرفه جغرافيو العرب عن حفر الخلفاء لاقنية او فتحهم لانهر فلا نجد به تحريراً لأن اكثر الاقنية التي ذكروها انما كانت اقنية أعاد الخلفاء حفرها او فتحها، ويرجع عهدها الى زمن ساسانيي القدماء. وقد انحصر الامر في العراق كما في مصر في حفر الاقنية الراجعة الى عهد البابليين و فراعنة. ولما عهدت الحكومة العثمانية الى السر وليم ويلكوكس قبيل الحرب العالمية الأولى درس مسائل الري في العراق أشار في تقريره بتنظيف مجاري الاقنية القديمة وبوجوب لا شق مجار جديدة ويجب ان لا يعزب عنا ان سطح الارض في السواد قد تغير كثيراً منذ ايام العباسيين، كما ان دجلة والفرات قد تحول مجراهما عما كان عليه مراراً.

ومعظم الاشجار المثمرة والبقول التي تنبت اليوم في آسيا الغربية كانت معروفة بذلك العهد مثل السلجم والعدس والطماطم

وسواها من المزروعات التي دخلت البلاد العربية في العصور
الحديثة من العالم الجديد وبعض المستعمرات الاوربية النائية . أما
شجرة البرتقال فكان منبتها الاصلي ، كالأترج والليمون الحامض ،
في شمالي الهند وشرقيها ، ومنها امتدت الى آسيا الغربية والبلدان
المحيطة بحوض البحر المتوسط ، ثم دخلت اوربا عن طريق العرب
في الاندلس . وفي هذا العصر ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل
تصفيته المشهورة في سواحل الشام على الأرجح ، المعروف منها في الجهة
الجنوبية الغربية من فارس . ومن الشام أخذ الصليبيون قصب
السكر وادخلوا معه السكر الى اوربا . وهكذا تدرجت بطريقة
الى ان هذه السلعة الثمينة التي قد يرجع اصلها الى مقاطعة البنغال
في الهند ، فاصبحت من العناصر التي لا يستغنى عنها في مائدة كل
الانسان المتمدن اليومية .

وكان معظم سكان الدولة الزنكية من صنف الفلاحين ، وهم أكثرية
الشعب واهل البلاد الأصليون وقد عرفوا باهل الذمة لانهم كانوا
قد دخلوا في عهد الإسلام . اما العربي فيستنكف عن تعاطي
الزراعة ويحسبها دون مقامه . وكان هم الكتاب في بادئ الامر ،
وهم المعروفون باهل الذمة يشملون النصارى واليهود والصابئة ثم
ألحق بهم اتباع مذاهب اخرى . وقد استمروا في أرضهم
ومزارعهم متمسكين بثقافتهم الآرامية القديمة ومحافظين على لغاتهم
الأصلية . وقد احترم المسلمون على وجه العموم جميع أهل الذمة
هذا على الرغم مما عانوه في بعض الحقب من الاضطهاد الديني .

أما في المدن فقد تقلد النصارى واليهود مناصب سامية في دوائر

الحكومة من صنعة وكتابة وغيرها من مهن . وكان هذا سيرة المسلمين وحسدهم مما ادى الى سن شرائع [illegible] . الا ان هذه الشرائع بقيت حبراً على ورق ، ولم تنفذ الا في بعض الاحايين .

وكان عمر الثاني الخليفة الاموي [illegible] اول من امر النصارى واليهود ان يرتدوا لبسة تميزهم من المسلمين ، وحرمهم مناصب الدولة . والظاهر ان هذه الأحكام [illegible] بعده الى ان جاء هارون الرشيد [illegible] . وقد [illegible] المراسيم المجحفة ضد اهل الذمة اشدها في زمن المتوكل الذي امر في سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ ان جميع النصارى واليهود على ابواب دورهم صور شياطين من خشب تفريقا لدورهم عن منازل المسلمين وان يجعلوا قبورهم لا تعلو عن سطح الارض كي لا تشبه قبور المسلمين ، وان يلبسوا [illegible] [illegible] على [illegible] من [illegible] [illegible] مختلف اللون عن لون الثوب [illegible] على ان يكون احداها بين يدي [illegible] والاخرى على [illegible] . ولم يرخص لهم بركوب غير البغال والحمير واتخاذ السروج من الخشب وبنصب كرتين على مؤخر السروج . وقد [illegible] على الواحد من اهل الذمة [illegible] الأرقط ، واعتبر هذا اللبس الذي [illegible] . ومن [illegible] الى [illegible] الذي [illegible] مشترعو الاسلام في هذه الحقبة [illegible] النصراني واليهودي لا [illegible] على مسلم [illegible] في القرآن [illegible] اليهود والنصارى [illegible] [illegible] لا يمكن [illegible]

النصارى على رغم من عهد القرون تمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر
من الحرية. ويشهد على ذلك ما تذكره المدونات من مناظرات بين
دعاة النصرانية وبين دعاة الإسلام في حضرة بعض الخلفاء من
الأمويين والعباسيين ومن جلوس بعض النصارى كرسي الوزارة في
النصف الثاني من القرن الرابع. وكان كثير من الموظفين من النصارى
[illegible] ما يلاقيه المسلمون من الإكراه والتعسف. فمن
ذلك مثلاً أن بعض المسلمين اعترضوا على بعض [illegible]
[illegible] ولا عجب أن [illegible] حدث في ظل الخلفاء من [illegible]
واحد [illegible] كان [illegible] الى [illegible] وإرسال المبشرين
الى [illegible] كالهند والصين. [illegible] في [illegible] تحول مدارس
الى [illegible] كنيسة [illegible] الى [illegible] وترجع أصولها الى
هذا العهد. وفي [illegible] من [illegible] نصراني [illegible]
عام ٧٨١ يحمل [illegible] من كنيسة [illegible]

ولقي اليهود، وهم ممن صحبوا في عهد الإسلام، من حسن
[illegible] ما لقيه النصارى [illegible] جاء في بعض
الآثار [illegible] وكان منهم في أزمنة عدد من [illegible]
غير واحد [illegible] في [illegible] في [illegible]
مستعمرة كبيرة [illegible] هذه المدينة في [illegible]
[illegible] ويروي [illegible] الذي زارها سنة ١١٧٠ أنه وجد
فيها عشر مدارس [illegible] وثلاثة وعشرين [illegible] كنيس
[illegible] الرحمة [illegible] وأدق هذا الرحالة
في وصف الاحترام الذي [illegible] من المسلمين الذين

اعتبروه سليل النبي داود ورئيس الملة اليهودية . وكان هذا الرئيس
اذا خرج للمثول في مجلس الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة
وعمامة بيضاء تشع بالجواهر ، واحاط به رهط من الفرسان وسار
امامه منادٍ يصيح بأعلى صوته : افسحوا درباً لسيدنا ابن داود .

هذه هي صورة مصغرة لحياة الناس في عهد الخلافة وعلاقتهم
بعضهم ببعض . وها نحن على عتبة المرحلة الثالثة في سلسلة الفتوحات
العربية . كانت المرحلة الأولى هي المرحلة الحربية السياسية ، وكانت
المرحلة الثانية هي المرحلة الدينية التي ابتدأت في القرن الأول من
حكم العباسيين واعتنق خلالها السواد من سكان الامبراطورية الدين
الاسلامي . ثم مرحلة ثالثة التي سنبحث في الفصول التالية فيتمثل
فوز اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة . إلا ان هذه المرحلة
كانت ابطأ المراحل ، اذ ابدت فيها الشعوب المغلوبة اشد مقاومة ،
مما يدل على انه اسهل على الناس التخلي عن كيانهم السياسي وعن
ديانتهم منه الامر في التخلي عن لغاتهم .

والواقع انه حتى العربية الاسلامية كلها عجزت عن ان تمحو ما
الاستعمار كلمة بالعصب . ولقد لاحظنا في الفصل السابق كيف
سرعت تجري التفكير في الثقافات الرومية والفارسية والهندية التي
عملت في القرن التاسع فحدثت نسبياً تطور ثقافة جديدة . وبهذا
اصبحت اللغة العربية اداة للتعبير عن الثقافة العربية فكان ذلك بدء
العصر المشرق الذهبي في الاسلام

العلوم والآداب

وصلت الآن إلى الحقبة التي أصبحت فيها اللغة العربية ذات التعبير عن العلوم المستحدثة كالطب والفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات فضلاً عن الفلسفة والتشريع والأخلاق والأدب . وقد ابتدأت هذه الحقبة في النصف الثاني من القرن الثامن على أثر عصر الترجمة الذي دام نحو قرن (٧٥٠ – ٨٥٠) فحدثت طبقة من أعلام العلم والأدب الذين نحوا منحى ذاتياً ، وكثير من مبتكراتهم والذين لا يعرف الناس اليوم منهم إلا معدودين .

لم يكتف العرب بالنقل والاقتباس بل عمدوا إلى التكييف والتجديد . فهم لم يقفوا عند تراث فارس العلمي وتراث اليونان العلمي على ما كان عليه بل حوروا الجزء الذي يوافق حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم . وبعد أن صبغوا ما ترجموه بطابع العقلية

العربية في خلال قرون عديدة الى حين [illegible] افكاره الى اوربا عن طريق سورية واسبانيا وصقلية ، فالفكر الفلسفي العربي الذي كان له الفكر الاوربي في القرون الوسطى ، على [illegible] من الافكار والعلوم بين في [illegible] الثقافة بحد ذاتها من الافكار فلاسفة كبار ارسطو وجالينوس وبطليموس فقدمت لاهل العلم اسماء وكتب [illegible] ونشر في [illegible] الاصل [illegible] وقد [illegible] بين المترجم والمفكر [illegible] المترجمين من كان مترجماً ومفكراً في وقت معاً

وكانت مبتكرات العرب في الطب والرياضيات والفلك والجغرافية والكيمياء ، فضلا عن [illegible] والشعر والأدب . واعتنى العرب بعلم الصيدلة عناية [illegible] الحديث سوي المشهور [illegible] العرب [illegible] من [illegible] [illegible] وقد [illegible] الحساب العربي الى [illegible] العربية [illegible] الفلسفة والحكمة . وخطا العرب في هذا العلم خطوات واسعة في الاستدلال على العقاقير [illegible] من [illegible] وخواص [illegible] الادوية ، وقد [illegible] من [illegible] مدرسة للصيدلة ، [illegible] في الاقراباذين رسائل . وكان [illegible] من [illegible] والاطباء [illegible] من [illegible] والمعجم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حرى من [illegible] وهو الخبير المقيم سنة ٩٣١ [illegible] [illegible] ورقة ، وهو كتاب مشهور [illegible] كل [illegible] [illegible] لاجراءات طبية من [illegible] الاهمية فقط [illegible] الاطباء في بغداد [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] من

المتنقلة . وقد نص على ذلك [illegible] أمره علي بن
عيسى الوزير في عهد المقتدر من ارسال بعثات من الاطباء تحمل
الأدوية وتطوف نحو بلاد [illegible] المرضى والمعوزين . وكانت فئة
من الاطباء تتفقد السجون يومياً من هذه الخلائق [illegible] لهم
[illegible] وهو امر لم يكن معروفاً في ذلك العصر
العام آنذاك . وفي مجتمع الغرب [illegible] الرشد ولا
مستشفى في الاسلام على [illegible] ثم [illegible] حتى
نشأ في العالم الاسلامي [illegible] مع عددها [illegible]
ومنها [illegible] القاهرة [illegible] في [illegible] حوالي
عام ٨٧٢ ميلادي الى القرن الخامس عشر [illegible] السائرة
فقد ظهرت [illegible] في القرن الحادي عشر . وكان في المستشفيات
الاسلامية [illegible] وكان لكل مستشفى [illegible]
خصوصية [illegible] وكان [illegible] ويقوم مدرسون بعض
الموضوعات الطبية .

واشهر الاطباء في [illegible] على [illegible] العرب رجال
[illegible] للطب . ولاسيما منهم [illegible] الرازي وابن
سينا [illegible] في مدرسة الطب في
باريس .

وعن الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥) أعظم الأطباء ، وأشدهم
ابتكاراً وأكثرهم [illegible] في الاسلام [illegible] في القرون
الوسطى [illegible] ويروى أن الخليفة استشاره في الموضع الذي
يجب أن يبني فيه مستشفى بغداد العظيم الذي كان هو رئيس اطبائه .

فرأى أن يعلّق في كل ناحية من نواحي بغداد شقة لحم ثم اعتبر
الناحية التي لم يتغير ولم يتعفن فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يُبنى
المستشفى فيها . وإلى الرازي ينسب اختراع الفتيلة في الجراحة .
ومن أهم ما وضعه في الكيمياء « كتاب الأسرار » الذي تداوله
فيما بعد أيدي محررين عديدين . ولقد نقله إلى اللاتينية جيرارد الكريموني
Gerard of Cremona فظل مرجعاً رئيساً لعلم الكيمياء حتى القرن
الرابع عشر . واقتبس منه الفيلسوف الانكليزي المعروف روجر
بيكون Bacon . أما رسالته الشهيرة رسالته في « الجُدَري والحصبة »
وهي أقدم ما كتب في هذا الموضوع ، وتُعدّ تحفة في علم الطب
عند العرب . ولقد نشرها الدكتور فانديك في بيروت عام ١٨٧٢
بيد أن أشهر مؤلفاته على الإطلاق « الحاوي » وهو كتاب جامع
نقله إلى اللاتينية فرج بن سالم الإسرائيلي سنة ١٢٧٩ بعون ملك
صقلية . وقد طبعت هذه الترجمة مرات ، وفي عام ١٤٨٦ في حين
ظهرت طبعته الخامسة في البندقية عام ١٥٤٢ . وللكتاب كما يدل
اسمه موسوعة طبية حوت خلاصة ما كان في حوزة العرب من
المعارف المستقاة من المصادر اليونانية والفارسية والهندية مع ما جاء
به العرب أنفسهم من الابتكارات الخاصة الطريفة . ولقد ظلت
مؤلفات الرازي هذه — التي طبعت باللاتينية لما كانت صناعة الطباعة
لا تزال في بدء عهدها — تسيطر على عقول العلماء في الغرب قروناً
عديدة .

• وأشهر الأطباء العرب بعد الرازي ابن سينا ، وقد امتاز
بمواهب باهرة فنبغ في الطب والفلسفة والشعر والفقه . وألف كتباً

ورسائل كثيرة في هذه العلوم وغيرها . وقد نالت مؤلفاته ورسائله الطب شهرة واسعة ، ولعل أهم مؤلفاته « القانون » في الطب ، فقد كان موسوعة جامعة احتلت مقاماً سامياً في آداب ذلك العصر الطبية وأصبح كتاباً مدرسياً يعتمد عليه دارسو الطب في أوربا . وفي ثلاثين السنة الأخيرة من القرن الخامس عشر صدر « القانون » في خمس عشرة طبعة لاتينية وطبعة عبرانية واحدة . وقد نقل بعضه حديثاً الى اللغة الانكليزية . ومما يدل على سعة معلومات « القانون » أن قسماً منه بحث في نحو ستمائة وستين من العقاقير والأدوية . فلا عجب اذا أدرك هذا الكتاب ثبت أمره الى أن أصبح دليل طلاب العلوم الطبية في الشرق والغرب حتى القرن السابع عشر . ولا يزال الناس في الشرق الاسلامي يستعملونه أحياناً .

وأول عمل جدير بالذكر للعرب في علم الفلسفة هو التوفيق بين فلسفة اليونان والفكر الاسلامي . والفلسفة عند العرب هي معرفة حقائق الامور كما هي على قدر ما تستطيع الوصول الى تحقيقه قوى الانسان العاقلة . وهذه النظرة الفلسفية يونانية في جوهرها أخذها العرب بعد أن كانت قد حورتها ترجمات الشعوب المغلوبة وسواها من الشعوب الشرقية فتلقوها عن موالي الاسلام العقلية وشروحها عن طريق اللغة العربية . ووجد العرب أن مؤلفات أرسطو تحوي مجمل التراث الفلسفي اليوناني كما تحوي مؤلفات جالينوس مجمل تراث اليونان الطبي . واعتقدوا أن القرآن وعلم الأحاديث الاسلامي حويا مجمل الشرع والاختبار الديني . فشحذوا أذهانهم وأعملوها في الهامش المشترك بين الفلسفة وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب ، فاجتهدوا

العالم بمبتكرات قيمة . وقد مجد الاسلام في عصوره الوسطى [illegible]
انه كانوا اول من نجح في وضع [illegible] فكري في التوفيق بين
فكرة التوحيد [illegible] الاعتقاد بالتوحيد وهو اسمى ما جادت به العلم
السمى القديم [illegible] والفلسفة اليونانية التي كانت اسمى ما جادت به
العقل البشري الاوربي القديم [illegible] وهذا اشد الاسلام اوربا المسيحية
في الطريقة الحديثة في العلم والأدب

وكان العلم في العصور الوسطى ، ولاسيما في العالم الاسلامي ،
اي تجربة واحدة [illegible] فالفيلسوف مثلا قد كان
رياضيا وموسيقيا ايضا والفلكي قد يكون شاعرا [illegible] ومن الغريب
الذي يجب [illegible] ان كثيرا من علماء [illegible] كانوا شعراء ادباء ومفكرين
[illegible] ان ابن عمر كان رياضيا بارعا [illegible]
والكندي الفيلسوف العربي المشهور لم يكن فيلسوفا فقط بل
كان عالما بالنجوم والكيمياء والطبيعيات وعلوم الموسيقى ، وقد
سعى [illegible] الفلسفة والاصول [illegible] في مزج آراء
افلاطون وارسطو والبوذية معا ، [illegible] التي جمعتها
مدرسة فيثاغورس [illegible] الاخلاق . وقد نسب
الى الكندي ما لا يقل عن ٢٦٥ كتابا اكثرها مفقود . ومن كتبه
التي انتشرت في الشرق والغرب مؤلفه الفريد في علم المخروطات وهو
يستند الى مؤلف [illegible] في هذا العلم وكان ممن ترجم هذا الكتاب
روجر بيكون . ويستدل من رسائل الكندي في الموسيقى ان
العرب عرفوا الأوزان العلمية والقياسات الموسيقية قبل ان عرفتها
اوربا المسيحية بقرون .

وحدثت ترجمة أبحاث مهمة في الفلك عن كتب هندية

السدهانتا التي جاء بها إلى بغداد في عام ٧٧١ . وفي مطلع

القرن التاسع نشأت أول مراصد استخدمت فيها آلات دقيقة

الصنع تستعمل في جنديسابور من عهد الفرس احتوته العربية

وقبل منتصف هذا القرن شاد الخليفة المأمون مرصداً في بغداد

وآخر في ضواحي دمشق . وقد جرب الراصدون في تلك الأيام آلات

من مقاييس الارتفاع والأسطرلاب وغيرها تشبه ما هو لنا ؛

وكرة . وقد أجرى فلكيو الخليفة المأمون عملية من أدق العمليات

الجغرافية وهي قياس طول درجة أرضية ، ورموا بذلك إلى تحديد

حجم الأرض ومحيطها على افتراض أن الأرض مدورة . والقياس

الذي أجروه في سهل سنجار شمالي الفرات وكانت نتائجه قريبة من

تقدير ذلك أن مسحه جعلت درجة العرض ستة وخمسين ميلاً عربياً

وثلثي الميل وهو رقم لا يزيد على الرقم الصحيح سوى ٢،٨٧٧ قدماً .

وكان على رأس العلماء الفلكيين الذين ساهموا في هذه العملية

الخوارزمي ، وهو من أشهر رجال العلم في الإسلام ، وقد ترك أثراً

بليغاً في الفكر الرياضي لم يتركه غيره في العصور الوسطى . وفضلاً

عن قيامه بجمع جدول فلكي (زيج) ووضعه فقد ألف أهم

كتاب في الحساب وآخر في الجبر ، حساب الجبر والمقابلة ، وكلاهما

منقول إلى اللاتينية . وبقي مؤلفه هذا في الجبر كتاباً مدرسياً

رئيساً للرياضيات في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر .

وبواسطته تعرفت أوروبا بمبادئ علم الجبر وبقي معه هذا الاسم

الذي اقتبسته كل اللغات الأوروبية عن العربية . وإلى مصنفات

الخوارزمي حقاً يعود الفضل في نقل الأرقام العربية التي يسميها الغرب الأرقام العربية دلالة على الأصل الذي أخذوها منه أي العرب.

وكان أعظم ما أسداه العرب في العلم بعد الطب والفلك وارتبطت مآثرهم في علم الكيمياء الذي دخل لفظه باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية فهي مدرسة الكيمياء ووضعوها من العلوم التجريبية أدخل العرب التجربة الموضوعية، وهي خطوة تحسب رائدة على مقالات اليونان العقيمة لا أدل على ذلك من اقدامهم على ملاحظة الظواهر بدقة وجدّهم في جمع الحقائق وحذرهم من تعميمه في رسم النظريات بدقة واستخراج نتائج علمية عميقة، فكان هذا حجر الأساس في تفوق عباقرتهم.

وكان أبو الكيمياء العربية جابر بن حيان الذي لمع نجمه في الكوفة حوالي ٧٧٦ وقد وجه جابر همه إلى ما شغل أسلافه في العلم من مصر واليونان وهو محاولة تحويل المعادن الخسيسة مثل الحديد والنحاس إلى ذهب أو فضة بواسطة مادة غامضة ظل يبحث عنها أسماها الإكسير وحجر الفلاسفة في [illegible] الكيمياء [illegible] ولكنه في بحثه حقق خطوات واسعة في سبيل الكيمياء الحديثة من تجربة الفحص والعملية ونسب إليه الرواة العرب العديد من الكتب في مواد [illegible] كيمياوية لم تذكرها المخطوطات العربية [illegible] والمؤرخون [illegible] من المؤلفات المنسوبة إليه ويعتبرون أن أكثر الكتب المنسوبة إليه تحمل اسمه في المصادر العربية لا أساس لها. ومهما يكن الأمر فهذه

الكتب المنسوبة اليه فأصبحت بعد القرن الرابع عشر أشد كتب
الكيمياء تأثيراً في اوربا واسيا . ومن المؤكد ان بعض الحقائق
العلمية حول الكلس تحويل المعادن الى مسحوق او رماد
بواسطة الاحتراق والتصعيد وقد جاء ذكر في اساليب التبخير
والتصعيد والتقطير والتبلور وعرف طريقة تحضير الحامض
الكبريتي المركز وحامض النتريك المركز وعول على مزاج
الماء الملكي وهو مزيج النتريك والهيدروكلوريك من خواصها الذي
يمكن اذابة الذهب والفضة فيه . وعلى العموم فانه عدل نظرية
ارسطو في تركيب المعادن على اساس مما ادخل عليه تغييرات
كبيرة الى اوائل عصر الكيمياء الحديث في القرن الثامن عشر

ولما اتجه العرب الى دراسة الجغرافية حول العالم
فرضه الحج وتوجيه القبلة نحو مكة في الصلاة وضرورة معرفة
العلماء للاتجاه الذي يوجب عند الصلاة وجهة شطر مكة . كما ان
علم الفلك الذي يعطي حدود الطول والعرض لكل موقع
في الارض جعلا يدونه على الاهتمام بالجغرافية ... ان تجار الاسلام
كانوا قد عبروا في القرن السابع والثامن الى الشرق برا
وبحرا ، واتجهوا الى جزيرة ... شواطئ افريقيا الشرقية ،
ووصلوا في ... وهم عرضة للامواج
وبحر ... الاسكي فكان للاخبار التي عددناها
تأثيرها في اثارة اهتمام العلماء بالاطلاع على البلدان القصية
والشعوب الغريبة ... الجغرافية تستمد الى الغربية
مراراً من الموسوعة مشيرة ومن المرجعات ... وغيب ...

الخوارزمي الذي أصبح في ما بعد مرجعاً عظيماً لصورة الأرض ؛
ساهم في رسم نسخة وصورة عنها . وهي أول خريطة في الإسلام
تظهر السموات والأرض . وكان أول عمل في العرب قد أخذوا
عن الهند فكرة القول بأن للعالم مركزاً أسموه « أرين » مركز
الحكمة وسمي « أوزين » في جغرافية بطليموس . وهو مدينة
هندية قام فيها مرصد فلكي على خط صفر الطول [illegible] قبة الأرض فيه ؛
وأن « أرين » هذا كان هو على خط الاستواء بين طرفي الشرق والغرب
وكانوا يعتقدونه بداية خط الطول في الغرب [illegible] على بعد تسعين
درجة من هذه القبة الوهمية . وأعطى جغرافيو الإسلام عناية فائقة
لخط الطول ابتداء من خط الطول الأول الذي [illegible] بطليموس ،
وموقعه في الجزائر المعروفة اليوم بجزائر الكناري .

وكما اعتمد كتاب العرب على أصول الفلسفة [illegible]
الكون كذلك اعتمدوا على الأصول [illegible] في التاريخ والإنشاء
الأدبي . [illegible] التعبير [illegible] من طريقة رواة الحديث
الإسلامي ، بمعنى أن كل حادثة كانت تروى بسلسلة الإسناد من شهود
العيان والمعاصرين ثم [illegible] الحوادث الى أن تصل الى راويها الأخير
وهو مؤلف الذي يذكر سلسلة الإسناد كلها . وقد ساعد هذا على
ضبط الحوادث وتعيين تواريخها بالشهر واليوم . ولكن مقياس صحة
الرواية كان يقوم عندهم على مواصلة الأسانيد وعدم انقطاعها وثقة
رواتها أكثر مما يقوم على نقد الواقعة ذاتها وتمحيصها . ثم أخذ
المؤرخون [illegible] المطولات [illegible] بتحليل
هذه المطولات ونقدها [illegible] وتمحيصها كان قليلا

ومع ان مؤرخي العرب اعتنوا كثيراً في حديث ذلك الزمن

فان فحص مع حيث التاريخ كحب المحدثين في الحديث او علم العقائد

الدينية. وفي خلال مدة القرون والنصف الى عقب وفاة محمد

ازدادت الاقوال والاخبار المنسوبة اليه التي تحتاج الى التمحيص بسبب

ومرور مدة. وكان كلما نشب خلاف في الاسلام بين فرق

وفرق سواء كان دينياً او سياسياً او اجتماعياً، تحاول كل من

الفرق ان تؤيد دعواها بكلمة نسبت الى النبي او حكم صدر منه حجة

كانت هذه الكلمة او هذا الحكم او ملفقة.

ولكن حدث بسبب الاسناد والمتن والاسناد

وعلم ذلك الاقتصار على الطرق: حدثني فلان قال حدثنا فلان

عن فلان عن فلان عن فلان قال ... وهذه الطريقة حسب درجة عنها

المؤلفون في كتب التاريخ والادب. وفي كل هذه الموضوعات كان

النقد عنده محصوراً في البحث عن صدق الرواة.

ولم يكن في القرون الوسطى عند الرومان احد غير العرب

في علم الشريعة فانشأوا نظاماً مستقلاً. والفقه عندهم مبني في

الدرجة الاولى على القرآن والسنة، اي الحديث، ولا شك في انه

تأثر بالقانون الروماني. وبواسطة الفقه تحدد الشريعة، اي

اوامر الله المعلنة في القرآن الموضحة في الحديث، للاجيال

اللاحقة.

وقد وضعت الشريعة الاسلامية نظم الحياة من وجهاتها

الدينية والسياسية والاجتماعية وحددت علاقاته الروحية والمدنية

وشؤونه مع غيره من المسلمين كذلك ادب السلوك بصدد تحقيق

والمعنى من [illegible] الشريعة الى تقسيم أفعال الانسان الى خمسة ضروب هي (١) الفرض أي ما أوجبه الله بنص قطعي يجزى فاعله خيراً ويعذب تاركه (٢) المستحب [illegible] يجزى فاعله ولا يلام تاركه (٣) المباح (٤) المكروه الذي [illegible] ولا يعذب مرتكبه (٥) الحرام الذي يعذب فاعله.

والمؤلفات في علم الأخلاق [illegible] على العرب والعجم [illegible] كثرت . ولا نستطيع كل ما في الأدب العربية من [illegible] هذا العلم (الأخلاق) . وكانت هذه المؤلفات الأخلاقية [illegible] معينة كالزهد في الدنيا والقناعة والتحمل وتجنب الرذائل علاوة [illegible] نفسية بحيث يصبح الفرد المسلم موصوفاً بأخلاق [illegible] الجسم ما ترتب [illegible] تخيل القوى الحسية ويخرج [illegible] كل قوة من [illegible]

ثم أدب اللغة العربية القصصي فقد [illegible] حوالي العام الألف الميلادي [illegible] وهكذا [illegible] والقصص [illegible] التي [illegible] الأولى [illegible] أسلوب الرواية والأدب [illegible] على السجع . ومن أدب هذه اللغة [illegible] كتابا واحدا [illegible] هو كتاب ألف ليلة وليلة وأصله قصص فارسية قديمة نقلت الى العربية [illegible] المتوفى عام ٩٤٢ إلا أن القصاصين [illegible] أضافوا اليه قصصاً أخرى كثيرة كما أضافوا [illegible] شهرزاد . وعلى [illegible] حكايات كثيرة جديدة

[illegible] ومصره وشرقه

[illegible] أيضاً نوادر ونكات

[illegible] مجموعة [illegible]

[illegible] حتى القرن

الرابع عشر [illegible] هو في الغرب

[illegible]

وفي [illegible] في شكله

[illegible] في العلم والأدب [illegible]

[illegible] مطبوعة في [illegible]

[illegible] الإسلامية [illegible]

[illegible] كان [illegible]

القرن [illegible] عشر [illegible] في علوم

[illegible] والنجوم

[illegible] ذلك [illegible]

سواء في [illegible]

[illegible] على

[illegible]

الفنون الجميلة

شأن العربي في الفنون الجميلة كشأنه في سائر نواحي عقله في
فنه وشعره عنده سذاجة ودقة وتقصير للتفحص و سذاجة عما هو
نفسي موضوعي ، ولكنه بعيد عن المقدرة على موازنة الأجزاء
المختلفة وضمها وتنظيمها في كيان واحد شامل . وجهوده في
الفنون كجهوده في العلوم لم تصل الى حد من الارتقاء معتبر ،
وذلك في القرون العشرة [illegible] الهندسة
المعمارية والتصوير وغيرها .

والعصر الاموي خلّد في بنائين بعدّان من أبدع ما أبقاه
الفن الاسلامي وهما المسجد الاموي في دمشق وقبة الصخرة في بيت
المقدس . ولكن حروب الائمة الرائعة التي أرادت بغداد في
العهد العباسي ، فلم يبق اليوم من أثر حلاوته المدرسة المستنصرية .

التي شهدها الخليفة المستعصم سنة ١٢٣٦ وهي أسوأ مصرع
للكبرياء وخراب الذي حل بالعرب الآمنين وأسوأ
والتدمير الذي أنزله بالعاصمة المغول سنة ١٢٥٨ وعوامل الطبيعة
الطبيعية قد عبثت بالأطلال والعمارات وضيعت من معالم اليوم
نفس مواقع معظمها بالتأكيد.

على أن غير بغداد من المدن ظلال العباسيين لا يمكن أن يرجع عهد
أقدمها إلى ما قبل خلافة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) فالجامع
العظيم في سامراء الذي شيده هذا الخليفة للجمهور، وهو ذو المئذنة
الملوية على أثر والآثار
التي ترجع إلى آخر
القرن وفي سامراء إلى العصر الأموي ولا سيما
على الأموية آثار
الفن البيزنطي السوري.

وقد تأثر العصر العباسي بشدة الاستعمار
لم يستعمل عادة الشرب في المجتمع الإسلامي. كذلك ذاعت عبارة
العصر لأنواع الفن التصويري من دون الورق، لا على
سطوح سلامية على الخشبة
فضة ... كان الغرض منه الاستدلال على جهات الريح
وكان للجوسقة الأسلحة حرزوت على دخلة في شكل الأسود
والعقبان ... وكان لجوسقة المقتدر دار فسيحة ذات بستان
فيه شجرة وسط حوض من ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة.
وكانت تقوم على كل غصن من هذا الحوض ثمرة ...

يلبسون الخوذ [illegible] وكأنهم
في وطيس معركة حربية [illegible]
[illegible] مشاهد الصيد [illegible]
[illegible] وفي عهد خلفه [illegible] المتوكل [illegible]
[illegible] المتوكل [illegible]
[illegible]
[illegible] هذه التزاويق

أما الخزف [illegible] والتصوير [illegible] الإسلامية
كما هي الحال في [illegible]
[illegible] والتصوير [illegible]
[illegible] في الأمر [illegible] وكان [illegible]
[illegible] التصوير الإسلامي [illegible] كاملاً حتى أوائل
القرن الرابع عشر ، والظاهر أنه مشتق من [illegible] الشرقية
والأحجار [illegible] والتصوير [illegible]
الكتب

ونستطيع [illegible] كانوا [illegible] في زخرفة
والنقوش [illegible] الأشكال [illegible]
السجاد ، وهي [illegible]
[illegible] مشاهد الصيد والحدائق [illegible]
لتصنيع أنسب الألوان . وكانت منسوجات الحرير [illegible] من
صنع [illegible] في مصر والشام [illegible]
حتى أن [illegible]

وفي صناعة [illegible] وهي [illegible] قديمة الى عصور [illegible] المسلمون [illegible] الأشكال الهندسية والكتابية [illegible] هذا الفن حتى [illegible] الفنون الاسلامية . والأخير [illegible] دمشق عن [illegible]

[illegible] الحروف العربية [illegible] عملا كبيراً في الفن الاسلامي . [illegible] في [illegible] وفي [illegible] في القاهرة [illegible]

[illegible] قرآن في القرن [illegible] الثاني [illegible] مكة [illegible] كلامه [illegible] الذي [illegible] وقد كان [illegible] الحكام [illegible]

معروفة في الخطوط القديمة وخاصة [illegible] القرآن . ولقد حفظت لنا
كتب التاريخ والأدب العربية [illegible] من الخطاطين [illegible]
عليهم [illegible] بخلاف المهندسين المعماريين والمصورين وصناع
الأواني المعدنية الذين سكتت هذه الكتب عن ذكرهم . ولعل فن
الخط هو الفن العربي الوحيد الذي ظل مزدهرا الى يومنا هذا ، وإن
[illegible] من [illegible] في [illegible] والقاهرة [illegible]
[illegible] في [illegible] أحسن ما أخرجه
الأقدمون .

ولفن الخط [illegible] من فنون [illegible] [illegible]
الكتب [illegible] في [illegible] [illegible]
[illegible] في
عهد [illegible] في القرن الخامس عشر .

ولم يكن [illegible] من الموسيقى [illegible] كان ذلك
في دمشق [illegible] وكان [illegible] الرشيد
الزاهي [illegible] في [illegible] والأدب ،
[illegible] في [illegible] موسيقى [illegible] وقد [illegible] في
[illegible] من [illegible] الموسيقى [illegible] الأوراق [illegible]
عدد كبير من الجواري [illegible] وقد كان هذه [illegible] الراغبة من
[illegible] الفن آثار لامعة من نوادر [illegible]
[illegible] وفي الأحمر [illegible] اشترك في [illegible]
موسيقي [illegible] من هؤلاء [illegible]
الرشيد [illegible] الأمين [illegible] أهل

الاصوات [illegible] حتى تستمع له

ومن الذين حفظهم [illegible] مخارق الذي اشتراه

[illegible] من احدى المغنيات [illegible] ذي صوته القوي العذب على

المحكم الذي كان [illegible] ابوه [illegible] صوته [illegible] حرارة

وشدة [illegible] ذكروا انه

[illegible] في احدى الليالي [illegible] والدموع [illegible] احد

من سامعيه إلا بكى وظهرت الدموع [illegible]

في [illegible] يستمعون غناءه.

وكان مخارق وسواه من ارباب الموسيقى في ذلك الزمن

[illegible] من ندماء الخلفاء الذين [illegible] فقد جمعوا لطيفة

فضلا عن سرعة الخاطر وقوة الذاكرة واستظهروا الكثير مما

رق من الأشعار والملح من النوادر والمفاكهات، فهم اذا مغنون

ونظامون وشعراء ورجال علم على السواء. ومع ذلك [illegible] منهم

الا [illegible] على غيرهم [illegible] اولئك الذين استعملوا

[illegible] هؤلاء [illegible] المغنيات الجواري [illegible] أدوارهن في

الغناء وراء الستار [illegible] في بيوت الحريم،

وعندما [illegible] خدمتهم جارية

حتى [illegible] صاحب مصر [illegible] عشرة آلاف دينار.

[illegible] امبراطور الروم [illegible] ثلاثين الفا ثم اوصلها

رسول صاحب خراسان الى اربعين الفا، فكان من مولاها الا ان

اعتقها وتزوجها.

ومن الكتب الكثيرة التي [illegible] في العصر العباسي [illegible] طائفة

أسباب [illegible] تاريخ الموسيقى العربية ، ومن هذه الأسباب الكتب العربية

آرائهم [illegible] الأولى في الموسيقى [illegible] وثقة [illegible] في

مبادئ نظرية الصوت الصحيحة والفسيولوجية . [illegible]

العملية فان نماذجها عربية محضة . وفي [illegible] الموسيقى العربية من

الموزون لغته موسيقي [illegible] الآلات الموسيقية [illegible]

[illegible] هذا العصر [illegible] عدة الممالك القديمة — وقد

كانت [illegible] العهد [illegible] والموسيقى [illegible]

لغته [illegible] فهي من أصل

يوناني [illegible] الأرض [illegible]

[illegible] في

[illegible] والموسيقى [illegible]

[illegible]

[illegible]

ولكن [illegible] الموسيقى العربية [illegible]

الكتب [illegible] في موضوع الموسيقى الكلاسيكية [illegible]

[illegible] العامة .

وفي مقدمة هذه الكتب « كتاب الموسيقى الكبير » للفارابي

التركي الأصل المتوفى بدمشق سنة ٩٥٠

قرطبة جوهرة العالم

وبينما كان عالم الشرق من أدناه إلى أقصاه في ظل الحضارة الإسلامية ينعم بحضارة انتهى كان نصيب العرب منها في الأندلس نصيباً لا يقل عن ذلك إشراقاً وبهاء. وبلغ عهد الأندلس بعد أن استقرت عروبته نهضة في العلم والحضارة تقدماً لا مثيل له وكانت أنداده المستنيرة في أوائل العصور الوسطى. وكان من نتيجة ذلك نهضة الأوروبية الحديثة التي لم يكن لها عهد بمعرفة مركبات العلوم. وقد ازدهرت المدنية الإسلامية في الغرب وبلغت ذروة مجدها ما بين القرن التاسع والحادي عشر. وعلينا قبل أن نستعرض عصور هذه المدنية أن نعود فنلمس هذه الدولة في عهد نشأتها ونموها.

في ذلك العهد كما ذكرنا آنفاً قضى العباسيون على الدولة الأموية في دمشق. وما كاد يتربع هؤلاء في كرسي الخلافة حتى انحـــدروا

يطاردون عقب السقوط الأموي ، فيقتلون كل من استطاعوا [illegible]
الوصول إليه .

وكان من الأمراء القلائل الذين نجوا من ذبحهم عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق . وكان عمره عشرين عاما وهو شاب طويل [illegible] نحيف الجسم أقنى الأنف [illegible] خفيف العارضين أحمر الشعر ذا صفات الحزم والإقدام والطموح . تدرج بطريقة [illegible] على [illegible] وخرج من [illegible] الى ان اصبح سيدها المطاع [illegible] الأموية التي كان قد قضي عليها في الشرق .

وقصة نجاة عبد الرحمن من الموت تشبه رواية رائعة .
كان في أحد الأيام جالساً في مضرب خيمة البدو على ضفة الفرات وإذا بفوارس العباسيين يحملون الرايات السود ويقتربون من المكان ففر للحال [illegible] ومعه أخوه وهو ابن ثلاث عشرة سنة [illegible] في [illegible] الفرات [illegible] [illegible] وقتلوه وعبد الرحمن ينظر إليه . ثم توارى في غيضة حتى انقطع عن [illegible] .

فهام عبد الرحمن على وجهه متنكراً [illegible] وصار متوغلاً جنوباً إلى أن وصل فلسطين بعد صعوبات جمة وهناك لحق به مولاه بدر [illegible] فتوجها [illegible] غرباً حتى وصلا شمالي إفريقيا . ولبث [illegible] في طلبه [illegible] متنقلا مع بدر من قبيلة إلى أخرى وجواسيس الدولة الجديدة تجد في طلبه [illegible] . وكان أخواله وهم من

البربر يقيمون في تلك الانحاء . حتى انهم وحسبوا ووده

واتصل عبد الرحمن بالجيوش الثورية المقيمة في الجهة الجنوبية
من الاندلس عبر المضيق في الجهة الغربية لسنة ، فبايعوه بالزعامة .
وسار على رأسهم متوغلا في البلاد فوجدت المدن الواحدة بعد
الاخرى تسقط في يده . وثبر على الجهاد تسع سنوات قبل ان
خضعت له اسبانيا المسلمة كلها .

وفي وقت احدى الامارات عرفت شرلمان ملك الفرنجة بما
اصيب به عدوه الجبار عبد الرحمن من شدة ومقدرة . وكان شرلمان
هذا بمثابة حبيب للخليفة العباسي وعدو طبيعي لعبد الرحمن الامير
الجديد المتغلب في اسبانيا فبعث شرلمان بجيشه في عام ٧٧٨
قاطعاً جبال البرانس وتوغل في الجهة الشمالية من البلاد حتى وصل
سرقسطة . الا ان الجيش اضطر الى الانسحاب عندما اغلقت
هذه المدينة ابوابها في وجهه وهدّد اعداء امبراطوريته الداخليون
سلطة شرلمان في بلاده وقد هاجم مؤخرة جيشه اثناء تراجعه في
مضيق الرونسفال اهالي بلاد الشكنش (Basques) وغيرهم من
الجبليين فخسر جيش الفرنجة خسائر فادحة في الرجال والمتاع
ومن القواد الذين قتلوا رولان الخالد الذكر في الاشعار المعروفة
باغنية رولان (Chanson de Roland) وهي اول ملحمة في الادب
الفرنسي بل في آداب الاجيال المتوسطة الاوربية .

ولكي يتغلب على ايدي مناوئيه اضطر عبد الرحمن الى انشاء
جيش منظم مدرّب قوامه اكثر من اربعين الفاً من البربر المرتزقة
وقد تمكن من الاحتفاظ بولاء هذا الجيش بما كان يغدقه عليه من على

اولاده من الاغالبة . وفي سنة ٧٧٣ قطع الخطبة باسم الخليفة العباسي ولكنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة . وقد اكتفى هو ومن خلفه الى ايام عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) بلقب امير او سلطان . وكانت الاندلس في عهد عبد الرحمن الاول اول الامصار التي خرجت عن سلطة خليفة اسلامي .

وبعد ان وحّد عبد الرحمن مملكته ونشر لواء السلام الموقت عليها وجّه اهتمامه نحو السلم حيث اظهر مقدرة تعادل مقدرته في الحرب . فجمّل مدن مملكته وابتنى لمد الماء قناة تحمله الى العاصمة التي احاطها بسور وشيّد دارة (فيلا) الرصافة في ظاهر قرطبة على نمط القصر الذي كان بناه هشام جده في الشمال الشرقي من الشام وجر الماء الى هذه الجنة الغناء وادخل فيها النباتات الاجنبية كالدراق والرمان . ويروى انه جيء بنخلة من الشام فلما رآها منفردة بالرصافة انشد من نظمه :

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن اهلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسحّ ويستمري السماكين بالوبل

وأسس عبد الرحمن قبل وفاته سنة ٧٨٨ بسنتين جامع قرطبة العظيم مضارعاً به جامعي الاسلام الكبيرين في بيت المقدس ومكة . وقد اصبح هذا الجامع بعد ان اكمله خلفاؤه ووسعوه قبلة المسلمين في الغرب . وفي عام ١٢٣٦ تحوّل هذا الاثر الرائع بأعمدته الفنية المصففة بلا حد وتناسق اقواسه كشبكة وبهوه الخارجي الفسيح الفخم الى كاتدرائية مسيحية لا تزال تدعى الى يومنا هذا

باسم « لامسكيتا » La Mezquita تحريفاً للفظة « المسجد ».
وقد حوت قرطبة عواصم العالم بهذا الجامع وبجسر قائم على الوادي
الكبير جرى توسيعه من بعد فصار يقوم على سبع عشرة قنطرة. ولم
تنحصر جهود مؤسس الدولة الاموية في الاندلس في مصالح رعيته
المادية بل تعدتها الى المعنويات. فعبد الرحمن بذل قصارى جهده
محاولاً تشكيل امة واحدة من مختلف عناصر الدولة من العرب
والسوريين والبربر والنوميديين والعرب الاسبانيين والقوط الا
انها كانت محاولة عسيرة بعيدة التحقيق والحق ان الفضل يعود اليه
من وجوه كثيرة في نشوء الحركة الفكرية التي جعلت اسبانيا
المسلمة من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر احد المراكز
المهمة في الثقافة العالمية.

وكان البلاط الخليفي في ايام عبد الرحمن الثالث، وهو الشخصية
البارزة في السلالة الاموية في الاندلس، من افخم ما عرفته
اوربا. فقد حجت اليه رسل امبراطور بيزنطة وسفراء ملوك المانيا
وايطاليا وفرنسا. وبلغ عدد سكان العاصمة قرطبة نصف المليون
وكان فيها سبعمئة مسجد وثلاثمئة من الحمامات العمومية. ولم يكن
يفوقها في العظمة من المدن سوى بغداد والقسطنطينية. وكان
قصر الخليفة فيها يضم بين جدرانه اربعمئة غرفة ومقصورة يسكنها
الوف الرقيق والحرس. وهو قائم في الشمال الغربي من المدينة على
احدى هضاب جبل الشارات (سيرّا مورينا) المشرف على
الوادي الكبير. وكان عبد الرحمن قد شرع في بنائه عام ٩٣٦ تل
خدمة، على ما تقول الاساطير، لاحدى جواريه التي اوصت ال

يُنفق هذا المال لافتداء الأسرى من أيدي النصارى . وقدم محمد
عبد الرحمن منهم جداً عمل بتشجيعه حركة حتى تمت الزهراء
وبنى هذا الصرح وسماه باسم زوجته وجاء بالرخام له من نوميديا وقرطجنة .
من الأعمدة والأحواض المزدانة بالتماثيل ... فقد استجلب
بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاء هدية من امبراطورها .
واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع وألف وخمسمائة دابة
مدة عشرين سنة . وقدم الخلفاء الذين جاءوا بعد المنصور فوسعوا
الزهراء وحصنوها حتى أصبحت نواة لضاحية ملكية عامرة ثم ترك
آثارها منذ ذلك الوقت . وقد جرت الحفريات في قسم منها عام
١٩١٠ وفيما بعده .

وفي الزهراء هذه احتفظ الخليفة بنفسه بحرس من الصقالبة عدده
٣٧٥٠ رجلا يقومون على رأس جيش عبيدي مع مئة ... . وكان
هؤلاء الصقالبة في الأصل أسرى من قبائل السلاف فقط غنمهم
الألمان وباعوهم فاشتراهم العرب . ثم أطلق هذا الاسم على جميع
الأجانب الذين اشتراهم العرب سواء أكانوا من الفرنجة أم الجليقيين
أو اللومبارديين وكانوا عادة يؤخذون أحداثاً ثم يستعربون .
وبمساعدة هؤلاء « الانكشارية » أو « المماليك » في أسبانيا استطاع
الخليفة القضاء على الفوضى وقطع الطرق وإضعاف نفوذ
الارستقراطية العربية القديمة . لذلك راجت سوق التجارة والزراعة
وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخل خزانة الخليفة ٦٢٤٥٠٠٠
ديناراً . فكان ثلث هذا المال ينفق على الجيش وثلثه على المشاريع
العامة والثلث الأخير يدخر رصيداً احتياطياً . ولم تعرف قرطبة

من قبل مثل هذا الرخاء ولم تعرف الاندلس قط مثل هذه الثروة .
وتعود معظم الفضل في ذلك كله الى مقدرة رجل فرد عاش ثلاثاً
وسبعين سنة وصرّح في اواخر ايامه انه لم يعرف من لذة الا
اربعة عشر يوماً .

كانت السلطة في العالم الاسلامي في عهد كل من دولة متمزقة
متزعزعة . فبين اسباب احتفاظ الدولة الاموية بالسلطة الاسمية
عقد وجب على عبد الرحمن الاول . غير انه لما ارتقى العرش عبد
الرحمن الثالث عام ٩١٢ كانت الاضطرابات الاهليــــة وثورات
القبائل وعدم كفاءة الامراء في السياسة العامة قد عملت مفعولها في
هذه الدولة فتقلصت ولم يبق منها الا قرطبة وضواحيها .

وخلف عبد الرحمن الثالث هذا جدّه عبــــد الله ، وعمره ثلاثة
وعشرون عاماً وكان كسلفه ذا عزم وحزم وفطنـــــة . فنشط
لاسترداد ما ضاع من الامصار وجمع المقاطعات بعد الاخرى وادار
الشؤون بحكمة ومقدرة . ودام حكمه نصف قرن (٩١٢–٩٦١)
وهو من اطول مدات الحكم في تاريخ الخلافة . وكانت أهم حادثة
سياسية في اوائل عهده بصدارة امر بان يكون الخطبة ابتداء من
يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة ٩٢٩ باسمه خليفة" واميراً للمؤمنين
لا باسم الخليفة العباسي . وبه ابتدأت الخلافة الاموية في اسبانيا .
وفي عهده وعهد خلفه الحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) وتحت ادارة
حاجب المملكة الملقب بالمنصور (٩٧٧ - ١٠٠٢) بلغت السلطة
الاسلامية في الغرب اوج مجدها . وفي هذه الحقبة تسنّمت العاصمة
الاموية قرطبة مركزاً سامياً جعلها أعظم مــــدن اوربا ثقافة" ،

فأصبحت مع القسطنطينية وبغداد أحد مراكز ثلاثة للثقافة العالمية . واعتزت بما احتوته إذ كان فيها مئة وثلاثة عشر ألف دار، وواحد وعشرون ربضاً (ضاحية) وسبعون مكتبة ، وحوانيت شتى تبيع فيها الكتب ، ومساجد وقصور . فحازت بذلك شهرة عالمية ، واجتذبت من أهل الأسفار مجامع القلوب ، وبهرت بشوارع طويلة أميال مضاءة بقناديل الدولة المحدثة ، في حين أن لندن لم يكن فيها قنديل واحد عمومي إلى بعد سبعمئة سنة . أما باريس فظلت قروناً بعد ذلك كان أي داخل يتخطى فيها عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن من الخوض في لجة من الوحل .

أما وجهة نظر العرب إلى الأوربيين في الشمال – الجرمان والنورديين – وتقييمهم فيمكن الاستدلال عليها مما قاله صاعد بن أحمد القاضي الطليطلي المتوفى عام ١٠٧٠ .

« ولإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هواؤهم وكثف جوهم ، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة ، فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الأفهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة » .

وكان أمراء ليون أو نبارا وبرشلونة إذا احتاجوا جراحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطة ولوا وجوههم شطر قرطبة . فقد ذاع صيت العاصمة الإسلامية حتى أقاصي ألمانيا حيث وصفت راهبة سكسونية قرطبة بأنها « جوهرة العالم » .

وكانت إسبانيا في عهد الخلافة أوفر بلدان أوربا ثروة وأشدها ازدحاماً بالسكان . وتباهت العاصمة بنحو ثلاثة عشر ألف حائك

وصناعة راقية للجلود. ومن اسبانيا عرفت صناعة صبغ الجلود وترتيبها بنقوش مذهبة الى مراكش ، ومن هذين القطرين انتقلت هذه الصناعة الى فرنسا وانكلترا . اما الحرير والصوف فكانت الانسجة تحاك منهما لا في قرطبة فقط بل في مالقة والمرية وسواهما من العواصم وكان اهل الصين قد احتكروا صناعة الحرير الى ان ادخل المسلمون الى اسبانيا صناعة تربية دود القز حيث نمت وازدهرت وكانت ثمرته تنسج لا في قرطبة والمحسوبة . اما موطن صناعة الخزف فكانت في بترنة من اعمال بلنسية . واشتهرت جيان والمرية بمعادن الذهب والفضة كما اشتهرت قرطبة بالحديد والرصاص ومالقة بالياقوت . وكانت طليطلة كدمشق معروفة في كل الاقطار بصنع السيوف . اما فن ترصيع المواد وسواها من المعادن بالذهب والفضة وترصيعها بصور على شكل ازهار ، وهو فن منقول من دمشق ، فقد رسخ في صنعة مراكز اسبانية واوروبية وترك اثراً في اللغة يدل عليه اللفظ في اللغات الاوربية الحديثة محرّفة عن لفظة دمشق .

وقد ادخل العرب الى اسبانيا الاساليب الزراعية المعروفة في آسيا الغربية . فاستثمروا الارض وادخلوا أصنافاً جديدة من العنب وجوّدوا بساتين واقاموا منها الارز والبرقوق (المشمش) والنارنج (البرتقال) والرمان والبرتقال وقصب السكر والقطن والزعفران . وكانت سهول الجنوب الشرقي من اسبانيا بما حبتها الطبيعة باقليم معتدل وتربة صالحة ، نشأت فيها مراكز هامة للزراعة في المدن والارياف وعنت فيها كل انواع الحبوب وكذلك الزيتون

وانواع الفاكهة بعهدة الفلاحين الذين قاموا على خدمة الأرض مقابل حصص يتقاضونها من المالكين .

ويعد هذا الرقي الزراعي من مفاخر الاندلس . ومن آثار العرب الخالدة في الاراضي الاسبانية الحدائق التي لا تزال الى يومنا هذا محافظة على الصبغة العربية . ومن اشهر الحدائق حديقة العريف وهي من آثار الدولة النصرية في أواخر القرن الثالث عشر وكانت ملحقة بدار مجاورة في اطراف الحمراء . وكانت هذه الحديقة على ما وصف ابن الخطيب تشتمل على المروج في صحن الممدود وانواع المسكوب والسراديب . وقد ترتبت اقسامها شرفات فظهرت كأنها مدرّج الممتاز ، بديع النسق تروى منه الجداول التي تتدفق في عدة شلالات ثم تسري بين الزهور والاعشاب والاشجار وهي لا تزال الى اليوم عامرة على مجموعة بديعة من السرو والآس .

ووصلت حاصلات الاندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد . فكانت اشبيلية ، وهي من اهم اسواق التجارة ، تصدر القطن والزيتون والزيت ومنسوجات الاقمشة والزئبق من مصر والهند من اوربا وآسيا . وشحنت صادرات مالقة وجيان الزعفران والتين والرخام والسكر . وسارت حاصلات الاندلس عن طريق الاسكندرية والقسطنطينية حتى بلغت اقصى اسواق الهند وآسيا الوسطى . واتسع نطاق التجارة مع دمشق وبغداد ومكة بوجه خاص . وفي الالفاظ التي تعرب بها لغات اوربا الحديثة عن صناعة التجارة ما يشير الى سيادة العرب التجارية في العصور

كأميرال « admiral » (أمير البحر) و« ترسانة » arsenal (دار الصناعة) . و« كابل » cable (حبل) .

وبدأت الحكومة تعمد لتوحيد وسك النقود متبعة حسب النماذج الشرقية فكان الدينار أساس التعامل في الذهب والدرهم في الفضة . ودرجت المسكوكات العربية في ممالك النصارى شمالاً وبقيت هذه البلدان قرابة أربعمئة سنة ولم تعرف من المسكوكات إلا العربية والفرنسية .

على أن مجد هذا الخليفة لم يكن في حنكته السياسية بل في الثقافة فكان الحكم ابنه خلف عبد الرحمن الثالث عالماً يعمل على تشجيع العلم ونشره . فجرى على العلماء المرتبات وابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة مجانية . وفي عهده ازدهرت جامعة قرطبة التي أسس سلفه في المسجد الكبير والتي أصبحت من معاهد العلم البارزة في العالم ، فسبقت بتأسيس الأزهر في القاهرة والنظامية في بغداد . وأخذ يؤمها الطلاب من نصارى ومسلمين ليس من إسبانيا فقط بل من بلدان أوروبا الأخرى ومن أفريقيا وآسيا . ووسع الحكم صحن المسجد الذي ضم الجامعة بين جدرانه وأجرى إليه الماء في أنابيب الرصاص وزينه بالفسيفساء التي جاء بها مهرة الصناع البيزنطيين . واستدعى إلى هذه الجامعة أساتذة من الشرق ورصد أموالاً خاصة ينفق منها على مرتباتهم .

وضمت قرطبة عدا الجامعة مكتبة من الدرجة الأولى في عصرها . وكان الحكم من هواة الكتب فبعث عماله إلى مكتبات الإسكندرية ودمشق وبغداد قصد ابتياع المخطوطات أو نسخها . وحملوا منها

الى الاندلس الشيء الكثير فبلغ عـدد المجموع من الكتب اربعمئة الف، حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين مجلداً في كل مجلد عشرون ورقة فيهـا اسماء الدواوين الشعرية. واستوعب الحكم، ولعله اعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة، عدة من هذه الكتب علّق عليها في الحواشي ملاحظات زادتها قيمةً لدى هواة الكتب في العهود المتأخرة. وبعث في «كتاب الاغاني» لمصنّفه ابي الفرج الاصفهاني الاموي الاصل الفَ دينار فأرسل اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه في العراق. وبلغت درجـــة الثقافة في الاندلس مستوى عالياً في هذا الوقت حدا بالعالم الهولاندي الكبير دوزي Dozy الى القول انه «كان كل فرد تقريباً (من افراد الاندلس) كان يُحسن القراءة والكتابة». كل هذا بينما كانت اوربا المسيحيةّ لا تعرف من العلوم الا مبادئ بسيطة اكثرها في حوزة عدد قليل من رجال الدين.

فضل العرب على المدنية الغربية

يستدل على اهتمام العرب بالعلم والثقافة والأدب من العبارة التي كانت تظهر منقوشة على أبواب معاهد العلم في الأندلس: «العالم يقوم على أربعة أركان: معرفة الحكيم وعدالة العظيم وصلاة التقي وبسالة الشجاع». ومن بعض التعبيرات المعروفة حدثت في هذه العبارة، التي تصف أمثال عصر الإسلامية في أوروبا في المقدمة

ولقد كان لقوة العرب الحربية أثر فعال في العالم العربي وتكوينه ولم ينته. ولكن الإسلامي لم يظهر حسب الأوروبي كثيراً. على أن الفن العربي ترك وراءه سوابق تستشهد بها الأوروبيون. أما العلم الإسلامي فقد دخل الفكر الأوروبي من نواح عدة. ذلك أن الأندلس حضرت فصلاً رائعاً في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الأوروبية. حتى منتصف القرن الثامن ومطلع

القرن الثالث عشر حسبما تقدم كانت الشعوب العربية المسلمة في مقدمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة . وبواسطة جهود هذه الشعوب نجا شيء لعلوم الاقدمين وتسنى لها ان تعود الى اوربا مشروحةً ومحققةً اليها . وقبل هذا بقليل نشوء عصر النهضة في اوربا الغربية . ولعل اعظم علماء الاندلس واكثرهم ابتكاراً علي بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) وهو احد الاثنين أو الثلاثة الذين يعتبرون احسن مؤلفي الاسلام واغزرهم مادة . وقد نسب المؤرخان ابن خلكان والقفطي اربعمئة مجلد في التاريخ والالهيات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من العلوم . اما أهم كتبه الباقية الى الآن واشهرها فهو « الفصل في الملل والاهواء والنحل » الذي يؤهل مؤلفه لاحتلال مركز الاولية بين العلماء الذين عنوا بدرس الاديان على سبيل النقد والمقارنة . وفي هذا الكتاب نبه ابن حزم الانظار الى بعض مشاكل في قصص التوراة لم تسترع فكر احد من بعده حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمي في القرن السادس عشر .

اما في النثر والحكايات والروايات والقصص الادبية التي احدث ازدهر في اوربا الغربية خلال القرن الثالث عشر فيظهر فيها بلا ريب تأثير الكتب العربية السابقة سواء أكانت هندية ام فارسية الاصل . اما حكايات « كليلة ودمنة » الشهيرة فقد نقلت الى الاسبانية برعاية ألفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٢) . ولم تلبث ان نقلت الى اللاتينية عن يهودي متنصّر . ثم اصبحت ترجمتها الفرنسية عن طريق اللاتينية احد مصادر لافونتين حسبما

اثراً لا يزال يلمس . ومثل ذلك (قصة الهجرة ، سكارمش)
Scares de ... حسب واصبح ان يتبعه العربية ومن بعدها به من
السجع وحلية من ضروب الزخرف اللفظي ومن زخارف اللغة من
مجرى ادبي يستخرج ... بسرد محروب بلفظ ... لغة شعور .
وكان اول من وضع المقامة في العربية بديع الزمان الهمذاني
(٩٦٩ – ١٠٠٨) وتبعه الحريري (١٠٥٤ – ١١٢٢) وظلت
هذه المقامات تعتبر بضعة قرون اروع مثل في الادب العربي بعد
القرآن . إلا ان اعظم فضل للغة العربية على ادب العصور الوسطى
الاوربية كان في انها هي التي ساعدت على تحرير القصة العربية من
الانظمة الضيقة الجامدة التي فرضتها تقاليد الفروسية . ويمتاز الادب
الاسباني بما فيه من حس وافر من مزج عربي ... السكينة
في كتاب « دون كيخوته » Don Quixote الذي قضى مؤلفه
سرفنتس Cervantes في الجزائر ردحاً من الزمن سجيناً وادعى
على سبيل الدعابة ان كتابه يرجع الى اصل عربي .

وحيثما حلت اللغة العربية وفي اي عصر انتشرت كان ولع
ابنائها في الانشاء الشعري ولعاً شديداً وقد ملكوها على الاسس
السامية (نحو السجع بحسب موضوع عجائب الوضع منهم
والوضيع . وهذا الضرب الشعري الذي يسمى الشعور العاطفي
بالصدق بفضل عذوبة الالفاظ وحسن اللسان وبديع المعاني تجلى في
الاندلس . فقد كان الامير الأموي الاول عبد الرحمن شاعراً
ومثله عدد من خلفائه . وكان لأكثر هؤلاء الامراء شعراء يتبارون
في الاطراء ... في ... وحملاتهم الحربية . وقد جرت

وشملته ، كثر عدد من الشعراء المعروفين المسلمين مع ان أئمة الشعر كانت استقرت لزمن طويل قبل هذا في قرطبة وانتقلت الى غرناطة . كانت هذه حقبة للاسلام .

ومن افذاذ الشعراء ابو الوليد احمد بن زيدون (١٠٠٣–١٠٧١) الذي ينتمي الى بني مخزوم ، وهو فرع من قريش . ويعده بعضهم اعظم شعراء الاندلس . وكان ابن زيدون في اول امره يقوم على خدمة ابن جهور رأس حكومة قرطبة الى ان غضب عليه . والسبب الراجح في ذلك عشق ابن زيدون للشاعرة الولادة بنت الخليفة المستكفي . فقضى الشاعر عدة سنين في السجن والمنفى الى ان دعاه المعتضد العبادي الى رئاسة الوزارة وامرة الجيش فسمي بذي الوزارتين : وزارة السيف ووزارة القلم . وكانت الولادة هذه المتوفاة عام ١٠٨٧ اديبة شاعرة ذات امانة في الظرف وحسن المنطق . وكان مجلسها فرصة منتدى لاحرار العصر . ولقد اظهرت نساء الاندلس العربيات ميلاً حقيقياً للشعر والادب . فحفظ المقري ثبتاً كاملاً من كتبهن مع لقبهن للنساء الشهيرات في الاندلس ، كي نعلم ان البراعة في اهل الاندلس كالعروبة هم حتى في نسائهم وصباياهم .

وتحرر الشعر العربي الاندلسي الى حد معلوم من قيود التقليد فنشأت له اوزان جديدة واكتسب ذوقاً في تحسس الجمال في الطبيعة بصورة تكاد تكون حديثة . ونجد في اغانيه القومية واناشيده الغرامية عواطف الجمال التي سبقت عصر الفروسية في القرون الوسطى . وفي الاندلس ، كما في كل مكان وزمان ، بقيت

اواصر الارتباط وثيقة بين الموسيقى والشعر .

وانتشار الشعر العربي عامة والغنائي منه خاصة اعجاب شاعري الاندلسيين ، واصبح من العوامل الفعالة في طبعهم بطابع الثقافة العربية . ومن الزجل والموشح نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي استخدمه المسيحيون كثيراً في اناشيدهم الدينية ومن بينها اغاني عيد الميلاد . ولم يزل حتى الآن في لسان شعراء عاميين يحملون ما يسمونه زجلاً وموشحاً .

ومن مآثر الشعر العربي ما ظهر في الشعر الاسباني العذري ، وما كان في القرن الثامن من اسلوب خاص تحلى به مؤثرات الشعر العربي . وفي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال على اثر الفتح حتى أواخر القرن الحادي عشر فاذا بقصائدهم فاتحة لعهد الذوق تعبر عن محبة مترعة بالشعور الصوفي والخيال البعيد . وقد امتدت جماعة التروبادور التي نهضت في القرن الثاني عشر بفرنسا الجنوبية من منشدي الرحل . واذا عد للانموذج العربي اصبح التعرف بمرآة شعرهم امراً مألوفاً في اوربا الجنوبية الغربية . ثم ان اغنية رولان ، وهي اسمى تراث في الادب الاوربي القديم ، فقد ظهرت قبل سنة ١٠٨٠ مؤذنة بطلوع شمس مدنية جديدة — مدنية اوربا الغربية — والاغنية مدينة بظهورها لمعركة بين مسيحيي فرنسا ومسلمي اسبانيا .

ولقد قام تعلم الاسباني في البلدان الاسلامية والشرق ، كما استند على اساس الكتابة وقراءة من القرآن وعلى تعلم الصرف والنحو والشعر . ومقام المرأة في الحياة العامة يبرهن على ان الاندلس قد اعارت ادب مجتمعه للاقوال والاحاديث التي بحث عن

تعلم المرأة . أما التعليم العالي فكان يقوم على تفسير القرآن والحديث والفلسفة واصول اللغة العربية والشعر وعلم الفرائض والتاريخ والجغرافية . وازدادت بعض المدن الرئيسة بمدارس تصح تسميتها بالجامعات وفي مقدمتها قرطبة واشبيلية ومالقة وغرناطة . ومن دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك وغيرها للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية ، وبلغ عدد طلاب الدين انتموا اليها الآلاف . وكانت تجتذب من اهم المؤهلات لشغل اوفر مناصب الدولة دخلا . وتضمن منهاج الدراسة في جامعة غرناطة علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . وأمّ هذه الجامعة الطلاب من فرنسا وسواها من الاقطار الاجنبية .

ونشأت الى جانب الجامعات خزائن للكتب منها خزانة قرطبة الملكية ، أوسع المكتبات وافضلها . وكان بعض مشاهير الأئمة وينشئ الامراء مجموعات كتب خاصة . ولما عرف المسلمون هذه الخزائن النفيسة ودور العلم التي انتشرت في بلاد اليونان وروما ، فقد قصدت الجماعة الاسلامية ان تكون المكتبة الواسطة الوحيدة لتحصيل المعرفة .

ولولا صناعة الورق لمدنية في الاندلس ، وهي من اهم ما اسداه الاسلام إلى اوربا ، لما راجت سوق الكتب الى هذا الحد كما لاحظنا في درسنا لبغداد . ومن مراكش التي ادخلت اليها هذه الصناعة من الشرق انتقلت الى اسبانيا في منتصف القرن الثاني عشر . ومن الالفاظ التي تذكرنا بهذه الحقيقة « رزمة » العربية التي دخلت بحرفها الى لغات أوروبية كثيرة . ثم نتطرق الى صنع

الورق في شاطبة نحو سنة ١٢٧٠ ، فعمل التأثير الصيني في صقلية على الراجح . اما في غرب اوربا فالفضل الاول في ظهور مصانع الورق يعود الى التأثير الاسباني لا الى التأثير الصليبي العائد كما ادّعى بعضهم . ومن هذه البلاد انتشرت هذه الصنعة الى سائر انحاء اوربا . وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد انشاء الرسائل الرسمية في ميورقة ثم إعدادها الى ديوان خاص يصير فيه استنساخها في نسخ عدة توزع على عمال الدولة .

وعقب تقلّص السلطة الاسلامية عن اسبانيا انقرضت معظم الكتب العربية فيها ولم يبق منها سوى نحو الالفين من المجلدات ، قام فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) وخلفاؤه في جمعها من مختلف مخازن الكتب العربية . فعدت هذه المجموعة نواة مكتبة الاسكوريال Escorial التي لا تزال قائمة بظاهر مدريد . وحدث في النصف الاول من القرن السابع عشر ان الشريف زيدان سلطان مراكش ارسل خزانة كتبه على ظهر سفينة ، وكان هاربا من عاصمته ، فأبى الربان ان يوصل هذه الكتب الى المكان المقصود لانه لم يتسلم اجرته كاملة سلفاً . وبينما السفينة في طريقها الى مرسيليا اذا بها تقع في ايدي قراصنة البحر الاسبانيين فأمر فيليب الثالث بايداع هذه النفيسة من الكتب التي يتراوح عددها بين الثلاثة والاربعة الآلاف في مكتبة الاسكوريال ، وبذلك أصبحت هذه المكتبة من اغنى المكاتب الاوربية بالمخطوطات العربية .

وليس بين كتّاب العصر الاندلسي من كان اغزر مادة في التاريخ من الصديقين ابن الخطيب وابن خلدون .

كان لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ – ١٣٧٤) منحدراً من أسرة عربية هجرت الشام فنزلت إسبانيا. وفي زمن سابع سلاطين بني نصر، يوسف أبي الحجاج، واسمه محمد أطلق عليه لقب «ذي الوزارتين». وفي سنة ١٣٧١ فرّ من غرناطة بسبب الدسائس في البلاط ثم نفي بحجة لأنه مات خنقاً بعد ثلاث سنين في مدينة فاس بيد بعض أعدائه. وبموته خسرت غرناطة، بل لم تبق الأندلس كلها، آخر من نبغ من جهابذة الأدب والشعر والسياسة. ولم يبقَ من الكتب الستين التي صنفها ابن الخطيب – وأكثرها في الشعر والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة – إلا نحو ثلث. وأهم ما بقي من هذه المؤلفات كتابه «الإحاطة في تاريخ غرناطة».

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦) فقد وُلد في تونس من أسرة أصلها عربية يرتفع نسبها بقبيلة كِنْدة. وكان مؤسس هذه الأسرة قد هجر اليمن في القرن التاسع قاصداً إسبانيا. وبقيت ذريته في إشبيلية حتى القرن الثالث عشر. وتقلب عبد الرحمن في مناصب عدة رفيعة في تونس قبل أن يغضب عليه وليّ الأمر فيها. وفي عام ١٣٦١ اتصل بسلطان غرناطة محمد بن يوسف فاحتلّ وظائف مختلفة ولعب دوراً سياسياً هاماً إلى أن ثارت عليه عواصف الحسد فاعتزل الوظائف وعكف على التأليف. إلا أن شهرة ابن خلدون الواسعة ترتكز على مقدمته إذ فيها وردت لأول مرة نظرية النشوء التاريخي مبنيّة على الأخذ بحقائق الإقليم والجغرافية فضلاً عن الحقائق الأخلاقية والروحية. ويعكس تفكير ابن خلدون من حيث بحثه عن نواحي التقدم والانحلال القومي ومحاولته أن يجمع

قواعده مكتشفاً طريقة جديدة – هكذا قال هو عن نفسه في علم التاريخ والعمران . واقل ما يمكن ان يقال عنه انه مؤسس علم الاجتماعيات . والحق انه ليس من كاتب اوربي او عربي نظر قبله الى التاريخ نظرة تعادل نظرته شمولاً واطلاعاً فلسفة . ويعد الى حدود بحكم الاراء بين النقدة اعظم فيلسوف تاريخي اسلامي ، ومن اعظم فلاسفة التاريخ في العالم .

لم يكن لدراسة العرب الجغرافية الا اثر محدود في الغرب كان من نتائجه انقاذ الفكرة القديمة القائلة بكروية الارض حية . وقد اشرنا سابقاً الى الفكرة الهندية القائلة بان نصف الكرة الارضية المعروف ان كان به مركز او قبة على ابعاد متساوية من الخوافق الاربعة . هذه هي نظرية آرين التي وصلت الى مصنف لاتيني صدر سنة ١٤١٠ فأخذ كولمبس عنه مذهبه الذي قاده الى الاعتقاد بان شكل الارض يشبه الاجاصة وان في نصف الغربي الذي يقابل آرين مركزاً آخر مرتفعاً ومماثلاً .

والحق ان العرب زودوا الغرب بعدة آراء جديدة ومعلومات واسعة العمق في الجغرافية الفلكية والرياضيات . ففي اسبانيا عظم الاقبال على العلوم الفلكية بعد منتصف القرن العاشر وحظي امراء قرطبة وطليطلة واشبيلية هذه العلوم برعايتهم وعنايتهم . وكان معظم الفلكيين الاندلسيين يؤمنون بان جُلّ اكثر الحوادث التي تحدث للانسان ما بين ولادته وموته انما ترجع الى تأثير النجوم . واقتضت دراسة هذا التأثير الفلكي – علم التنجيم – تحديد الاماكن في الارض ووضع مقاييس الطول والعرض لها .

ثم تطرقت هذه المؤثرات الشرقية بواسطة اسبانيا الى الغرب
اللاتيني فذهب الى دراسة الفلك والتنجيم . وترجمت معظم
كتب الفلك الاسلامية في اسبانيا الى اللاتينية . وما جداول الفلك
الألفونسية التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر إلا
امثلة لمؤثرات علم الفلك العربي . ومن دراسات العرب للنجوم
حدثنا اصل علم المثلثات الكروية والاسطوانية . فالعرب هم الذين
وضعوا علم المثلثات كما وضعوا علمي الجبر والهندسة التحليلية . ومن
يطلع على اسماء النجوم التي تتحلى بها القبة الزرقاء يدرك حالا ان
الفلكيين العرب تركوا آثاراً خالدة تنطق بعبقريتهم واجتهادهم
واسماء جمهرة اسماء النجوم في اللغات الاوروبية عربية الاصل فنجد
امثال « العقرب » Acrab و « الجدي » Algedi و « الطائر » Altair
و « الفرقد » Pherkad بل ان كثيراً من مصطلحاتها الفلكية
يرجع الى الفاظ عربية امثال « السموت » azimuth و « النظير »
nadir و « السمت » zenith . وما هذا غير قليل من كثير مما
اتحف به الاسلام اوروبا المسيحية

ومن اهم المفردات الرياضية واشهرها لفظة « صفر » التي
استعارتها اللغات الاوروبية من العربية . نعم ان العرب لم يخترعوا
الصفر ولكنهم هم الذين ادخلوه مع الارقام الى اوروبا فعلّموا
الغربيين طريقة استخدامها وبذلك سهّلوا استعمال الحساب في
امور الحياة اليومية . وهذه الارقام تسمى عند العرب هندية لانهم
اقتبسوها عن الهنود ، ويسميها الاوروبيون عربية لانهم اخذوها عن
العرب .

على ان انتشار الارقام الهندية في اوربة عبر اسبانية كان بطيئاً جداً. فقد بقي معظم الحساب المسيحيين طيلة القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الارقام الرومانية القديمة القائمة على بعض حروف الهجاء. واستخدمت هذه الارقام بقصد علمية لاول مرة في ايطاليا. ففي سنة ١٢٠٢ رحل ليوناردو فيبوناتشي من اهالي بيزا — بعد ان درس على اساتذة مسلمين في جنوب العالم في شمالي افريقية. فنشر كتاباً كان المقدم الرئيسي في تعريف الارقام الهندية الى اوربة. زد على ذلك انه مهد الكتب التي تكتب بعد ذلك عن الرياضيات في اوربة. ولو بقيت الارقام القديمة المبنية على الحروف لما امكن ارتقاء علم الحساب في بعض فروعه. ولا مبالغة في القول ان علامة الصفر والارقام الهندية هي اساس علم الحساب على ما نعرفه اليوم.

وفي موضوع التاريخ الطبيعي، ولا سيما علم النبات، كما في الفلك والرياضيات زادت بحوث العلماء العرب في ثروة العلم. وقد ابدى العرب ملاحظات دقيقة في موضوع الفرق الجنسي النسبي بين النخيل والنبات، وقسموا النباتات على ما ينمو من البذور وما ينمو من الفسائل وما ينمو من تلقاء نفسه. وحوالي نهاية القرن الثاني عشر وضع ابن العوام رسالة في الزراعة هي اهم ما صنفه المسلمون في هذا الموضوع بل اهم مؤلفات العصور الوسطى فيه. وقد الكاتب الذي اقتبس بعض مواده عن اليونان القدماء وعن مصادر عربية وجاء بعضه نتيجة لاختبارات المزارعين في اسبانيا. يعالج ٥٨٥ نبتة ويشرح طريقة تربية اكثر من خمسين

شجرة مثمرة ويورد ملاحظات جديدة في موضوع التطعيم وفي
خصائص التربة والسماد ويبحث في أعراض عدة من امراض الاشجار
والكرمة مع اوصاف طرق معالجتها .

وكان اشهر علماء النبات والصيدلة في الاندلس بل في العالم
الاسلامي عبدالله بن احمد بن البيطار المتوفى في دمشق سنة ١٢٤٨
تاركاً وراءه اعظم رسائل العصور الوسطى في العلاجات البسيطة
بعنوان « الجامع في الادوية المفردة » .

وكان معظم الذين انصرفوا الى صنعة الطب من عرب الاندلس
يتخذونها مهنة كاملة اي حرفة يعيشون بمحصولها . فابن رشد وابن
ميمون وابن باجة وابن طفيل كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة . اما
ابن الخطيب كما قدمنا فكان مفكراً ومؤرخاً تقلد منصب الوزارة
شأن غيره من الاطباء . وفي عهده انتشر مرض الطاعون الهائل في
اوربا في منتصف القرن الرابع عشر ووقف [illegible]
[illegible] وقدراً وضع هذا الطبيب
الغرناطي اسم رسالة دافع فيها عن نظرية العدوى حسبما
يستدل من الفقرة التالية

« فان قيل كيف نسلم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا
وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار
المتواترة ، وهذه مواد البرهان . وغير خفي عن نظر في هذا الامر
وادركه هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالباً وسلامة من لا يباشره .
كذلك وقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او آنية حتى ان القرط اتلف
من علق بأذنه وأباد البيت باسره . ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة

ثم التقينا بهم في البلاد المشرقية ثم في جبالهم وقراهم ووجدنا آثارهم حافظة على يسمع الطرق . وفي مدى السواحل الصحيحة حتى يتبين من ان عن بها في البحر من عدة احرف قد شاع عن هذا ...

وكانت الثقافة مشرقية في القرون الأولى من الحكم الاسلامي الاندلسي ، منتشرة في مستوى عال ، وكان علماء الاندلس يرحلون في طلب الاستزادة من العلم الى مصر وسورية والعراق وفارس والى ما وراء نهر سيحون وجيحون ، حتى اذا كانت القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة انعكست الآية ، وخصوصا في القرن الثاني عشر ، حين بلغت المعارف الاندلسية اشدها وبلغت من الغزارة حداً جعلها تسيطر على اوربا . وفي نقل الكتب العربية الى اوربا لعبت افريقيا الشمالية العربية واسبانيا لا سيما طليطلة ، حيث عاش جيرارد الكريموني وميخائيل سكوت ، دوراً هاماً . وهكذا استطاعت المدنية لعناصر الثلاثة الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تلتقي في مركز واحد فتندمج . وبواسطة الترجمات انتقلت الى اللغات الاوربية اللاتينية الفاظ عربية كثيرة محرفة عن مفردات هذه اللغة

بيد ان اسمى درجات الرقي بين شعب الفكر العربي في الاندلس انما كانت في حقل الفلسفة . فهنا حكّام العرب آخر الحلقات وامسى في تلك السلسلة التي نقلت فلسفة اليونان الى الغرب اللاتيني بعد ان طبعها العرب في الشرق والغرب بطابعهم الخاص والبسوها ثوباً قشيباً . وكان اهم ما انجزوا في الفلسفة هو توفيقهم بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . فقد اعتبر مفكرو الاسلام ان تعاليم

ارسطو وتعاليم افلاطون وتعاليم القرآن كلها تعاليم صادقة . وآمنوا بان الصدق واحد لا يتجزأ وانه فلا بد من التوفيق بين هذه التعاليم الثلاثة وادماجها في نظام موحد . هذا وجه علماء الاسلام جهودهم الى معالجة هذه المعضلة . ولقد واجه فلاسفة النصارى المدرسيون (السكولاستيك) المعضلة عينها الا ان مهمتهم كانت اصعب لما حواه اللاهوت عندهم من تراكم الطقوس والاسرار الكنسية . والحق ان الفلسفة كما وضعها اليونان وديانة التوحيد الى اشهر انبياء العبرانيين كانت ، حسب شرحنا سابقاً ، اثمن ما للغرب القديم والشرق القديم من تراث واسع .

وبعد انقضاء العصور المظلمة وفجر الحقبة المدرسية تدفقت الافكار الجديدة عن طريق الاندلس الى اوربا الغربية ، لا سيما في الفلسفة والطب . فالواقع ان هذا الاحتكاك بالفكر العربي والفلسفة اليونانية عن طريق العربية احيا الفكر وانعش الروح العلمية والفلسفية في اوربا وقادها سراعاً الى حقبة فكرية جديدة مستقلة ادت الى النهضة الفكرية الحديثة التي لا نزال نجني الى اليوم ثمراتها .

ولا يمكن ان نذكر في هذه العجالة الا بعض من أعلام الفلسفة في الاندلس . منهم ابن طفيل الذي توفي سنة ١١٨٥ واهم مؤلفاته رواية فلسفية مبتكرة عنوانها « حي بن يقظان » وتقوم الفكرة الاساسية في هذه الرواية على ان المقدرة الانسانية تكفي دون مساعدة خارجية للتوصل الى معرفة الله العلوي وان في وسعها الوقوف تدريجياً على ضرورة الكائن الاعلى . وقد

نُقلت هذه الطرفة التي تعدّ من امتع ما في ادب العصور
الوسطى واشدّه ابتكاراً الى اللاتينية سنة ١٦٧١ ، ثم نُقلت الى
معظم لغات اوروبا حسب الهولاندية ١٦٧٢ والروسية ١٩٢٠
والاسبانية ١٩٣٤) وقد حاول بعضهم ان يجعلها مصدراً لقصة
« روبنصن كروزو » Robinson Crusoe الانكليزية المعروفة .

أما اعظم فلاسفة الاسلام تأثيراً في الغرب فصاحب
المذهب الاندلسي العربي ابن رشد شارح ارسطو . وُلد ابن رشد في
قرطبة سنة ١١٢٦ وكان همّه ما اختلف به مذهب مؤلفه ، لكانت
في مذهب ، نشر ... الاخرى لا حسب مرة مرتين واوضح
بعده وطبعة شكله لعل . اما في العالم اليهودي والمسيحي فقد
شهرته فهي في الدرجة الاولى على مكانته كشارح لارسطو . ويجب
ان نذكر ان عمل الشرح في العصور الوسطى كان يقتضي على
وضع مؤلف علمي وضعي ... فيه على كتاب قديم كاسس
واطار . وقد شروح ابن رشد سلسلة ربما تحمل عنوان كتب
ارسطو مع نصوص مخطوطة . والحقيقة ان ابن رشد ينتمي الى اوروبا
النصرانية اكثر منه الى آسيا وافريقيا الاسلامية . فقد عرفه العرب
من بعده بلقب « الشارح » كما عرف ارسطو بلقب « المعلم » .
وليس من حركات حركة عقول ولا فلسفة اعتبرت في العصور
الوسطى بقدر ما حركتها كتابات ارسطو على ما شرحها ابن رشد .
وظلّت فلسفة ابن رشد من اواخر القرن الثاني عشر الى اخر
القرن السادس عشر مذهباً عمّ الفكر على الرغم من ردّ الفعل
الذي احدثته بين المسلمين في الشرق اولا والمسيحيين ثانياً

والاكليروس ثالثاً . وكان ابن رشد من القائلين بوجوب تحكيم
العقل في جميع الامور الا في عقائد الاديان المنزلة . ولكنه لم يكن
كما اعتقد الكثيرون ابا الفكر الحرّ والالحاد وعدو الاديان . وكان
اتباع ارسطو من المسلمين الاولين قد حسبوا بعض الكتب الملفقة
ومنها بعض مؤلفات المدرسة الافلاطونية الحديثة من وضع ارسطو
نفسه . اما الآن فقد جاءت فلسفة ابن رشد داعية الى العودة الى
فلسفة ارسطو العلمية الصحيحة غير المزيفة . وقد اعتبر بعض
رجال السلطة من الاكليروس كتابات ابن رشد وحسبوها من
امور غير مرغوب فيها فاصبحت كتباً للمدرسين في جامعة باريس
وسواها من معاهد العلم الغربي . والحق ان الحركة الفكرية التي
اوجدها ابن رشد بما فيها من نقص وما اصيب به من وهم
تعتبر عاملاً هاماً في الفكر الاوروبي حتى مولد العلم التجريبي الحديث .
وكان المقدم الاول بين فلاسفة هذا العصر بعد ابن رشد لهو صنوه
اليهودي ومواطنه الاندلسي ابن ميمون ، اشهر احبار اليهود
وفلاسفتهم طوال هذه الحقبة العربية . ولد ابن ميمون في قرطبة
سنة ١١٣٥ ولكن اسرته هجرت الاندلس بسبب الاضطهاد الذي
اثاره الموحدون ونزلت القاهرة حوالي سنة ١١٦٥ . وقد زعم
القفطي وابن أبي أُصيبعة ان ابن ميمون كان في الاندلس يدّعي
الاسلام علانية ويدرس اليهودية سراً فقد تعرّض مؤخراً لنقد
صارم . وفي القاهرة اصبح ابن ميمون طبيب البلاط في عهد صلاح
الدين وعهد ابنه الملك العزيز ومن سنة ١١٧٧ فما بعد شغل ابن
ميمون رئاسة امة اليهود في القاهرة وفيها مات عام ١٢٠٤ . وعلا

بوصفه حمل اتباعه حثيثاً على الانكفاء على الطريق التي سلكها بني
موسى فلا عجب في ظهوره من اعظم فلاسفتهم حيث لا يزال ضريحه
الوضيع مقصداً لجماهير الحجاج وإلى اليوم ترى ذوي الحاجة من
مرضى يهود مصر يطلبون الشفاء بالاقامة ليلاً في دهليز الكنيس
المسمى باسمه في القاهرة .

كان ابن ميمون متكلماً لاهوتياً وطبيباً ممتازاً . وكان فوق
ذلك كله فيلسوفاً . ففي علم الطب حبّذ طريقة الحمية وبسط علة
البواسير أي الامساك فوضع لها علاجاً عدم الحبيب المؤلف
اكثره من الخضر . كذلك اعتنق الفكرة القائلة بان حفظ الصحة
واشهر كتبه الطبية الفصول في الطب . وفي مؤلفه الرئيسي في
الفلسفة دلالة الحائرين حاول ان يوفّق بين اللاهوت اليهودي
وفلسفة ارسطو المعروفة عند العرب . وبكلمة اخرى سعى الى
التوفيق بين الايمان والعقل . ومن الرؤى المنسوبة في الاسفار المنزلة
فقد عالجها كامور ذاتية غير موضوعية . وبذلك وقف موقف المدافع
عن الفكرة العامة الحرة ضد فكرة حرفية النصوص فثار غضب
اللاهوتيين المحافظين الذين سموا كتابه ضلالة . أما آراؤه الفلسفية
المعبّر عنها في هذا المصنف وسواه فتطلع على غرار فلسفة
ابن رشد مع انه لم يعتمد على شيء في وضعه . وابن ميمون كابن
رشد لم يعرف اليونانية بل اعتمد على الترجمات العربية . اما نظرية
الخلق التي بسطها وانه لم يؤمن بها بحسب نظرية الجوهر الفرد التي
تختلف عن النظريتين الاخريين اللتين نادى بهما مفكرو العرب اي
نظرية الاسفار المقدسة التي قالت انه خلق كل شيء ونظرية

الصوفية في قول من اتباع الافلاطونية الحديثة واتباع ارسطو أو كتبه فقد وضعت كلها بالعربية ما عدا واحداً منها ، ولكن بحروف عبرية . ثم ما لبث ان نقلت الى العبرية وبعد ذلك برمتها الى اللاتينية وظل تأثيرها على توالي الزمن وتعدد الاقطار اشد ما يكون في اليهود والنصارى . وبقيت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي اوصلت الفكر اليهودي الى الاوساط غير اليهودية . ويبدو تأثيرها واضحاً في فلسفة سبينوزا Spinoza وكانت Kant وفي تعاليم بعض الدومنيكيين الكاثوليك كالبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ما عدا تلميذه توما الاكويني .

اما في التصوف فكان زعيم هذا العصر بلا منازع محيي الدين ابن عربي ، اعظم المفكرين من ارباب التصوف الاسلامي . وقد ولد ابن عربي في الاندلس ومات في دمشق سنة ١٢٤٠ ولا يزال ضريحه قائماً في احد مساجدها . وفي كتاب « الاسراء الى مقام الأسرى » شرح ابن عربي مفصلاً قصة الاسراء بمحمد وصعوده الى السماء السابعة ووضع بذلك مثالاً احتذاه على ما يظن معاصره دانتي ، اعظم شعراء ايطاليا .

وفي خلال القرن الثاني عشر كانت قد تمت نقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اوروبا ، بعد ان شقت السبل الفكرية الممتدة من ابواب طليطلة وصقلية عبر جبال البرانس وعرجت حتى بلغت بروفنس ومضايق الالب ثم انحدرت الى اللورين ولمبارديا واوروبا الوسطى وعبرت الخليج الى انكلترا واصبحت مرسيليا وتولوز وناربونة وسواها من مدن فرنسا الجنوبية مراكز هامة

للفكر العربي . اما في شرقي فرنسا فان مدينة كلوني التي آوت في ديرها الشهير عدداً من الرهبان الاسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزاً هاماً لنشر العلوم العربية وفيها أعدّ بطرس المبجل بيـــن (١١٤١ ــ ١١٤٣) اول ترجمة للقرآن الى اللاتينية ووضع عدة كتابات ناقش فيها عقائد الاسلام . وبفضل نقل العلم العربي بالتوارث في القرن العاشر اصبحت بلنسية مركزاً هاماً طوال القرون اللاحقة . وعدت ليج وغوردن وكولون وسواها من مدن اللورين احدى قواعد لنمو العلوم العربية . ومن اللورين مرت موجـــة الدراسات العربية الى بلاد الفلاندر ومنها انتقلت الى انكلترا النورمندية بواسطة علماء ولدوا وتعلموا في اللورين . وهكذا تغلغلت العلوم العربية الاندلسية الى اوربة الغربية

أفول نجم العروبة في الشرق والغرب

ان كان ثمّة ما يدعو لسرعة الدهشة التي تتملكنا في انتشار البادية العربية معظم العالم المتمدن في القرن الاسلامي الاول فهو سرعة انحطاط السلطة العربية منذ منتصف القرن الثالث والرابع من بعد محمد. فحوالي سنة ٨٢٠ كان قد استقام لخليفة بغداد من السلطة الواسعة ما لم يستقم لعاهل آخر في تلك العصور. حتى اذا كانت سنة ٩٢٠ كان الخليفة قد اضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها. ولم توافِ سنة ١٢٥٨ حتى سقطت بغداد واصبحت خراباً. وبسقوطها زال السؤدد العربي واضمحلت الزعامة العربية وانتهى تاريخ الخلافة العربية شاملة

واذا بحث الاسباب المؤدّية الى هذا الانحطاط والتمزق وجدنا ان هجمات القبائل البربرية من مغول وتتر على كثرتها وشدّتهـا

كانت في الواقع ثنوية . كذلك نشوء الدول العديدة والامارات
المستقلة في قلب الخلافة وعلى أطراف مختلفة ما كان الا عرضاً
من أعراض داء الخلافة لا سبباً من اسبابه . وقد مثّل الخلافة في ذلك
مثّل الامبراطورية الرومانية الغربية من قبل التي اصبحت بمثابة
رجل عليل على فراش الموت فسهل للخصوم فرصة مرضه فسطوا
على بيته ونهبوا حصصاً من ميراثه

ان العوامل الداخلية في سقوط الخلافة اهم من العوامل
الخارجية . وان القوى التي سلّم العثمانيون بمقتها لا ريب ادرك
الاسباب الحقيقية ولاحظ مفعولها خلال قرون . والكثير من
الفتوحات الاسلامية الاولى لم يكن الا سطحياً . ولم يكن طريقة
الحكم [illegible] من الاستبداد بحقوق الشعب واستغلاله وجباية
الخراج بما يبعث على الاستقرار والدوام . وقد بقيت الفوارق
الجنسية والمدنية بين العرب وغير العرب وبين المسلمين واهل
الذمة بعض مفعولها حتى في الجماعة العربية نفسها فالعداوة قديمة
بين اهل الشمال واهل الجنوب بقيت مستحكمة . ولم يكن هنالك
امتزاج كاف بين الفرس الايرانيين و [illegible] الطورانيين والبربر
الحاميين وبين العرب الساميين لتكوّنت منهم امة متجانسة
موحّدة من حيث [illegible] العنصر [illegible] بلا رابطة متينة تحكم
اوثاق بينها . فهؤلاء الايرانيون لم ينسوا قط مجدهم الشعبي القديم ولم
يرضوا بالنظام الجديد رضى تاماً . اما معشر البربر فلا ادلّ على
شعورهم القبلي وكثرة انسلاخهم من انتمائهم الى مختلف الفرق
الاسلامية غير السنيّة . كان اهل الشام لا يفتأون يترقبون ظهور

وعهد استقلالي يرفع عن كواهلهم كابوس الحكم العباسي . ولقد ظهر
حتى نطاق الدين نفسه من النزعات المتطرفة ما لا يقل اثراً عن
فعل الاحزاب السياسية في تقويض الامبراطورية . ومن هذه النزعات
نشأت الشيعة والقرامطة والاسماعيلية وجماعة اخوان الصفا وغيرهم .
الا ان هذه الفرق لم يقتصر اثرها على الدين وحده . فالقرامطة فصلوا
الجانب الشرقي من الامبراطورية عن جسمها . وما طال
امر لهم حتى استولوا على الامصار العربية . والواقع ان
الاسلام عجز عن دمج اتباعه في وحدة متراصة كما عجزت الخلافة
عن ربط الاراضي الممتدة من سفوح الحوض الى اواسط آسيا وجمعها كلها
دولة واحدة متماسكة

وهناك عوامل اجتماعية واخلاقية كان لها مفعولها في تفكك
عرى الدولة وتخريبها . فاختلاط دم العرب بغيرهم على كر
الاجيال مع الموالي افقدهم خصائصهم الذاتية وادّى الى ضياع سلطة
العرب . وبانحطاط الحس القومي لدى العرب وهنت قوى العرب
وضعفت معنوياتهم فانتقلت السيادة منهم تدريجاً الى ايدي الاقوام
المغلوبة حتى صارت لهم بكاملها . وكان للتسري وما نشأ من الحريم
والخصيان ضلع في تقويض معنويات الامة . ورافق ذلك اقتناء
الجواري والغلمان فادّى هذا كله الى انحطاط مقام المرأة وفساد
اخلاق الرجل . وبالسراري المتعددات تكاثر الابناء
المولودون من امهات مختلفات في بلاط الخلافة واتسع المجال للتحاسد
والحقد . وعظم الترف والبذخ وما يتبعه من الاسراف في الشرب والطعام
فكل هذه العوامل وما ماثلها انهكت حيوية الاسرة المالكة

فنتج عن ذلك ظهور اوائل عهد ضعفه الاخشيد و ... . ومما
زاد في الاضطراب ان حق التعاقب في الخلافة لم يكن منصوصاً
عليه بصراحة .

كذلك كان للعوامل الاقتصادية اثرها . فالخراج ارهق وحسم
البلاد فانقطعت تحكما ... الأسرة فصعب الحاجة او من
احمالي الزراعة والصناعة . فكان الشعب يزداد فقراً كما
ازداد الحكام غنىً وقد ... دويلات حتى دولة الترك ... الامر
منها انهار الزراعة وقد ادت الحروب المتواصلة الى نقص عدد الرجال
فغدت المزارع مهجورة خربة . وزاد تكرر الفيضان في انجاد
العراق الخوف ... في ... الامبراطورية في ...
القوم وشعبهم . وانتشرت الاوبئة من طاعون وجدري وملاريا
وسواها من ... وقد ... في العصور الوسطى
... في ... وقد سجلت
المدونات العربية للقرون الاربعة الاولى من التاريخ الاسلامي ما لا
يقل عن اربعين وباء كبيراً .

اما اسباب انحطاط السلطة الاسلامية في اسبانيا وغيرها من
الاقطار الاوربية فكانت على وجه العموم من نوع الاسباب
التي ادت الى سقوط الخلافة في الجهتين الشرقية والوسطى من
الامبراطورية . الا ان الضربة القاضية هنا جاءت على يد المسيحيين
لا المغول . فعلى اطلال الخلافة الاموية في قرطبة التي سقطت
سنة ١٠٣١ نشأت مجموعة من دويلات اسلامية صغيرة انهمكت دولها
في الخصومات . فشهد النصف الاول من القرن الحادي عشر ما لا يقل

عن عشرين دولة دمت في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة وسادها زعماء وأمراء يعرفون بـ « ملوك الطوائف ». واستتبت الزعامة الأولية في البداية لإشبيلية التي تتمتع بلا ريب بحصة من الازدهار لم تبزّها فيه غير قرطبة . وقبل انصرام القرن وقعت دولة إشبيلية مثل غيرها فريسة لدولة من بربر مراكش . ومن هنا ابتدأت زعامة البربر في إسبانيا .

وعُرفت دولة البربر التي حكمت افريقيا الشمالية العربية والأندلس (١٠٩٠ – ١١٤٧) بدولة المرابطين . والمرابطون في الأصل أخوة دينية عسكرية كانوا كأحفادهم « الطوارق » يضربون في صحاري الجزائر إلى هذا اليوم ، يغطون وجوههم بما دون العيون باللثام ، فعُرفوا بالملثمين . وتلا هذه الدولة دولة أخرى من البربر عُرفت بدولة الموحدين . أما أشهر دولة من دول الطوائف العربية فكانت دولة بني نصر في غرناطة التي شاد أحد أفرادها محمد الملقب بالغالب (١٢٣٢ – ١٢٧٣) دارة الشهيرة في الخافقين بالحمراء .

والواقع ان انحطاط السيادة الاسلامية قد بدأ بنشوء دُويلات ملوك الطوائف في الشرق وفي الغرب . وإذا كان لا يصعب هنا تتبع تقدمات هذه الدويلات فحسبنا على الأقل تدوين أهم من هذه القصة لا سيما قصة عهد السيادة الاسلامية الأخير في أوربا . وهي قصة ممتعة تدل بما وضوح على الجهد نحو الاندماج والتنسيق بين مختلف الشعوب والثقافات حتى في الأوقات التي كانت تحاول الفئة فيها إبادة الأخرى . والحق ان مقدرة المرء على تحاشي غيره عنه وفيه دليل على ما في مدنيته من رفعة ودعومة .

بدأ استرجاع النصارى للأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية في القرن الحادي عشر . والواقع ان المؤرخين الاسبان يعتبرون موقعة كوفادونجا Covadonga سنة ٧١٨ التي صدّ فيها الزعيم الاستوري بلايو Pelayo تقدّم المسلمين بدء عهد الاسترجاع . ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في الهضبة الشمالية لكان تاريخ اسبانيا التالي غير ما هو عليه اليوم . وقد عاق عملية الاسترجاع في اول الأمر النزاع والتناحر بين زعماء النصارى في الشمال ولكنها زادت سرعة عندما تمّ توحيد قشتالة وليون سنة ١٢٣٠ . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تمّ تقريباً استرجاع البلاد بسرعة باستثناء غرناطة التي بقيت بيدي المسلمين . وكانت طليطلة قد سقطت سنة ١٠٨٥ وتبعتها قرطبة في ١٢٣٦ واشبيلية في ١٢٤٨ .

واستهدفت اسبانيا بعد منتصف القرن الثالث عشر مهمّتين رئيسيتين . اولا تنصير البلاد وثانياً توحيدها . وقد اختلف تنصير البلاد عن استرجاع ممالكها وعن توحيدها . فالقسم الوحيد من شبه جزيرة ايبيريا الذي تأصلت فيه جذور الاسلام كان حيث زهت الحضارة السامية القرطجنية من قبل . ومثل ذلك يصدق على صقلية ، وهو امر له اهميته . فعلى وجه العموم كان الحد الفاصل بين الاسلام والنصرانية يطابق الخط الفاصل القديم بين المنطقة القرطجنية والمنطقة العربية . ولم يحل القرن الثالث عشر حتى اصبح الكثيرون من المسلمين في طول البلاد وعرضها تحت سلطة النصارى إما بالعنف او بمعاهدة . ولكنهم في ما عدا ذلك

محافظين على شرائعهم ودينهم . وقد أطلق على أمثال هؤلاء من
المسلمين اسم المدجّنين . وكثيرون منهم كانوا قد نسوا العربية
لغة الرومنس الاسبانية واستعملوا في كتابتها العربية

لم يكن يوجد اسبانيا حتى ذلك الوقت ولكنه كان أكيدًا
وكانت البلدان المسيحية كلها آخذة تتألف من مملكتي قشتالة
وأراغون . وبعد زواج فردنند ملك أراغون من ايزابيل
ملكة قشتالة في سنة ١٤٦٩ صار يوجد المملكتان وحدة تامة
وقد قضت على سلطة المسلمين في اسبانيا . ولم يكن في مقدور
ملوك بني نصر الصمود امام هذا الخطر المتزايد . وقد
تورّط المسلمون منهم في مشاكل داخلية زادت مركزهم تقلقلا
وتعاقب من السلاطين واحد وعشرون ممن حكموا البلاد من
سنة ١٢٣٢ الى ١٤٩٢ سنة تولّى كل منهم الأمر مرتين ، وواحد
تولاه ثلاثًا . وفي ٢ كانون الثاني من سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة التي
كشف فيها كولمبس اميركا ، دخلت الجيوش المسيحية غرناطة
بعد حصار طويل شديد وحلّ الصليب محل الهلال في ابراجها

ولكنّ صاحبي الجلالة الكاثوليكية فردينند وايزابيل نكثا
العهد ونقضا الشروط . ففي سنة ١٤٩٩ انتدب الكاردينال خيمينس
Ximenez كاهن الملكة الخاص ليتزعم حملة اكراه المسلمين على
التنصّر . واراد الكاردينال اول الامر مصادرة الكتب العربية
التي تعنى بالاسلام وحرقها . وفي غرناطة جمعت المخطوطات العربية
أكوامًا أضرمت النار فيها . ثم أنشئ ديوان التفتيش وهو من
الدواوين التي حازت معظم الشهرة في التاريخ . وعذّب كثيرون

من المسلمين في مغادرة البلاد . فمن لم يهاجر من البلاد من المسلمين
بعد سقوط غرناطة سمي بالـ « موريسكو » Morisco وهي لفظة
اطلقت اولاً على معتنقي الاسلام من الاسبانيين . وكان الرومان
قد اطلقوا على افريقية الغربية اسم « موريتانيا » وعلى سكانها
« موري » ولعل اصل هذه اللفظة فينيقي وهي « غربي » . وهكذا
صار الاسم بالاسبانية « مورو » Moro وفي الانكليزية « مور »
Moor . والبربر هم المور الحقيقيون . غير ان هذه اللفظة أطلقت
اصطلاحاً على كل مسلمي اسبانيا وافريقية الشمالية الغربية . فبعض
الملاويين من مسلمي جزر الفلبين لا يزالون يعرفون بهذا الاسم .
وقد اطلقه الاسبانيون عليهم عندما اكتشف ماجلان هذه الجزائر
في سنة ١٥٢١ .

وكان للمسلمين من الاسبان لغة رومانسية ، الا انهم استخدموا
حروفاً عربية لكتابتها . ويعتز الكثيرون من الموريسكو ، بما
لم يكن لاجدادهم ، من اصل اسباني . وقد جرى الاسبان بتذكيرهم
بان اجدادهم قد كانوا نصارى وان عليهم قبول المعمودية او تحمل
العواقب . ودخل المدجنون والموريسكو في فئة واحدة فتظاهر
الكثيرون منهم بالنصرانية لكنهم مارسوا الاسلام سراً . وتزوج
كثيرون منهم علناً وفق شعائر المسيحية ثم عادوا وتزوجوا سراً
حسب السنة الاسلامية . ومنهم من اتخذ اسماً مسيحياً عرفه به
الناس وآخر عربياً عرف به سراً . وفي سنة ١٥٠١ صدرت ارادة
ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين اما بالرجوع
عن دينهم او بالجلاء عن البلاد . والظاهر ان هذه الارادة لم تنفذ

وفي سنة ١٥٢٦ واجه مسلمو الأراغون المعاملة نفسها . وفي سنة ١٥٥٦ اصدر فيليب الثاني قانوناً يقضي على البقية الباقية من المسلمين بالتخلي فوراً عن لغتهم وعاداتهم ومعتقداتهم وعاداتهم . وامر ايضاً بهدم الحمّامات الاسبانية باعتبارها من تراث عهد الالحاد فتعالت الشكوى بين المسلمين ونشبت الثورة بصورة اشد في غرناطة وانتشرت الى ما جاورها من الجبال ، الا ان امرها لم يطل . اما القرار الاخير بالطرد فقد اصدره فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنه إجلاء كل المسلمين تقريباً عن الاراضي الاسبانية قسراً . وقيل ان عدد الذين جرى نفيهم على هذه الطريقة بلغ نصف مليون نزل بعضهم سواحل افريقيا وركب بعضهم الآخر سفناً حملتهم الى اقاصي البلدان الاسلامية . ومن هؤلاء الموريسكو تألف معظم قراصنة البحر المراكشي . وبهذا انحلت المشكلة الاسلامية في اسبانيا التي شذت عن القاعدة القائلة بثبوت المدنية العربية الدائم حيثما حدثت اقدام العرب . وبهذه المناسبة يقول احد ثقات الاسكليروس الحديثين . « ان نفي المسلمين عن البلاد واشرق بعدها اسبانيا المسيحية ردحاً من الزمن كالقمر ذي النور المستعار ثم حل الخسوف ، وما زالت البلاد تتسكع في الظلمات منذ ذلك الحين »

واندرست جميع معالم الفن الديني في الاندلس ما عدا مسجد قرطبة ، وهو من أقدم تلك الآثار واعجبها . وضع اساسه عبد الرحمن الاول سنة ٧٨٦ في الموقع الذي قامت فيه كنيسة كانت في الاصل هيكلاً رومانياً . وأكمل ابنه هشام الاول الجامع الرئيسي من هذا المسجد سنة ٧٩٣ واضاف اليه مئذنة مربعة الشكل .

وقد اتبع في بناء هذه الاسبانية الانموذج الافريقي الراجع الى
اصل شامي . وكان يدعم سقف هذا المسجد ١٢٩٣ عموداً ظهرت
كأنها غابة كثيفة الاشجار . وأتي بعواميد مختلفة جمعت من
اطلال الكنائس وكان في كل واحدة يوقد فيها ألف مصباح .
أما صخري هذه فقد تهدمت وكان فيها اثنا عشر مصباحاً . واستخدم
في زخرفة الجامع بيزنطيون مهرة شتى حتى قيل انهم استخدموا
في بناء المسجد بالشام . وكان مؤسسه قد انفق في بنائه نحو الف
قطعة ذهب من عشرة نقود . وظلت عملية التوسيع والاصلاح
تتداول ابنية هذا المسجد حتى زمن الحاجب المنصور ٩٧٧ - ١٠٠٢ ،
وهو سور كالمدرسة حين امر بعدد الصعود .

أما الآثار المدنية فأعجبها القصر (Alcazar) في اشبيلية
والحمراء في غرناطة وهي من الآثار الجميلة بمحاسن من الزخرفة
العربية البديعة . واقدم قسم من القصر في اشبيلية بناه مهندس
معماري حديث يعتني لاحد ملوك الموحدين سنة ١١٩٩ - ١٢٠٠ .
والموحدون هم الذين خلفوا الدولة المرابطية التي حكمت الاندلس بعد
دولة المرابطين . ثم اعيد بناء هذا القصر على الطراز الاسلامي بأمر
بطرس الصارم سنة ١٣٥٣ . وقد قام بذلك بعض صناع المدجنين
وزينته الاسرة المالكة بعد سنين . وليس من قصور الاندلس
الشهيرة في قرطبة وطليطلة وسواها ما هو قائم الى اليوم إلا
قصر اشبيلية وهو اشهرها . ومما يؤسف له ان هذا القصر اصيب
باضرار خلال الثورة الاسبانية الاهلية الاخيرة .

واما في الزخرفة الاسبانية العربية فمبلغ رقي محاسنه في قصر

الحمراء . والحق ان هذا « الاكروبيس » غرناطة ، فيه من
الافراط في التزويق والتعقيد والمبالغات الكثيرة من السقوف
ونقوش وعناصر تطبعه جميعه ، تجعله افخر ما بني من هذا النوع .
وكان محمد الاول الغالب بالله من بني نصر قد شرع في بناء الحمراء حوالي
سنة ١٢٤٨ . ولكن بناءها لم يتم حتى منتصف القرن الرابع عشر

وكانت القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة البناء
الاسلامية في الغرب معروفة في الشرق الادنى قبل الاسلام . وقد
ظهر شكلها النعلي المستدير في الجامع الاموي في دمشق . وكان هذا
النوع الاخير الذي عرف في الغرب « بالقنطرة المغربية » معروفا
بلا شك في اسبانيا قبل الفتح العربي ويكفي ان البنائين الاسبانيين
بمهارة اهل قرطبة ادركوا امكانياته الفنية والزخرفية فاعتنقوه
فيما . وثمة حركة هندسية عربية قرطبية هي تحول نهاية الاقبية
القائمة على قسي متقاطعة وضلوع حجرية متقاطعة . فهذه وسواها
من خصائص الفن المعماري ازدهرت في قرطبة وانتقلت منها على
يد المستعربين الى طليطلة وسواها من مراكز الشمال في شبه
الجزيرة . ومن هنالك خارج النفوذ العربي والنفوذ الاسلامي
أنموذج جديد في الفن المعماري قوامه المداخل المعقودة والاقبية .
وبلغ هذا الفن الممزوج على ايدي الصناع المدجنين درجة عالية
من الجمال والكمال فلم يلبث ان برز فنا اسبانيا قوميا .

ولقد ظل لاهل الرقص والغناء من العرب نصيب وافر في
عرض الملاهي على أنواعها في اسبانيا والبرتغال الى ما بعد سقوط غرناطة
بزمن طويل . ويميل البحث بعض المستشرقين الاسبان الى الاعتقاد

دان موسيقى اسبانيا الشعبية لا بل موسيقى الجنوب الغربي من اوربا
خلال القرون الثالث عشر وما بعدها. ثم ان الروايات الغرامية العاطفية
والروحية في تلك الاوساط، ترجع في الاصل الى منبع اندلسي
وعن طريق العربية الى مصادر فارسية وبيزنطية ويونانية. وكما ان
الفلسفة وعلم الرياضيات واغلب العلوم من بلاد اليونان وروما الى
بيزنطية وفارس وبغداد ثم الى اسبانيا ومنها الى كافة انحاء اوربا
هكذا انتقلت عدة فروع من الموسيقى الشرقية العربية.

وليس من شك في ان البلاد الاوربية الوحيدة التي رضخت لحكم
العرب بعد اسبانيا هي صقلية. ففي سنة ٦٥٢ وجه
العرب حملات متقطعة للاستيلاء على هذه الجزيرة ولكن فتحها تم
سنة ٨٢٧. وعدت صقلية ضمن املاك واسعة والثغور الثمينة
التي [illegible] تحت سلطة حكام مستقلين خضعوا كليا او جزئيا لخليفة
من العالم العربي وعاصمته [illegible].

وكما كانت اسبانيا مركزا لنشر الغزوات الاسلامية على الشمال
واحتلاله موقتاً هكذا اصبحت صقلية منصة الى ايطاليا وحملات
العرب عليها. وكان الامير ابراهيم الثاني من الاغالبة بتونس الذين
حكموا صقلية قد حرّك قبل موته سنة ٩٠٢ حملات عبر المضيق
الى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بقلّورية
(كلابريا). وهو من اول عربي وطئت قدماه تربة ايطاليا.
وبعد سقوط [illegible] بوقت قصير احد قواد الأغالبة من افريقيا
الشمالية [illegible] في [illegible] من سكان ايطاليا
الجنوبية [illegible] (الكلب) و (الاجم) من [illegible] الايطالية [illegible]

يومئذ لا يزالون خاضعين للامبراطور البوزنطي . ولما استنجدت
نابُل (نابولي) سنة ٨٣٨ بالعرب لم يترددوا في تلبيته . وصارت
محطات جنى وروصوص تونس صحبت الحرب . وبعد مضي اربع
سنوات وقعت باري على البحر الادرياتيكي في يد المسلمين واصبحت
القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين السنة اللاحقة . وفي هذه الآونة
ظهر الصقالبة بجوار مدينة قسيس . وفي سنة ٨٤٦ هددوا
رومة بعد ان نزلوا في مصب نهر التيبر اوستيا Ostia .
واذ عجزوا عن اختراق اسوار المدينة المقدسة كاتدرائية القديس
بطرس في هذه الدكاكين وكاتدرائية القديس بولس خارج الاسوار
ونبشوا قبور الاموات . وبعد ثلاث سنوات وصل اسطول اسلامي
آخر مرة اوستيا ، الا ان الاسطول الايطالي تمكن بمساعدة عاصفة
غربية هوجاء من القضاء عليه . وهذه الصورة من رسم رافائيل تمثل
هذه الموقعة البحرية وهي في روما بالفاتيكان . الا ان سيطرة المسلمين
على ايطاليا بقيت محكمة حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢)
رأى من الحكمة اداء الجزية لهم طوال سنتين

ولم يقتصر الأغالبة بعملهم الحربية في شواطئ ايطاليا . ففي
سنة ٨٦٩ فتحوا جزيرة مالطة . ومن ابطال ومسلمين امتدت في
القرن العاشر غزوات تعرضت من مضايق الألب حتى اوربا الوسطى .
وفي الألب اليوم عدد من القلاع والاسوار التي يقول الادلاء
للسياح انها ترتقي الى الفتح الاسلامي . ويعتقد ان اسماء بعض الاماكن
في سويسرا عربية الاصل .

وحين استرجع البيزنطيون باري (سنة ٨٧١) بدأت نهاية الخطر

على ايطاليا واوربة الوسطى من الشمال . وكان قواد الجيش العربي في صقلية قد جمع جمهرة الامراء اتخذوا لانفسهم ، سلاطين ، مستقلين عن الامير المقيم في باليرمو . وفي سنة ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي باسيليوس الاول فانتزع طرنت (تارنتو) ، وهي قلعة حصينة ، من ايدي المسلمين في قالورية . ومنذ اصبحت آخر مراحل التوسع العظيم ابدي كانت جزيرة في حوزة العرب الثابتة قبل منتصف القرن . وحتى هذا اليوم تجد الشاطيء الجنوبي الى الجنوب من نابولي Naples لا يزال يضم عدداً من الابراج العربية التي كانت تستخدم للاعلان عن مقدم الاساطيل العربية من صقلية أو من افريقيا .

وبدأ الفتح النورمندي لجزيرة صقلية باحتلال الكونت روجر Roger بن تانكرد دي هوتفيل Tancred de Hauteville في سنة ١٠٦٠ لمدينة مسينا ، الامر الذي انتهى الى سقوط باليرمو سنة ١٠٧١ وسرقوسة (Syracuse) في ١٠٨٥ . وانتهى الاستيلاء على كل الجزيرة في ١٠٩١ . وفي سنة ١٠٩٠ احتل روجر مالطة . وقد كان هؤلاء النورمنديون الاشداء دولة قوية في اقطار الاوربية ، وها هم الآن يثبتون اقدامهم في الممتلكات الجديدة .

وشاهدت صقلية في عهد النورمنديين ظهور ثقافة مسيحية اسلامية رفيعة ، وسرت الى عموم الجزيرة . وهي حصيلة التركيبات العديدة السابقة ، صلة اخذت عربية بمجرى الثقافة الشرقية التي امتزجت بتراث الجنوب والروم ، التي قدرت تشكل حياتها تحت لواء الحكم النورمندي وصبغت ثقافة النورمنديين بعزمها

الحاجة . وكان العرب الى هذا متمسكين بحروبهم وخصوماتهم فلم يتسع لهم الوقت ليرقّوا الفنون التي تروج ايام السلم . اما الآن فقد اطلقوا العنان لمواهبهم الخصبة واخرجوا للناس فناً في الفن والثقافة العربية النورمندية .

ومع أن روجر الاول كان محارباً غير مثقف فقد جعل معظم جيش امته من المسلمين وشمل العلوم العربية بعطفه فاحاط نفسه بالفلاسفة الشرقيين والمنجمين والاطباء ، ومنح غير النصارى كامل الحرية في ممارسة طقوسهم ، حتى ان بلاطه في بلرم كان شرقياً اكثر منه غربياً . وبقيت صقلية مدة تزيد على قرن فريدة من حيث كونها مملكة نصرانية اسندت بعض المناصب العليا فيها الى رجال مسلمين .

وأقدم وثيقة مكتوبة على الورق في اوربا هي التي تتضمن امراً دارياً اصدرته باللغة اليونانية والعربية زوج روجر الاول وذلك في الراجح سنة ١١٠٩ . والمظنون ان هذه الوثيقة كتبت على ورق استورده عرب صقلية من الشرق

وكان روجر الاول اوّل من احتضن العرب من ملوك صقلية . وتلاه في نهجه ابنه روجر الثاني (١١٣٠ — ١١٥٤) . ثم فردريك الثاني . اما روجر الثاني فارتدى الملابس الاسلامية حتى دعوه « الملك نصف الوثني » . وكانت جبته تزدان بالحروف العربية . وفي ولاية حفيده وليم الثاني (١١٦٦ — ١١٨٩) شاهد ابن جبير ان النساء النصرانيات في بلرم يخرجن في زي المسلمات .

وكان الادريسي وهو اشهر من نبغ في الجغرافية ورسم الخرائط في

العصور الوسطى انبغ شخصية ارتادت بلاط روجر الثاني . ولد
ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي سنة ١١٠٠ من ابوين عربيين
اندلسيين وتوفي سنة ١١٦٦ . وبعث مواهبه في بلرم حيث
وقف حياته على الاشراف الادبي برعاية روجر الذي ...
رسالته (كتاب روجر) الموسوعة . نزهة المشتاق في اختراق
الآفاق . فلا تقتصر اهميتها على معالجة موضوعات الرئيسية حتى
تعتبر من الكتب النفيسة كمؤلفات بطليموس والمسعودي ...
فقد في الدرجة الاولى على تجربة مشاهداته حيث السفر ... كان
قد اوفدهم في بعثات منظمة كي تزوده بالمعلومات والملاحظات .
وقد اظهر الادريسي في عرضه هذه المواد وتحري حقائقها رجاحة
عقل كبرى ، ونبه لدقائق الامور كقوله بكروية الارض ،
وهو الذي عيّن منبع نهر النيل في بحيرات الاستوائية على
الرغم من ان الرأي الشائع بان اكتشاف منبع هذا النهر لم يتم الا في
اواسط القرن التاسع عشر . وفضلاً عن هذا المؤلف الضخم فان
الادريسي صنع لروجر بعض ... كرة سماوية وخريطة للعالم
في شكل قرص ، وكلاهما من الفضة .

كان روجر الثاني احد سلطاني صقلية المعتمدين . اما
السلطان الآخر فهو حفيده فردريك الثاني الذي بسط حكمه على
صقلية والمانيا ، وعلاوة على ذلك فقد توج سنة ١٢٢٠ لقب
الامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة . وقد اصبح ملك
بيت المقدس بفضل زواجه من وارثة العهد ايزابيل البريانية
Isabelle of Brienne . واذاً فقد كان الامبراطور فردريك اعظم

صفحة مدنية في العالم المسيحي لذلك العهد . وبعد زواجه بثلاث
سنوات دخل مملكة صقلية عن طريق الوراثة وقد ازداد تأثره بالافكار
الاسلامية .

وكان فردريك في عاداته الشخصية وحياته الرسمية شبه شرقي
حتى انه اقام لنفسه بيت حريم شرقي . وبرز في بلاطه فلاسفة من
سوريه وبغداد ذوو لحى مسترسلة وملابس فضفاضة وقيان وراقصات
شرقيات ويهود شرقيون وغربيون . ولقد اظهر اهتماماً خاصاً بالعلم
الاسلامي حتى في علاقاته السياسية والتجارية وخاصة مع الكامل سلطان
مصر الايوبي . واستدعى اخصائيين من مصر لاجراء التجارب في
تفقيس البيض وتحضينها بحرارة الشمس . واحضر من سوريه رجالاً
ذوي كفاءة وبراعة في ترويض البزاة ، وكان يراقبهم في تدريب
هذه الطيور التي كان يجري التجارب عليها بعد أن يخيط عيونها ويطلقها
ليتحقق ما اذا كانت تهتدي الى طعامها بواسطة حاسة الشمّ . وعهد
الى ترجمانه ومنجّمه ثيودور ، تيودور ، وهو نصراني يعقوبي من
انطاكية بنقل رسالة عربية في موضوع البزاة . وبعد الترجمة ،
وترجمة اخرى من الفارسية ، دوّن اسس الكتاب الذي وضعه
فردريك في ترويض البزاة والصقور . وهو اول مصنّف في التاريخ
الطبيعي . وكان قد سبق ثيودور في خدمة البلاط المنجم ميخائيل
سكوت الذي تثقف بالعلوم الاسلامية في صقلية واسبانيا من
سنة ١٢٢٠ – ١٢٣٦ ، وقد اهدى ميخائيل سكوت للامبراطور
عن طريق الترجمة من العربية الى اللاتينية موجزاً يضمّن خلاصة
مؤلفات ارسطو في البيولوجيا وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا

فقدّمه الى وليّ نعمته . فهذه الروح التي تكاد تكون حديثة روح التنقيب والبحث والاختبار العلمي التي امتاز بها بلاط فردريك كانت فاتحة عصر النهضة لعصبة الاطليه .

اما أعظم ما في فردريك فتأسيس جامعة نابل في سنة ١٢٢٤ وهي اول جامعة في اوربا نشأت بارادة رسمية . وقد اودع فردريك هذه الجامعة مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية . وامر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد لتصبح كتباً تدرس فيها . وقد ارسلت نسخ من هذه الترجمات الى جامعتي باريس وبولونيا Bologna . وكان في عداد تلامذة جامعة نابل توماس الأكويني احد اعلام الفلسفة المسيحية المدرسية (سكولاستيك) . وفي القرن الرابع عشر والقرون اللاحقة غدت الدراسات العربية جزءاً من منهج عدة جامعات في اوربا ومنها جامعتا اكسفورد وباريس . ويكون الباعث على ذلك احياناً ما كان عليه سابقاً ويرمي الى ان يكون إعداد المرسلين المسيحيين في البلدان الاسلامية .

وكانت صقلية بقيت تلاقي ثقافتين متباينتين . ولقد توفرت فيها الأسباب لتكون واسطة لنقل علوم العصور القديمة والعصور الوسطى . وكان سكانها يتألفون من عنصرين عنصر يوناني يتكلم اليونانية وآخر اسلامي يتكلم العربية وفئة ثالثة من العلماء يحسن افرادها اللاتينية . فدرجت هذه اللغات الثلاث على ألسنة القوم في المجالس العامة والخاصة واستخدمت في السجلات الرسمية وفي إصدار البراءات الملكية .

وما كان الملوك النورمنديون وخلفاؤهم يحكمون علاوة على

جزيرة صقلية ايطاليا الجنوبية فقد تسنى لمملكتهم أن تكون جسراً
تعبر عليه شتى عناصر الثقافة الاسلامية الى شبه الجزيرة الايطالية
واوربا الوسطى. وحوالي منتصف القرن العاشر بدأت آثار العلوم
العربية تظهر في شعر الاسبان أما الروح الذاتي في الآخرة فقد تكون
غير مستمدة رأساً من مصدر عربي معين ولكنه لا ريب في أنهـــا
شرقية الاصل استمدها هـــذا الشعر من ادب اوربا الغربي بعد ذلك
العهد. وهـــذه المؤثرات الشرقية التي تسربت الى العرب بواسطة
بحور بحيثه ظاهرة في مبدأ الشعر في عصـــر وادب
والقصص الشعبي الاسبوني وحذاق الذين يزدهرون في صقلية وجنوبي
ايطاليا لأمد طويل بعد خضوع صقليـــة والقسم الجنوبي من شبه
الجزيرة للحكم المسيحي تشهد بذلك أنواع عديـــدة والنقوش في
كنيسة بلاطين ... في معين خلد كل شهير ادبي جديد
امراء المسلمين في مصر ... فقد بدأ اوربا بشأن
الرسمية مطرزة بعبارات العربية ومع الصب علـــى المنسوجات
الشرقية درجة عظمى حتى ان الاوربي لم يكن يحسب نفسه حسن
الهندام ما لم يكن في حوزته رداء شرقي واحد على الاقل

وفي خلال القرن الخامس عشر عندما كانت البندقية (فينيس)
المسيطرة على الاسواق الشرقية وعملت على نشرها اكتسبت الكتب
المجلّدة في المصانع الايطالية جدة شرقية وظهرت الكتب المسجعة
حاملة خصائص التجليد العربي ومن اهمها دقة الجدالي تحتوي على
اشكال لصب بة متقدمة وفي الوقت نفسه تنقل صنع عدة مدن
ايطالية، عن الصنع الشرقي، صرفاً جديدة في زخرفة جدلي



صقلية وايطاليا الجنوبية من القرن العاشر الى القرن الحادي عشر

عن « الاحتلال الاسلامي » [illegible] ص ٨٧

الكتاب وترتيب الرسوم . وزد على ذلك ان افريقيـــة أصبحت
موطن صناعة عربية أخرى قائمة على ترصيع النحاس الاحمر بالذهب
أو الفضة أو النحاس الاحمر وعلى الخزف ذي [illegible] من حيث
نقلها الثقافة الاسلامية جديدة تجزئة [illegible] دول [illegible] وفوق
سورية شأناً في زمن الحروب الصليبية

وفي الوقت الذي كان يقضى فيه على آثار السلطة الاسلامية
في الاندلس كانت الخلافة في بغداد بعد انقضاء الاجيال الاخيرة تقاسي
الفتن الدموية والدسائس في الدولة . وظهور الدولة الطولونية في
قلب الخلافة الاسلامية خلال القرن التاسع دل بوضوح على ما
أصاب هذه الخلافة من الكوارث وعلى ضعفها وهوانها . ولقد
كانت الدولة الطولونية اول مثال [illegible] نفوذ العنصر التركي
الذي لم يكن له من قبل اي خطورة . ولم تلبث ان اعقبت هذه
الدولة دويلات تركية اخرى ذات شأن ومدى . ومثال احمد بن
طولون الذي استولى على السلطة سنة ٨٦٨ لا يمثل الا كثيرين
ممن شيدوا على انقاض الخلافة المتداعية دويلات تستقل عن الخلافة
استقلالاً تاماً او اعترفت بمجرد السيادة فقط . وسيرة احمد تبرهن
على مقدار الاستقلال الذي تمكن القواد الطولونيون من الاستئثار
به عند اعتمادهم على الجيش واخراجهم [illegible] على حساب
الحكومة المركزية التي [illegible] وسعة [illegible]
واقتصرت دون ادارتها [illegible] الا ان الدولة الطولونية وما
اعقبها من دويلات لم تمكن تركيز على [illegible] قومي في البلاد التي
تولتها ولذلك لم تعش طويلاً . وكان مصدر الضعف فيها عدم وجود

حركة كبيرة في البلاد من العنصر الحاكم نفسه الدولة . والحكام انفسهم انفسهم كانوا غرباء معتمدين انتصروا بحرس او جيش مأجور افراده دخلاء على البلاد على ان سلطانا كهذا لا يدوم ولا دعومة القائمة من ذوي الشخصيات البارزة والمواهب الفائقة . حتى اذا ما فقدت ثمة مثيل الدولة او امراؤها اعتور الانحلال جسم الدولة كلها فلا عجب اذا كانت الدولة التي شيدها ابن طولون رجعت الى حوزة العباسيين في ولاية شيبان (٩٠٤ – ٩٠٥) اخر ورابع خلفائه

ثم الدولة الوحيدة التي دامت مدة وعرفت ونبغت سطرت صفحة رائعة في التاريخ فكانت دولة الخلافة الفاطمية ، وهي الخلافة الشيعية الرئيسية الوحيدة في الاسلام . وقامت هذه الخلافة في تونس سنة ٩٠٩ معلنة انها منافسة للخلافة الاسلامية التي مثلها خلفاء بغداد العباسيون ولم يطل الامر حتى انتشر لواء هذه الدولة على سائر افريقية الشمالية ومصر . وفي عهدهم بلغت القاهرة من الازدهار والعز شأوا عظيما . ولكن دولة الفاطميين على الرغم من هذا الوجود الذي تمتعت به لم تدم مدة اطول , اذ احدثت الاسس المألوفة بعث , وضعف الفساد تنبعث من كل جانب . زد على ذلك تقهقر احوال عامة الشعب الذي كان يعتمد في قوته على فيضان النيل ، وما اصابه من المجاعات والاوبئة وما فرض عليه من الضرائب الفادحة التي تعب كاهله . الا ان هذه الخلافة انتهت بظهور صلاح الدين في عهد العباسيين وخلعه اخر خلفاء الفاطميين سنة ١١٧١ وبعد احتفاله بخلعه ، من الناحية السياسية ، فجر عصر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الكارة الأولى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الطلبة [illegible]

بعض [illegible]

[illegible]

[illegible] ولا

[illegible] في القاهرة عشرين ألف [illegible]

وتتألف من خمسة أدوار [illegible]

يؤجر أحدها [illegible] في الشهر وكانت شوارع

الرئيسية مسقوفة ومضاءة بالقناديل . وكانت لأصحاب الحوانيت

أسعار محدودة للبيع [illegible] من أحدهم غش في [illegible]

الشهير ، أي أركب على حمار وطيف به في سوق [illegible]

صوت الأجراس [illegible] على [illegible]

والصرافين كانت تترك [illegible] أقفالا غير مقفلة . وكان في الفسطاط

القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية . وتمتعت البلاد كلها بقسط

من الأمن لا يستحق [illegible]

تقول : «لم استطع حصر ثروتي ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر» .

وبينما كان الفاطميون يحكمون مصر وافريقية الشمالية كان الانحلال يدب بسرعة في قلب الامبراطورية الشائخة في بغداد . في هذه الظروف قامت دولة السلاجقة الترك فمنحت دفعة رائعة من النمو والسمو في الشرق الاسلامي . وولى طغرل السلجوقي الحكم في [illegible] الخمسين سنة ١٠٣٧ وحشدت قوة جيش السلاجقة بما انضم اليه من قبائل الترك المشتتة فوسعوا فتوحاتهم في جميع النواحي حتى غدت آسيا الغربية مملكة اسلامية موحدة . وبعثت السلطة الاسلامية بعد اضمحلالها وعاد الى الاسلام مجده . وكانت [illegible] عصراً جديداً من آسيا الوسطى بعثت امواجها فنشرت الاسلام في فتوحه الى [illegible] . والواقع ان هؤلاء السلاجقة لكنهم الذين قهروا المؤمنين من امة محمد ثم اعتنقوا الاسلام فعملوا جاهدين [illegible] فرصة في ترويج هذا الدين . وقد سلك مسلكهم أقوام اخرى منهم ابناء عمهم المغول في القرن الثالث عشر ودور ورثتهم الترك من آل عثمان في مطلع القرن الرابع عشر . وهكذا كان قد قيض للاسلام في اشد ساعاته من محن في حظيرته مساعده على تحقيق اهدافه ونشر [illegible] .

واخيراً حدثت [illegible] التي عانى قلب الاسلام منها وذلك عندما عبر في سنة ١٢١٦ جنكيزخان على راس جيش جرار مؤلف من مئتي الف من اقوام المغول الهمجية نهر [illegible] الهمجية من [illegible] الاشكال . [illegible] في

للدمن وأمعن في التخريب والتدمير ابا حين . وقد انطفأت امام
هجمات المغول معالم الثقافة في عواصم الاسلام الشرقية واصبحت
الديار التي تاهت بقصورها الفخمة وخزائن كتبها قاعاً صفصفاً وقفرة
خاوية لا حياة للعلم فيها . وجرت الدماء على طول الطريق الذي
سلكته عساكرهم تاركة اثراً لا يمحى . فهذه مدينة هراة كان سكانها
مئة الف لم يبق منهم الا اربعون نفساً . وهذه مساجد بخارى المشهورة
باتت لا انبياء ولا علماء جعلت اصطبلا لجميع اصطبلات الخيول
المغول . وكثيرون من سكان سمرقند وبلخ استبعدهم المغول او
وقعوا في الاسر . اما خوارزم فخربت واصبحت اثراً بعد عين .
وفي رواية متأخرة ان جنكيزخان لدى فتحه بخارى وصف نفسه
في خطبة له علانية بانه آفة من الله ارسلت الى الناس عقاباً على
معاصيهم . وهكذا اصبح هذا القائد المغولي هادم العالم الاسلامي
وواضع الاساس لأكبر امبراطورية شهدتها العصور ظهرت في النصف
الاول من القرن الثالث عشر اركانها كل قطر ما بين الصين
والادرياتيك ، واكتسح جندها بعض انحاء اوروبا واواسطها ووصل
حتى شرقي بروسيا . ولو لم يمت ابن جنكيزخان وخليفته سنة
١٢٤١ ما نجت اوروبا الغربية من هذه الغارات المغولية .

وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو حفيد جنكيزخان بلاد المغول
على رأس جيش جرار عازماً على ابادة الخلافة . فكانت موجة
مغولية ثانية اكتسحت في طريقها كل الامارات التي كان يسعى
اصحابها في توطيد سلطانهم على انقاض الامبراطورية . وفي كانون
الثاني من سنة ١٢٥٦ هجم هولاكو اسوار بغداد واعمل المنجنيق

حتف . ويقال انه حدث ان فتحوا ثغرة في احد ابراجها فخرج الوزير
ابن العلقمي ومعه جاثليق النساطرة . وقد كانت لهولاكو زوجة
نصرانية تعطف على المسيحيين . الا ان هولاكو رفض مقابلتهما ولم
يصغ الى كلامهما . لقد شاع ان الخليفة كان من نصيب الذين يتجرأون
على قهر مدينة السلام او سفك دم خليفة من بني العباس وانه متى
قتل الخليفة احتجبت ظلمة الغيم واحتجبت الشمس وامتنع القطر
والنبات . فلم يصب هولاكو شيء من هذا بل احدثت مذبحة
منظمة . فلم يكن اليوم العاشر من شباط حتى اقتحمت عساكره
المدينة فخرج الخليفة وثلاثمائة من حاشيته وقضاته مستسلمين دون قيد
او شرط فقتلوا جميعهم بعد عشرة ايام . واعمل جنود المغول
السيف والقتل في المدينة حتى محوا سواد سكانها وفيهم اسرة الخليفة .
وقد فسد الهواء من كثرة الجثث النتنة والاشلاء القتلى
المطروحة في الشوارع ما اضطر هولاكو ان يبتعد عن المدينة
اياماً . واذ قد عزم على نزول بغداد واحدث فيها مسلك فاقام ثم عمق
قسم كبير منها في ابنية اخرى . لكنه عفى عن جاثليق النساطرة
ومنحه قطعة ارض وابقى على بعض المدارس والمساجد ورمم بعض الآخر
مما تهدم . ولاول مرة في تاريخ الاسلام خلا كرسي الخلافة من
خليفة يدعى له على المنابر في خطبة الجمعة .

وفي سنة ١٢٦٠ زحف هولاكو الى بلاد الشام فتهددها . وبعد
استيلائه على حلب واعماله السيف في رقاب خمسين الفاً من سكانها
دخل حماة وحارم . ثم اعد جنده لحصار دمشق ولكن وفاة اخيه
الخان الكبير اضطرته الى الرجوع الى ايران . بعد ان احتل الذي

تركه وراءه في الشام جيش من اجناد الثورة الى ان قضى عليه في العام نفسه الظاهر بيبرس قائد المماليك الذي كان في خدمة احد سلاطين مماليك مصر بالقرب من الحدود ، وقد صار فيما بعد من سلاطين المماليك اللامعين .

وتوفي هولاكو سنة ١٢٦٥ وكان اول من اتخذ لنفسه لقب ايلخان اي خان الصغير . ولم يكد يمضي على دولته نصف قرن حتى اعتنق جميع الخانات الاسلام دينا للدولة ، فصارت دولتهم حلقة من حلقات الاتصال بين الدول الاسلامية اللاحقة .

وفي هذا الوقت كان الاسلام معرضا في الجبهة الغربية من الصليبيين لهجوم آخر تمخضت حوادثه عن صفحة رائعة في تاريخ الامة وسطع فيه نجم انتصار الاسلام بانتصار المسلمين وصلاح الدين

الحروب الصليبية

تمثل الحروب الصليبية فصلاً موضعياً من فصول تلك القصة الطويلة التي تدور حول النضال بين الشرق والغرب . وهي قصة سبقتها من قبل حروب طروادة وحروب الفرس واليونان الى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الاوربي . ومن وجهة خاصة فقد كانت الحروب الصليبية بمثابة رد فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة هجوم اوربا المسيحية على آسيا الاسلامية التي كانت اتخذت خطة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ م على سورية وآسيا الصغرى فقضت على اسبانيا وصقلية ايضاً . وللحروب الصليبية اسباب اخرى منها النزعات الحربية واصول القومية في الهجرة التي امتازت بها قبائل التوتون الذين عبروا خريطة اوربا فقد تعدوا على املاك الامبراطورية الرومانية . ومنها هدم كنيسة القيامة بامر

الحاكم الخليفة الفاطمي سنة ١٠٠٩ وهي مدينة كان يحج اليه الوف الاوربيين، وكانت مدينة قد أرسلت سنة ٨٠٠ الى شرلمان على سبيل البركة من حجارة اورشليم ردا على دعوات الحجاج التي كان يصعب لها ملاحقة المسلمين في سبيل الحجيج من المصري اثناء مرورهم في آسيا الصغرى لزيارة بيت المقدس [illegible] ان استغاث [illegible] على هذه الحروب فكان الاستنجاد الذي ارسله سنة ١٠٩٤ الامبراطور ألكسيوس كومنينوس الى البابا اوربانوس الثاني عميد الكنيسة اللاتينية ضد ملك الامبراطور الاسود حتى يخرج [illegible] وانقذت جيوشهم بلاد القسطنطينية عنها وعلى [illegible] رأى في ذلك الاستنجاد فرصة لتحقيق ضم الكنيسة اليونانية الى كنيسة رومه وكان الانشقاق التام الديني في الكنيسة المسيحية قد حدث سنة ١٠٥٤

وقد يكون الخطبة التي القاها البابا اوربانوس في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ في كليرمونت من اعمال فرنسا الخطبة الشهيرة [illegible] مستنهضا بها المؤمنين للحرب لتحرير [illegible] كنيسة القيامة وانتزاعها من ايدي الكفرة الاشرار والاستيلاء عليها [illegible] قد يكون هذه الخطبة اشد خطب التاريخ [illegible] وللحال نادى الفرسان بالحرب صارخين ان الله اراده [illegible] وترددت كلام هذه الصرخة وتجاوبت اصداؤها في كل ناحية فتحركت جوامع القلوب ومن حيث لم يبلغ السنة التالية حتى استجاب للدعوة الى السلاح نحو مئة وخمسين الف رجل اكثرهم من الافرنسيين الذين كانوا يدعون فرنك Francs اي فرنجة وهو الاسم الذي اطلق بعدئذ على

الغربيين حيفاً وأمور مقدساتهم. واحتشد هذا الجيش في القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الأولى . وقد وصف هؤلاء بهذا الوصف اشارة الى الصليب الذي حمله المحاربون علامة على صدورهم .

وجدير بالذكر انه ليس كل من اشترك في هذه الحملات كان مدفوعاً بالعاطفة الدينية . فعدد من الأمراء ومنهم بوهيمند كان هدفهم الرئيسي اقتطاع أراض جديدة يقيمون عليها أعلامهم . ومن تجار بيزا والبندقية وجنوى فكانت رغبتهم مصالح تجارية . فعوامل هذه الحروب كثيرة تشمل مطامع المغامرين والعبيد المتشوقين وشذاذ الآفاق مع أمل الغفران وحب المغامرة والتكفير عن معاصيهم . والواقع ان الدافع الاعظم في فرنسا والنورمان وايطاليا وحقاً انه في اشتراك الحملة لم يكن كله صحيحاً بل كان مرتبطاً بالأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تمر بها آنئذ .

ان تصنيف هذه الحملات الصليبية الى سبع او تسع ، على ما ذهب المؤرخون فيعتمد على اصطلاح غير دقيق . ذلك ان مجرى هذه الحملات كان متواصلاً ومن الصعب فصل الواحدة منها عن الأخرى فصلاً واضحاً لا غموض فيه . ومن هنا كان الأصح تقسيم هذه الحروب الى ادوار ثلاثة : اولاً دور ظفر الافرنج وقد امتد حتى سنة ١١٤٤ . وثانياً دور رد فعل اسلامي انتهى بانتصارات صلاح الدين الباهرة . وثالثاً الحروب الأهلية والمعارك الصغرى التي انتهت سنة ١٢٩١ عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في بلاد الشام . والدور الثاني يظهر حتى بوقته قبل بداية ما هو معروف بالحملة الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩) في حين انتظم الدور الثالث


بلاد السلاجقة
بلاد الروم
قبرص
الخلافة الفاطمية
العريش
الولايات الصليبية في سورية
حوالى ١١٤٠
المقياس بالأميال
١٠٠ ٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ ٠

[illegible] من حوادث [illegible] الأخيرة على

القسطنطينية ١٢٠٢ – ١٢٠٤ [illegible] وسلطان على مصر

١٢١٨ – ١٢٢١ [illegible] ١٢٧٠

[illegible]

[illegible]

[illegible] لأوطان

الصف العربي من شتى [illegible]

الترك على [illegible]

[illegible] ١٠٩٩ [illegible]

[illegible] للحرب

[illegible] على [illegible]

[illegible] ٧ [illegible]

سنة ١٠٩٩ [illegible] من

[illegible] المقدس الذي [illegible]

[illegible] الصليبيون ولا [illegible]

المدينة [illegible] أسوارها كما

سقطت أسوار [illegible] ولان الحصار الذي

ضربوه عليها شهر [illegible] وفي الخامس عشر من

[illegible] هاجم العدو المدينة [illegible]

[illegible] حتى شوهدت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل في

شوارع المدينة وميادينها . حتى إذا [illegible]

كثيرون من الصليبيين [illegible]

عائدين الى اوطانهم الاوربية .

وبقي القواد بوهيمند Bohemond وبلدوين Baldwin وغودفري Godfrey وتنكرد Tancred تحت رعاية ... وريموند ده تولوز Raymond ، وهو اعظم شأن الفرنجي ، ... ومملكته لاتينية في سورية . اولها امارة ... شمالي سورية وعاصمتها انطاكية ، وثانيها في فلسطين وعاصمتها اورشليم وهي التي اصبحت فيما بعد مملكة ، وثالثها في طرابلس على شاطئ البحر المتوسط . وقد جرى انشاء غيرها فيما بعد ذلك . غير ان هذه الدويلات لم تكن الا ... من مقاطعات وحصون . وليس ... في ... الا ... من تاريخ ... اوربة لا من تاريخ بلاد العرب . ولكن ما ... في هذه الفترة هو العلاقات ... بين ... العرب ... البلاد او طمس .

... الفرنجة الى الاراضي المقدسة وهم يحسبون انفسهم ارفع مرتبة من اهل ... ونساؤهم ... ولكنهم ما كادوا يحكمون البلاد ... حتى ... عشرة ... عنهم .
اما الاثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد عبر عنه المؤرخ العربي اسامة بقوله في « كتاب الاعتبار » ... فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » . ولكن الاختلاط الذي ... بين ... في ايام السلم — وهي اطول من ايام الحرب كثيراً — ادى الى تطور الشعور بين الفريقين ... على اثر ذلك علاقات الصداقة وحسن الجوار . وصار الفرنجة يستخدمون صناعاً وفلاحين من شعوبهم ... الاقطاعي الذي ... ان يحول

واصبح على مرور الايام ملائماً لاحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لانفسهم الخيول العربية والبزاة وكلاب الصيد وتعلموا ان يتفقوا مع العرب لحمايته من الاعداء . كذلك [illegible] الفرنجة على [illegible] وجدوا [illegible] وللحرارة فوضعوا [illegible] فوق [illegible] عرفت في مراعش . واتبع الفرنجة عن [illegible] الاوربي واحضروا الاردية الوطنية التي كانت ادعى الى الراحة واكثر ملاءمة لطبيعة البلاد . واكتسبوا اذواقاً جديدة في الطعام فاحتووا كل [illegible] الوانه التي يكثر فيها استعمال السكر والتوابل . وفضلوا السكنى في البيوت المشرفة التي تتوسطها صحون مكشوفة واسعة [illegible] . وتزوج بعضهم بوطنيات [illegible] من [illegible] الزواج [illegible] متوسط بين الجنسين [illegible] الى [illegible] [illegible] وسعوا [illegible] باللغة العربية درجة احترموا معها المزارات التي تقدسها المسلمون واليهود . وكان [illegible] في بعض خصوماتهم المستمرة فيما بينهم يحلفون [illegible] الذين كانوا يخصونهم [illegible] وكذلك فعل المسلمون [illegible] الاقوام [illegible] المسيحي .

ولقد احدثت حملات الصليبيين لسورية ومعظم القطر المصري ردّ فعل في العالم الاسلامي شرع به زنكي اتابك سلطان الموصل وخلفه ابنه نور الدين سلطان دمشق ، وبلغ اشده درجته في ايام الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف . ولد صلاح الدين في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديين ولا نعرف الا القليل عن طفولته ودراسته الاولى في سورية . والظاهر ان سورية

وهو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
حتى سنة ١١٦٤ [illegible] على [illegible] على [illegible] [illegible]
شامه في [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] في
[illegible] [illegible] على [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] [illegible] على [illegible]
[illegible]
[illegible]
العباسي المستضيء، فامتثلوا لامره.

و[illegible] صلاح الدين [illegible]

حتى اول [illegible] سنة ١١٨٧ [illegible]
[illegible] حدثت معركة حطين. بدأ القتال يوم الجمعة
الذي كان صلاح الدين كبيرا [illegible] يوم [illegible]
على الفرنجة. وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين الفا انهكهم
العطش والحر فوقع معظمهم في قبضة جيش صلاح الدين. وكان في
مقدمة الاسرى المشاهير غي دي لوسينيان Guy de Lusignan ملك
اورشليم. فعامل السلطان صلاح الدين الكريم بعض اسيريه.
اما رفيقه الملك راجينالد دي شاتيون Reginald of Chatillon فوقف
من الحرب فنال معاملة اخرى. ولعل راجينالد هذا كان اشد زعماء
اللاتين مغامرة واكثرهم تعديا ونقضا للعهود و[illegible] باللغة
العربية. وحين كانت الكرك في عهده اوقع مرارا بقوافل الامة

يسلب وينهب بينما كان اصحابه يجوبون البحر خلف اسوار حصنه . كل هذه الامور اعتبر خروجاً على شروط العهود والمعاهدة ودفع منه الكيد للمسلمين ان جهز اسطولاً حربياً يعيث في شواطئ الحجاز فساداً ويجر الاذى بمواكب الحجاج . وكان صلاح الدين قد اقسم اليمين ان يقتل بيده هذا الرجل الذي نكث العهود ولم يحترم شروط الهدنة . وها هي ذي الفرصة قد حانت بوقوعه بيديه . وحُرم رينالد المشؤوم من شرب الماء في خيمة صلاح الدين وهو عارف بان العادات العربية تحول دون ايقاع الاذى بمن شرب ماء القوم . ولما قد شرب الماء دون اذن من صلاح الدين لم تحمه العادة بل جوزي على غدره بان ضرب صلاح الدين عنقه وجمع من عنده من فرسان الداوية Templars والاسبتارية Hospitallers فمن ثم قطعت اعناقهم على مشهد من الناس .

وجاء الانتصار بحطين فتحاً مبيناً على الفرنجة . وبعد حصار اسبوع سلمت اورشليم في ٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ وقد مزق شمل حاميها في موقعة حطين . فصدح صوت المؤذن من على المسجد الاقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ، وانزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من على قبة الصخرة

وبسقوط عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصلاح الدين معظم المدن الافرنجية في سورية وفلسطين . وبعد سلسلة حملات بعيدة سقطت اغلب القلاع وكادت هزائم الفرنجة تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد . ولم يبق في حوزتهم الا انطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة والقلاع .



المسيحية
الإسلام
الإسلام والمسيحية
في الحروب الصليبية

ولقد استثار سقوط المدينة المقدسة حمية اوربا فسير حكام
حكوماتهم الحملة ونشط فردريك بربروسا Barbarossa امبراطور
المانيا وريتشرد قلب الاسد Richard Coeur de Lion ملك انكلترا
وفيليب اوغسطس Philippe Auguste ملك فرنسا الى حرب
المسلمين، وعلى اكتاف هؤلاء الثلاثة وهم اعاظم ملوك اوربا آنئذ
قامت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) وهي اكبر الحملات
عدداً. ولقد تعلق خيال الجماهير بشخصية صلاح الدين
وقلب الاسد الانكليزي في الروايات الشرقية والغربية بما شاء
المراد.

وكان اول من شرع بالسير الى الحرب فردريك الذي سلك
طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكية وتشتت معظم افراد
جيشه اي شتات ... في طريقه الى عرض وحلب.
وقد قدّر لهذه الحروب ان تنتهي بعد آخر عهد للصليبيين بزمن
من البلاد السورية.

وافق الصليبيون في البلاد المقدسة ان عكا هي الآن الهدف الذي
تحكم به اسطولهم ... من ممتلكاتهم فقدموا عليها بجميع
قواتهم مع من بقي من جيش فردريك وكذلك مع ملك فرنسا.
وتزعم الهجوم امير كي (Guy) الذي كان صلاح الدين قد اطلق سراحه
قبلا آخذاً عليه العهد بان لا يعود لقتال المسلمين، فحنث به. ووصل
صلاح الدين في اليوم التالي لتفقد المدينة. فنصب معسكره قبالة
العدو ونشب القتال براً وبحراً. واشتدت المعركة بقدوم ريتشرد فتقدموا
واشعلوا نيران الشرقي. وفي اثناء الحصار جرت عدة حوادث نادرة

بوقوع دوق موزحو الى صور لانهم محصورين بين صلاح الدين وقف الاسد اعداء لدوداً على اعقاب واحد منهما الآخر . ولكنهما لم يجتمعا قط . وكان رتشرد يكافئ بسخاء كل من يخرج حجراً من اسوار المدينة فحفز ذلك المحاربين والنساء على الاتيان باعمال باهرة من البطولة . ودام هذا الحصار الذي يعدّ من الاعمال الحربية الباهرة في القرون الوسطى سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ – ١٢ تموز سنة ١١٩١) . وفقد بسببه الفرنجة تفوّق اسطولهم ومدافعهم الحديثة . اما المسلمون فانحصرت افضليتهم في توحيد القيادة في شخص واحد . واخيراً استسلمت حامية عكا الى الصليبيين

وكانت اهم شروط الصلح تسريح الحامية مقابل مئتي الف دينار وارجاع المسلمين للصليب المقدس . ولما لم يدفع المال بعد شهر امر رتشرد باعدام الاسرى البالغ عددهم الفين وسبعمائة . وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس . فصلاح الدين ايضاً كان قد اشترط ان يفتدي الفرنجة انفسهم بالمال ولكن عدداً من الفقراء نحو ثلاثة الآلاف عجز عن تأدية الفدية المفروضة ، فعفا صلاح الدين عن سبعين الف منهم نزولاً عند رغبة اخيه واطلق سراح فريق آخر منهم احتساباً لوجه البطريرك . ولما رأى صلاح الدين ان احد البطريرك قد أخذ الركاة من الكنيسة شعر ان عليه ان يقوم بقسطه من هذا الواجب فاطلق سراح الشيوخ وبينهم عددٌ من النساء والاطفال .

واحتلت عكا بعد سقوط اورشليم مرتبة الزعامة وقد معقودات تصبح حاضرة في العربية المسيحية دون ان تقطع وه

لما رتشرد كثير الافكار الحربية فقد اقترح زواج اخته بالملك
العادل اخي صلاح الدين على ان تعطى اورشليم هدية للزوجين
فهي بذلك الفداء المستحكم بين النصارى والمسلمين . وفي احد
الشعانين ٢٩ آذار سنة ١١٩٢ انعم رتشرد بالفروسية على الملك
الكامل ابن العادل في حفلة شائقة . واخيراً عقد الصلح في ٢ تشرين
الثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للافرنج والداخل للمسلمين
ولا يتعرض احد لزوار النصارى الوافدين على بيت المقدس .
ولكن صلاح الدين لم تكتب له الا اشهر قليلة يقضيها بين ثمرات
الصلح . ففي ١٩ شباط من السنة اللاحقة اصيب بحمى في دمشق
ومات بعد اثني عشر يوماً وهو في الخامسة والخمسين من عمره . ولا يزال
قبره في الغرفة المنورة ملاصقاً للجامع الأموي محط الزائرين .

ولم يكن صلاح الدين بطلاً حربياً فقط بل كان مشجعاً
للعلم والعلماء ومشجعاً للدراسات الدينية ومصلحاً اجتماعياً واقتصادياً .
فقد انشأ المدارس والمساجد وانشأ السدود وحفر الاقنية . ومن
آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي اخذ في تشييدها مع اسوار
المدينة في سنة ١١٨٣ مستخدماً فيها حجارة من الاهرام الصغرى .
وصلاح الدين عند العرب في مصاف هرون الرشيد وبيبرس . وفي
مقدمة من تحوم حولهم حكايات الشعب عديدة وحكمته الى يومنا هذا .
اما في اوربا فقد اشتهر في ذكراه المنشدون في العصور الوسطى
وحاكاهم في ذلك الروائيون العصريون . وهو لا يزال يعتبر حتى
اليوم مثال الفروسية الكاملة .

واستمرت المناوشات الحربية بين الفريقين بعد هذا الدور مدة

قرابة قرن لم يستطع خلاله اللاتين امراً سوى المحافظة على مراكزهم. ولولا حوادث الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها لويس التاسع لما كان في عهد الدولة ما يستحق الذكر.

وقد احتل هذا الملك المعروف في الروايات بالقديس لويس مدينة دمياط في مصر سنة ١٢٤٩، حتى اذا زحف بجيشه على القاهرة قطع زحفه بكثرة الاقنية وتفشي الاوبئة، وكان النيل في عنفوان فيضانه، تفشى الوباء في الجيش، وقطعت عنه الامدادات فهزم وأسر الملك لويس ومعظم رجاله. وبعد شهر اطلق سراحهم مقابل دفعه مبلغاً من المال وبعد رحيله من ثغر دمياط. وقد قاد لويس هذا في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية اخرى خاسرة على تونس، حيث مات. ويعتبر لويس من انبل رجال الصليبيين طهارة سيرة وسمو اخلاق. قال فيه مؤرخه: «انه كلما كان عدوة عن صلاة، وكان قصده الاسمى العيش عيشة الله».

وجاءت دولة المماليك، فكان رابع امرائها الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) اول السلاطين الذين انزلوا بالصليبيين الضربات الاخيرة القاصمة. ففي سنة ١٢٦٣ احتل الكرك وهدم كنيسة الناصرة. ولم يمض قليل حتى زحف واستولى على يافا في وجه هجماته العنيفة، فاضطرت الى التسليم. وفي سنة ١٢٦٨ اعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها ستة عشر الفاً وسبى من رجالها ونسائها واطفالها نحو مئة الف باعهم في الاسواق، فكان ثمن الصبي يومئذ اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الاموال تكال كيلاً. ولم يستطع

انطاكية البوهيمونديين بعد عهد سكارثة اي بوهيمند الخامس. وفي سنة ١٢٧١ انتزع بيبرس حصن الأكراد من ايدي الفرسان. اما المرقب بجوار طرطوس فانتزعه سنة ١٢٨٥ خليفته قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك باربعة اعوام.

وهكذا لم يبق من مراكز الفرنجة الهامة إلا عكا. والغد جرى حصارها في عهد ابنه الأشرف خليل بن قلاوون. وبعد حصار دام شهراً واستخدام نحو ستين منجنيقاً فتحها المسلمون في ايار ١٢٩١ واعملوا السيف في رقاب حاميتها من الفرسان الداوية فقتلوهم جميعاً. وهكذا سقط آخر حصن منيع للاتين في الشرق. وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرطوس. وكذلك اسدل الستار على فصل من فصول الحروب في تاريخ سورية المتوسط

والحق ان الحروب الصليبية حوت عدة الحوادث الباهرة والوقائع النادرة غير ان الربح الذي وقع فيه، لا سيما في الغرب وهو ربح محصور في الفن والصناعة والتجارة دون العلم والادب. اما في سورية فقد تركت هذه الحروب بعد الدمار والخراب. ومما ورثه الشرق الأدنى عن تلك الحروب ذكريات التعصب الذي يشعر به المسلمون والنصارى.

كانت الثقافة الاسلامية في الشرق عهد الصليبيين مستقرة متداعية. وكاد ينقرض اعلامها في الفلسفة والطب والموسيقى وسواها من العلوم والفنون نحو منتصفه. ومع هذا كانت سورية التي تحركت العلاقات فيها بين الاسلام والنصرانية العربية طيلة القرن

الثاني عشر والثالث عشر اقل اهمية من اسبانيا او شمالي افريقية ،
ان اقل اهمية من الامبراطورية البيزنطية من حيث نقل المؤثرات
العربية الى الغرب . ومع ان الاسلام اثر في الحضارة الاوروبية
عن طريق الاحتلال تجربة وعن طريق الاصطدام المباشر
بالصليبيين وما احدثه هذا الاصطدام من تجارب في الغرب فان
آثاره الروحية والفكرية لم تكن محسوسة . ومن جهة اخرى فانه
علينا ان نذكر ان الصليبية في سورية ، فضلا عن كونها نشأت دون
ثقافة اعدائهم ، فقد كانوا في الغالب جماعات عسكرية اجنبية تنزل
في قلاع وثكنات وتعتمد في الحماية على عدة نفر من الفلاحين
والصناع ، دون احتكاك بالفرقة المفكرة . زد على ذلك ان النعرات
القومية والعصبيات الدينية والعداوات المستحكمة حالت دون تبادل
الافكار والثقافات . ولم يكن عند الصليبية من العلم والفلسفة ما
يلقونه الى ابناء البلاد . اما الثقافة التي انتشرت عند القوميين فمثلها
المؤرخ الطريفة التي رواها اسامة الذي هو ... من طرق معرفة
بعض ثقافة اذا اعتمدوا في بعض كتبهم على الضرورة والرمي في الماء .

وبعد القرن الثاني عشر بدأت تنشأ في جميع انحاء اوروبا دور
المعالجة والمستشفيات واهمها تلك التي تعنى بالبرص . وهذا يبرر لنا
الافتراض بان طريقة التداوي هذه استمدت جذورها من الشرق
الاسلامي . وان الشرق ايضا يعود الفضل في ارجاع الحمامات العمومية
الى اوروبا وكانت رائجة عند الرومان الا ان المسيحية لم تحبذها .

اما في الآداب فقد كان الاثر اوسع مدى . ففي الاساطير
المنسوجة حول قصة الكأس المقدسة التي استمدت اصولها في نشأة

الاخير قد جرى لا ريب في ايام سورية الاصل . وليس من شك في ان الصليبيين حملوا قصصاً « كليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » معهم الى اوطانهم . وفي حكايات الشاعر الانكليزي تشوسر Chaucer قصة من « الف ليلة وليلة » . ومن المصادر الشعبية استمد بوكاشيو Boccaccio الايطالي حكايات شرقية ادخلها في كتابه « ديكامرون » Decameron . ويمكنك ان تنسب الى الصليبيين الفضل في اقبال الاوساط المثقفة الاوربية على دراسة اللغة العربية وسواها من اللغات الاسلامية .

وفي ميدان الحرب فكان من الطبيعي ان يكون التأثير اكثر ظهوراً . فتعلموا انواع الاقواس والدروع بسبب الفرسان والخيل واستخدام الوسائد القصيرة تحت الدروع كان من اصل حبشي . وفي سورية ادخل الفرنجة في جيوشهم الموسيقى العسكرية للطبول والطبل ولم يكونوا يستعملون من الآلات الا البوق والنفير . وتعلموا من اهل البلاد استخدام حمام الزاجل لنقل المعلومات الحربية وتعلموا منهم عادة الاحتفال بالظفر باشعال الانوار واجراء سباقات الخيل ولعب الجريد . والمقرر ان جانباً كبيراً من مبادئ الفروسية نشأ في سهول سورية . ومعه انتشر علامات النسب على الاسلحة وشارات الفرسان متفرعة عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين .

وقد انعشت هذه الحروب ابحاثاً في الحصار وحيله فشمل امر السلم والنقب واستخدام المجانيق والكبوش [1] والمواد الفتاكة

---

(1) جمع كبش ، وهو رمح محدد : آلة من آلات الحرب كانت تدفع على جدران الحصون .

للأشعال والقذائف . والظاهر ان البارود جرى اختراعه في سورية او اوربة اللاتينية ، والرأي الاخير أرجح ، وذلك حوالي آخر هذه الحقبة . اما دعوى الصينيين انهم اخترعوه فلا تؤيدها مستندات . ولكن لا نستبعد قوة البارود الانفجارية لرمي القذائف اي اختراع الاسلحة النارية ، وهي خطوة اشد خطورة ، فهو لم يحدث قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر . ونحن نجد اول صفة اوربية لتركيب البارود في ذيل كتاب وضعه في اللاتينية نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك اليوناني .

اما في الزراعة والصناعة والتجارة فقد اهتدى الصليبيون الى منافع اعظم من تلك التي اهتدوا اليها في العلوم . والى هنا يرجع انتشار نباتات جديدة في بلدان البحر المتوسط الغربية مثل السمسم والخروب والدخن (١) والأرز والليمون والبطيخ والمشمش والبصل العسقلاني . وهذه النباتات تعرف في اوربة محرفة عن لفظة شرقية . اما المشمش فكان يعرف باسم برقوق دمشق .

واكتسب الفرنجة اثناء اقامتهم في بلاد الشرق اذواقاً جديدة وبخاصة ما يتعلق منها بالروائح العطرية والتوابل والحلويات وسواها من محصولات المناطق الحارة التي تعرف ببلاد العرب والهند والتي كانت اسواق سورية زاخرة بها . ثم ان هذه الاسواق الجديدة أدت بعد حين الى انتعاش التجارة في المدن الايطالية وسواحل البحر المتوسط . فشهرت انواع العطور وسواها من مجموع الخبرة العربية الزكية الرائحة ومنه الورد الدمشقي والروائح العطرية التي استمرت م

(١) الدخن (بالضم) حب صغير أملس جداً كحب السمسم .

دمشق وغيرها من الزيوت والعطور الفواحة المشبعة بها فرنسا ،
ومن عقاقير الخدمة التي تعرفوا بسبب حجر الشبّ والملح . ثم ان
انواع كشك القرع والتوابل المركبة والمسك والشراب وغيرها
كل اولئك درج استعمالها في الغرب خلال القرن الثاني عشر ومن
ذلك الوقت الى اليوم ولو ان الطعام لا يستقيم على مائدة دون ان
يدخل بعضها التوابل . وفي مصر عرف الصليبيون الرغيف واخذوا
يحملونه الى ابواب عندهم . واهم من ذلك كله السكر ، فقد كان
الاوربيون لا يعرفونه من قبل وكانوا يستعملون العسل لتحلية
اطعمتهم فعلى اختلاف صوره ، حيث ترى الاوربي في هذا اليوم
يتذوق حلو السكر . وعرف الاوربيون هذا النبات الذي اخذ منه
ذلك الحلو بعد دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وفي تركيب
الصناعات عنده . وكان السكر اول ادوات الفخر التي ادخلت
الى الغرب ولم يستورد منه غير كمية قليلة تستعمل لادوية العربية
ومع السكر دخلت الاشربة غير الكحولية الذي يخلط فيه
بواسطة تقطير خلاصة الورد والبنفسج وسواهما من الزهور
وكذلك دخلت شتى انواع الحلويات والمربيات الدمشقية
والاصفهانية وسواها وقد دخلت اوربا من الشرق العربي كما دخلت
اسماؤها في اللغات الاوربية مجرّبة عن العربية

وكان ظهور الاسواق الخاصة في اوربا نتيجة ازدهار الصناعة
والصناعة الشرقية كما كان لحركة الحج التي فرضت بها ضرورة حمل
الحجاج والصليبيين ... وادت الى توسيع طرق الحركة
البحرية والتجارة العظيمة الى درجة لم تكن معروفة منذ ايام الرومان

فحدثت موجة تزاحم الجمهوريات المستقلة من مدن الشمال ،
واصبحت مركزاً لشحن البضائع فنمت جنوى وبيزا والبندقية
الثروة الناتجة عن ذلك . وتطلب هذا الموقف الجديد كميات اكبر
من النقد فجرى سكه وزاد تداوله . وتولد عن ذلك ابتداع
الحوالات المالية واستعمالها فظهرت شركات للصيرفة في جنوى
وبيزا مع فروع لها في الشرق . وصارت الفرق الداوية تستعمل
كتب الشحن الدائمة وتقبل الاموال كودائع لاصحابها وتدفع
المال بعد مدة . وكانت البوصلة ابرة الملاحين من اهم الاختراعات
ذات العلاقة بهذه الحركة التجارية البحرية . والراجح ان الصينيين
هم اول من اكتشف ان الابرة الممغنطة من طبيعتها الاتجاه الى
جهة معينة . ولكن المسلمين الذين كان لهم في عصرهم تجارة
نشيطة مع سكان الخليج الفارسي وبحار الشرق الاقصى كانوا اول من
اخرج هذا الاكتشاف في حيز العمل اذ استخدموا الابرة في
الملاحة . وعن طريقهم تعرف الغربيون هذا الاكتشاف .

في خلال هذه الحقبة كانت الامبراطورية العربية في تقلص دائم
وكان العقل الاسلامي يزداد نضجاً امام الاوربي فكان ينتج عمله
على آفاق جديدة وتتسع شخصيته بوراثة امة من غير ان تتسع
الارجاء . ولكن قبل ان تقضي على هذه الامبراطورية العربية
كانت قد قامت دولة جديدة تحاول بعثها ، أعني دولة المماليك السورية
المصرية التي تمسكها عصبية في العمل الحربي .

دولة المماليك

دولة المماليك هي آخر دول العهد العربي في العصور الوسطى وأشدها غرابة. وقد عقبت الدولة الأيوبية (١١٧١ - ١٢٥٠) المنسوبة الى صلاح الدين وتنقسم الى قسمين البحرية او التركية (١٢٥٠ -- ١٣٨٢) والبرجية أو الجركسية (١٣٨٢ - ١٥١٧) ومن الصعب على دارس التاريخ ان يعثر في عصر الاسلام بمكانة شبه دولة كدولة المماليك وبتوقعها ما نعمته من عز وفلاح. فالمماليك كانوا كما يدل اسمهم أرقاء من مختلف الاجناس والعناصر شكلوا حكومات عسكرية في بلاد هي غير بلادهم. فحكمهم كان نتيجة طبيعية لفساد الحياة الاجتماعية العربية خلال قرون عدة. ولهذه الدولة ميزة تامة بتحدث عما حققته منها من الاعمال الباهرة. ومن هنا كان هؤلاء السلاطين المماليك يستحقون صفحة خاصة في آخر

فنجح سلاطين المماليك في جلاء الصليبيين عن ممتلكاتهم السورية المصرية . ووقفوا ثابتين مدة في وجه جيوش هولاكو وتيمور المزعجة التي كانت ساحقة . ولولاهم لكان تغير مجرى التاريخ والثقافة في آسيا الغربية ومصر . وحيث حاول المغول ان يعرضوا مصر لدمار الذي نزل بسورية والعراق فقد حفظت بلاد مصر ثقافة موحدة واستمرت فيها سلسلة مستمرة مما لم تتوفر لأي بلاد اسلامية اخرى خارج الجزيرة العربية . فطوال مدة قرنين وثلاثة ارباع القرن (١٢٥٠ - ١٥١٧) سيطر المماليك على رقعة من رقاع الارض اضطرابا محتفظين ابداً على مواطنيهم السيادة والحكم . ومع انهم كانوا على وجه العموم غليظي الطباع سفاكين للدماء خونة لاصحابهم لكن ولعمارتهم جعلت من القاهرة عاصمتهم اجمل مدن العالم الاسلامي . واخيراً هزمهم السلطان سليم العثماني فقضى على امرهم في سنة ١٥١٧ . وبذلك زالت آخر الدويلات التي نشأت على انقاض الخلافة العربية وتوطدت الاسباب لقيام خلافة جديدة غير عربية هي خلافة الترك العثمانيين .

وليس من شك في ان اعظم سلاطين دولة المماليك ومؤسسها الحقيقي هو رابعهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) وهو في الاصل رقيق تركي . وكان بيبرس رجلاً طويل القامة اسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً تتمثل فيه صفات الزعامة بدأ في جيش الدولة الايوبية التي انشئت حديثاً خلفه عمله في ادخال الانظمة الاجنبية في الحرس والجيش . فيما عدا

هؤلاء الأحباش والأرقاء الذين وفقوا بهمتهم في المقدرة والإقدام أن أصبحوا كبار الملاك ومن قبل في بغداد — أمراء الجيش ومن ثم سلاطين الأمة . ومن هؤلاء بيبرس الذي ابتاعه السلطان الصالح الأيوبي أولاً فقلده قيادة فصيلة من حرسه الخاص ولم يلبث أن ترقى بالعنف والبطش وإهراق الدماء الى أعلى منصب في البلاد. وهكذا استقرت في دولة المماليك والسلطنة كانت من حق الأقوى. وقد صار الأقوياء، حسب سنة قرون، من ذوي أصل واحد ومن درجة الأرقاء .

وبيبرس في هذه الفترة يكن القائد الوحيد الذي انتصر على جيش هولاكو في عين جالوت بفلسطين عام ١٢٦٠ . على أن شهرته تقوم في الأكثر على الحملات العديدة التي جردها على الصليبيين ، فهذه الحملات التي قصمت ظهر المقاومة الفرنجية . وفي أثناء ذلك وجه قواده عشر سنين غزواً على البربر وحملة على النوبة التي استقرت منذ الآن تحت حكم السلطان المصري .

ولم يكن بيبرس رجل حرب فقط ، ولم ينحصر مجهوده في تنظيم الجيش وتعمير الأسطول وتحصين قلاع سورية بل تجاوزتها الى احتفار الأقنية وتحسين الموانئ وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد سريع تحمل البريد بين المدينتين في أربعة أيام . وكانت بدائل الخيل تقف على أهبة الجري في كل محطة للبريد حتى لقد كان في مكنة السلطان أن يلعب الصولجان في كلتا العاصمتين خلال مدة لا تزيد على أسبوع واحد . وفيما سوى البريد العادي فقد اتفق المماليك في استخدام حمام الزاجل الذي كان منذ أيام الفاطميين .



مملكة أرمينيا
الرها
الرقة
تدمر
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
الفيوم
أسوان
مملكة المماليك
في منتصف القرن الرابع عشر
المقياس بالأميال
٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠

برّي وبحري منظّم في مراحل محددة . وكان بيبرس ينشّط
الأشغال العامة ويحسّن الجوامع ويهتم بالمؤسسات الدينية والخيرية
ومن معاهده الشهيرة الباقية التي شيّدها الجامع الكبير والمدرسة
التي تحمل اسمه . اما الجامع فقد جعله نابليون فيما بعد قلعة ثم اصبح
مستودع ارزاق لجيش الاحتلال البريطاني . وهو اول سلطان بمصر
عيّن اربعة قضاة يمثلون مذاهب السنة الاربعة . ووضع للمحمل
المصري نظاماً دائماً . فلروعة حوادثه وسيرته البديعة واعماله
التي اكسبته اسمه الخالد كل هذه جعلت له شهرة تضاهي شهرة هرون
الرشيد في عصر العباسيين . وفي الادب الخرافي يعلو اسمه فوق اسم
صلاح الدين . و « سيرة بيبرس » و « سيرة عنتر » لا يزال الاقبال
عليهما في البلاد العربية اشدّ من الاقبال على « الف ليلة وليلة » الى اليوم .

ومن ميزات عهد بيبرس المعاهدات العديدة التي عقدها مع ملوك
الفرنج وملوك اوربا . ومن بينها معاهدة عقدها بعد تقوية السلطة مع
زعيم جماعة المغول في قفجاق من وادي الفولغا . كذلك امضى
المعاهدات التجارية مع تشارلس ده آنجو Charles of Anjou ملك
صقلية شقيق لويس التاسع ومع جيمس ملك أراغون والفونسو
ملك إشبيلية .

ولعل اروع الحوادث في ملك بيبرس اقدامه على تجديد الخلافة
العباسية واحيائها ، وذلك بالاسم فقط . وكان جل قصده من ذلك
جعل سلطته شرعية ، واكساب بلاطه رفعة في نظر سكان الاقطار
الاسلامية ، وقمع فتن الشيعة التي كان يتطاير شررها في مصر خصوصاً
منذ ايام الفاطميين . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة ١٢٦١

عمّ المستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين ، وكان قد نجا من مذبحة
بغداد التي قام بها المغول والتتار حين فتحوها ، فكتب بيبرس في
النواحي بحثاً عنه ليحسنه ويخلعه بيعته على الامير ووصل اسمه
في سكة ، واتخذ الخليفة لقب المستنصر . وكان قدومه لمصر
القاهرة من سورية صحبة جماعة من امراء العرب ، فخرج السلطان
لملاقاته ومعه الوزير والقضاة والاعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود
بتوراتهم والنصارى بانجيلهم . فكان يوماً مشهوداً . وقد نصب
خليفة وأشهد على نفسه بثبوت نسبه الشريف امام قاضي القضاة
ومجلس العلماء . ثم جاء دور السلطان فقلده الخليفة بيده شارات
السلطنة وفوّض اليه الامور في البلاد الاسلامية وقلده الحكم على
مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والعراق . وبعد ثلاثة
أشهر توجه بيبرس من القاهرة ، ومعه الخليفة ، قاصداً في استعادة
بغداد الى املاك الخلافة ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه
فيها وعاد الى مصر . وقد سار المستنصر الى بغداد فعثر عليه
حكام المغول ببغداد في الصحراء ، فكان ذلك آخر عهد به .

وتعاقب أبناؤه على الخلافة مدة قرنين ونصف ولم يكن لهم منها الا
الاسم فقط ونقش اسمائهم في السكة والخطبة بهم من منابر مصر
وسورية وقد انتزع السلطان سليم العثماني مصر في سنة ١٥١٧ من ايدي
المماليك نقل معه الى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر هذه الاسرة

وهكذا استطاع المماليك عبيد مصر وزعامة سلاطين ظاهرين
منصورين ان يطردوا آخر البقية الصليبية في سورية وتمكنوا
من الحيلولة دون المغول وتوسيع العالم . وقد وقف حمايته هذا العهد

الذي سادت فيه حكومة عسكرية حتى تفرقت الخزينة بين الجماعات المتنافسة وبُعدت النقود ونقصت الضرائب وفُقد الأمن على الحياة والممتلكات وتعاقب الطاعون والأوبئة والمجاعات والثورات وكاد الخراب يعمّ مصر وسورية لسحقه ... وفي وادي النيل خصوصاً راجت سوق الخرافات المتعلقة بالسحر وضروب السحر وتحالفت مع المعتقدات الدينية وجعلته واعتبرته هو عائقاً للتقدم العلمي تحولا. وفي أحوال كهذه لم يكن من الممكن نشوء حركة فكرية راقية. ولما انقضى منتصف القرن الثالث عشر شهد جميع أنحاء العالم العربي تفقد ... العلمية التي كانت تستعر منذ القرن الثامن. فأصبح نصيب ... العقلي الذي سببه أصحاب الجمود والانحطاط الأخلاقي الناجم عن زوال المروءة والسلطة بادياً في كل مكان.

وبعد منتصف القرن الثالث عشر لم يبقَ للعرب من مكانة في العلم إلا في فرعين: الفلك – الرياضيات وفي حقل علم حساب المثلثات، والطب، وبخاصة طب العيون. ومن أنبغ أطباء هذه الحقبة ابن النفيس الذي درس في دمشق حيث توفي سنة ١٢٨٩، وقد كان رئيس الأطباء في مستشفى القاهرة. وعلى الرغم من أن اكتشاف الدورة الدموية منسوب إلى سيرفيتس Servetus البرتغالي فإن ابن النفيس سبقه إلى هذا بثلاثة قرون. وكانت هذه الحقبة خصبة بوجه خاص في إنتاجها ذلك النوع من المؤلفات الموسوعية الذي نسميه نحن بـ «الأدب الخفيف». على أن الأدب العربي كان في مراحله جميعاً طافحاً بالقصص والفكاهات والنكت التي تحسب

في عصره الحاضر من النوع الشعبي .

بيد أن العرب لم يحسّوا أنهم تخطّوا عصر المماليك ، على ما كان فيه من شغب عظيم بالحروب والأهوال ، إلا وقد ازدهر في العمارة ونمتْ على اسلوب لا مثيل له في تاريخ مصر منذ ايام الفاطميين والفراعنة . ويعود [illegible] مدرسة ، اسهمت في العمارة في مؤثرات سورية وعراقية انتشرت بعد ما اصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى للفنانين والصناع المسلمين اللاجئين اليها من الموصل وبغداد ودمشق من الغزوات المغولية . وقد جاءت الحروب الصليبية بنتيجة مرة اخرى فركز الخصوم على حماية البلاد من معاقلها في الشمال وسعى بعضهم على الأخص في عمارة المدن . واتقن المهندسون تشييد الجوامع والمدارس ذوات شكل الصليب وظهرت القبة في هذه الفترة بالأشكال المتعددة من حيث الخفة والطرافة ودقة الزخرفة . اما العمارات ذوات الخطوط الملونة كالقصر الأبلق [illegible] سنة ١٣٤٠ فناشئة عن استعمال حجارة ذات الوان مختلفة في خطوط متساوية وهو اسلوب يعود الى اصل رومي أو بيزنطي . وجدير بالذكر ظهور المداليات المنقوشة في هذه الحقبة . [illegible] من الزخرفة الاسلامية الأشكال الهندسية والحروف الكوفية . اما الأشكال الحيوانية فقد كانت خلال العصور الاسلامية أقلّ استعمالاً في مصر وسورية منها في اسبانيا وفارس . ولعله من حسن الطالع ان تكون افضل نماذج العمارات الراجعة الى عصر المماليك باقية حتى اليوم وهي من امتع المشاهد التي نقصدها لنسج

وطلاب العلم

حتى إذا كانت أواخر القرن الرابع عشر انتهى عهد المماليك التي أن يكون من أحلك عهود تاريخ سورية ومصر . فكان عدد من سلاطينهم غلاظاً سفاحين ، بل لصوصاً من كان — قلا جلفاً . في حين كان أكثرهم لا يملكون شيئاً من الكفاءة أو الثقافة . فهذا المؤيد شيخ (١٤١٢ — ١٤٢١) ، الذي اشتراه السلطان برقوق من تاجر جركسي ، كان سكيراً يقترف جميع الفظائع . وذلك برسباي (١٤٢٢ — ١٤٣٨) ، وهو كذلك من مماليك برقوق ، لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئه أنه أمر بقطع رأسي طبيبين عندما تعسر عليهما شفاؤه من داء عضال . أما إينال (١٤٥٣ — ١٤٦٠) ، وهو أيضاً من مماليك برقوق ، فكان أمياً يجهل القراءة والكتابة . وعلى الرغم من طول عهد سلطنته فإنه لم يكن يقدر على وضع اسمه على المناشير والمراسيم إلا بعد أن يرسمه الموقع ويرسم خطاً عليه فيعيده هو على ذلك بالقلم . واتهم إينال هذا بحب [illegible] كما اتهم برسباي من قبله . وكانت مشيخة العلماء التي أشير إليها في زمن العباسيين مزدهرة في أيام هؤلاء السلاطين المماليك . أما يلباي (١٤٦٧) ثالث خلفاء إينال فلم يكن أمياً فحسب بل معتوهاً . وأما قايتباي (١٤٦٨ — ١٤٩٥) ، الذي كان برسباي اشتراه بخمسين ديناراً ، فقد أمر بالكيماوي علي بن المرشوشي أن تقطع عيناه ويقطع لسانه لعجزه عن تحويل المعادن السفلى ذهباً .

وقد زاد في سوء حالة البلاد الاقتصادية سياسة السلاطين المعيبة

القائمة على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان برسباي منع استيراد
التوابل من الهند ، وفي حسب القمح المرغوب فيه كثيراً ، وقبل
ان ترتفع اسعاره وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد
وباعها من الناس بسعر حدده له وكان فاحشاً . كذلك احتكر
صناعة السكر وبلغ به الطمع ان حظر زراعة قصب السكر زمناً
لكي يؤمن لنفسه أرباحاً طائلة . وفي عهده اجتاح الطاعون مصر
والسودان عدة مرات ، وهو ضربة تكررت في البلاد تكراراً ، فكثر
الطلب على السكر اذ كان يستخدم علاجاً ضد هذا الداء . ومع ان
الطاعون لم يفتك بالناس فتك « الموت الاسود » Black Death في
اوربا فانه توفي من جرائه ، على ما قيل ، نحو ثلاثة آلاف نسمة في
القاهرة وحدها خلال ثلاثة اشهر . وخاف السلطان من الوباء بحسبه
عقاباً من الله لانتشار المعصية بين الناس . ومنع خروج النساء في
الاسواق عقب ذلك لئلا يصيبهن من ذلك . ثم انه سعى الى التكفير
عن سوء اعماله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ابتزاز الاموال لم يقتصر على غير المسلمين . ولما كانت
الحكومة لا تعرف نظاماً معيناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء
السلاطين سبيل الى جمع الاموال اللازمة لحملاتهم الحربية ولاسرافهم
الفاحش في معظم البلاط وتشييد العمارات الكبرى الا استدرار
الاموال من الرعية ومصادرة اموال ذوي المناصب في الدولة الذين
أثروا على حساب الجمهور . أضف الى ذلك ان قبائل البدو في
الدلتا والصحراء الشرقية كانت تغير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم
في وادي النيل فتنهب زروعهم ولم تستطع الى ذلك سبيلاً . ثم ان

الحروب ، كالأوبئة ، كان يتبع [illegible] البلاد سني القحط والمجاعة حتى أصبح الجوع ظاهرة مزمنة [illegible] في سني القحط والجفاف [illegible] [illegible] في [illegible] وفقدت [illegible] سورية ومصر بسبب ذلك كله في عصر المماليك ثلثي مجموع سكانها .

وفي آخر هذه الحقبة أحدثت بعض العوامل [illegible] البلاد [illegible] . ففي سنة ١٤٩٧ اكتشف الملاح البرتغالي فاسكو دا غاما [illegible] طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح وهو حدث خطير كان له أثره السيء في تاريخ المملكة السورية المصرية [illegible] [illegible] وسورية من [illegible] في البحر الأحمر و [illegible] وكانت بعد ذلك [illegible] حركة تجارية [illegible] من المحصولات [illegible] [illegible] وبلاد العرب [illegible] من الموانئ السورية والمصرية [illegible] [illegible] [illegible] كثيرة .

وفي مطلع القرن الخامس عشر حلت بسورية [illegible] [illegible] من [illegible] كان أشد من [illegible] المماليك . ذلك هو تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي ولد سنة ١٣٣٦ في ما وراء النهر من سلالة [illegible] جنكيز خان [illegible] [illegible] [illegible] من جنكيز [illegible] [illegible] الذي [illegible] [illegible] وكان [illegible] [illegible] وكان [illegible] من [illegible] ارتكاب الجرائم . [illegible] الذي [illegible] في [illegible] [illegible]

تاجري في محمد فطلب فزاد كسرة على قبره فسمي لنك اي
« عرج » . وفي سنة ١٣٨٠ سار على رأس القوات سار في سلسلة
حملات متواصلة احتلت اثناءها تركستان وبلاد العجم وفارس
وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد . ودوّخ ارض
الرافدين . ففي تكريت مثلا ، شيد من جماجم القتلى ، اثنا
هرماً من رؤوس القتلى . حتى اذا كانت سنة ١٣٩٥ زحف على ارض
القفجاق واحتل موسكو ودمرها وفوق ذلك وبعد ثلاث
سنوات غزا الهند الشمالية وقتل مائة الف من اهل دلهي .

وكانت معركة كسح تيمور لسورية الشهيرة سنة ١٤٠١ اشبه
بعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقي ولا تذر . ففي حلب اباح عسكره نحو
ثلاثة ايام يأسرون وينهبون ويقتلون ويستحيون كل شيء . ولقد
عمل تيمور من رؤوس نحو عشرين الف من سكانها اهرامات (كالتي
صنع أكثره) يحيط كل واحدة منها عشرون ذراعاً وارتفاعها
عشرة اذرع جاعلا الوجوه مديرة الى الخارج يراها من يمر بها .
وهدم أحسن ما فيها من مساجد ومدارس ، لم يعد أحد بناءها
حتى الآن . وتوجه تيمور الى دمشق ماراً في طريقه حماة وحمص
وبعلبك . ولم يقو الجيش المصري على الصمود في وجهه فهزم
هزيمة شنعاء . وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حامية بضعة
شهراً . واعمل جيش تيمور في دمشق النهب والسلب والنار حتى
لم يبق من الجامع الاموي الا بعض جدرانه . ومن دمشق اسرع
هذا الغازي السفاح راجعاً الى بغداد ليثأر من اهلها لقتلهم بعض
رجاله فأعمل في المدينة السيف واحدث فيها التقتيل وقطع نحو

فيه مائة وعشرين برجاً من رؤوس ضحاياه .

وفي السنتين اللاحقتين زحف تيمور على آسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند أنقرة في ٢١ تموز سنة ١٤٠٢ وأخذ السلطان بايزيد الأول أسيراً في قفص . واستولى أيضاً على عاصمته بروسه وعلى أزمير . ولحسن طالع المماليك مات تيمور بعد سنتين وهو زاحف لافتتاح الصين تدفعه أشد رغباته وأطماعه . أما خلفاؤه فقد أفنوا قواهم في أثناء حروب وفتن داخلية .

وجاءت الضربة القاضية على الامبراطورية العربية من جانب العثمانيين في أوائل القرن السادس عشر . ولقد سبقت الإشارة الى احتلال الترك العثمانيين في بلاد المغرب والى اختلاطهم بقبائل الايرانية في آسيا الوسطى والى وجودهم في آسيا الصغرى حيث انتزعوا السيطرة تدريجاً من أيدي عدد من السلاجقة والمغول حتى اذا ما جاء منتصف القرن الرابع عشر أنشأوا مملكة كتب لها أن ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية

وفي سنة ١٤٨١ بعثت المشكلة العثمانية في وجه سلاطين مصر فقضّت عليهم مضاجعهم . وبدأت النزعة بين الجنسين تقوى وتعظم . ولقد ظهرت أول أمرها في مناوشات متقطعة بين عمالهما على حدود آسيا الصغرى وسورية . فأدى ذلك تدريجياً الى نشوب الحرب ، وأهم مواقعها معركة مرج دابق بين جيوش المماليك بقيادة قانصوه الغوري (١٥٠٠ - ١٥١٦) وجيوش الترك في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٥١٦ بالقرب من حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون على المماليك انتصاراً باهراً . ولا عجب فقد كانت

تجهيزات الجيش التركي بمعدات الحديثة من المدافع و بندقيات
وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد بعكس معــدات الجيش
المصري فكان الجيش المصري جمعاً من البدو والسوريين
الذين لم يكن لهم خبرة في استعمال هذه الاسلحة زد على ذلك
انه سبق للترك استعمال البارود مدة من الزمن ، في حين احتفظ
الســوريون والمصريون بعقيدتهم القديمــة بأن البطولة الشخصية هي
العامل الحاسم في القتال . وهكذا دخل سليم السلطان العثماني مدينة
حلب ظافراً ورحب به كمنقذ من ظلم المماليك . وما لبثت
سورية بأسرها ان خضعت الى حكومته . ومن ثم زحف هذا الفاتح
جنوباً الى مصر فدخلها سنة ١٥١٧ . وبذلك قضى على سلطنة
المماليك قضاء مبرماً . ولما كانت الحجاز بحاضرتيه مكة والمدينة
ملحقة بالمملكة المصرية فقد اصبح الان يحكم معظم جزء من
البلاد العربية . اما بغداد التي كانت مركز السلطة الاسلامية
في الشرق فباتت مدينة من مدن الامصار ، فخطب الوعاظ من
على منابرها قائلين :

« وانصر اللهمّ السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهمّ انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة يا ربّ العالمين » .

وسواء صحت الدعوى القائلة بأن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين أوصى بالخلافة الى السلطان العثماني ام لم تصح فالامر الواقع ان امير القسطنطينية التركي اكتسب على مسرح متبدلات

الخلافة ، استحدث هذا اللقب أخيراً . ومع أن بعض خلفاء سليم تسمّوا بالخلفاء وخوطبوا بلقب الخلافة فإن هذا اللقب لم يكن إلا من قبيل التفخيم ولم يعترف به خارج مناطق نفوذهم وأول وثيقة سياسية معروفة تشير إلى أن السلطان العثماني لقب الخلافة واعترف له بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية التي عقدت سنة ١٧٧٤ .

وهكذا أصبح سلاطين القسطنطينية الخلفاء أعظم أمراء الإسلام وورثة خلفاء بغداد وقرطبة [illegible] في وقت معاً . ويستطيع الباحث أن يلاحظ أنه بعد استيلاء العثمانيين على سورية ومصر تحوّل مركز السلطة الإسلامية غرباً ، ذلك لأن مركز الحضارة العالمية أيضاً كان قد انتقل في هذا الزمن غرباً ، وحينما اكتشف أميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح بدأ عصر جديد . وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الإسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على أنقاض الإمبراطورية العربية وتبدأ سيطرة العثمانيين على العالم العربي .

العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة

بينما كان الأوروبي يتخبط في ديجور العصور الوسطى كانت البلدان العربية ترتع في عصورها الذهبية رافعة مشعال النور والعرفان. ولقد حدث كذلك في فجوة من الفجوات التي دهمت أوروبا فيها الى أن استولى على دفة الملك ثم الأتراك العثمانيون فقد شاد هؤلاء الأتراك المشيدون امبراطورية من أعظم الامبراطوريات الاسلامية وأطولها عمراً. وهم فضلا عن استيلائهم في صدر القرن السادس عشر على معظم البلدان العربية فقد نشروا سلطانهم [illegible] حتى جبال القوقاس شرقاً وأبواب فينا غرباً وجعلوا من عاصمتهم القسطنطينية التي اغتصبوها من البيزنطيين عام ١٤٥٣م مركزاً تحسب له دول أوروبا حساباً. في هذه الحقبة عمّ الكسوف البلاد العربية بحواضرها المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة، هذه الحواضر

التي كانت قبل ذلك عاصمة الامبراطورية ومركز الخلافة فأصبحت
الآن مقراً لولاة يعيّنهم الباب العالي ومركز [illegible] تتوسم الاستانة ،
تلك المدينة التي تحولت الى عاصمة تفوق أهميتها دمشق وبغداد
غير مرة عندما كانت الاولى عاصمة الأمويين والثانية عاصمة العباسيين

واتسعت الامبراطورية مشابهة بما العصر العربي عناصر
شتى من ارمنية وسريانية وكردية ونوبية وقفقاسية وغيرها لا تخضع
للعنصر الحاكم ولا تجمع بينها بعض الجامعة وتبقى قومية كانت
أو لغوية أو دينية أو ثقافية . وما كان يربط هذه العناصر جميعاً
رابط القوة المسيطرة ليس غير . ومن هنا فقد كانت الدولة تعتمد
حكمها في احتكار النظام ودفع الضرائب والخضوع لنظام قسمه
المراقبة وعسف دواوين الجاسوسية . فلا غرو اذا لم نجد في القرون
الاربعة التي امتدت عام ١٥١٧ أثراً عربياً [illegible] يتصف بالابداع
والابتكار سواء في العلم والأدب أم في الفن .

ولقد قام من السلاطين من حاول اجراء اصلاحات في الادارة
والجندية كسليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ومحمود الثاني
(١٨٠٨ - ١٨٣٩) ، ولكن الصعوبات التي صادفتهم اعاقته
ومثل ذلك كانت نصوص الخط الشريف الذي نشره عبد المجيد الأول
عام ١٨٣٩ والخط الهمايوني الذي نشره عام ١٨٥٦ وقد توخى فيهما
إقامة العدل ورفع الحيف والمساواة بين جميع أفراد الرعية بقطع
النظر عن الدين والمذهب . ولما ان جاء دور عبد الحميد الثاني
(١٨٧٦ - ١٩٠٩) ، حتى قضى على كل نزعة حرة في المملكة
وحبس كل نفس من نوره .

ولكنّ بعض الولايات العربية استطاعت بعض الافلات من هذا
النير المخيف وتتمتع بشيء من الحكم الذاتي . فكانت السيادة
التركية في مصر حتى أوائل القرن التاسع عشر اسمية
فقط . وهي كانت أيضاً كذلك في الجزيرة العربية ولاسيما بعض
المراكز النجدية والغورية بشيء من عمق الحجاز واليمن . أما
الهلال العربي : فهو العراق وسورية الكبرى ، فهي معروفة
خلال هذه الحقبة في سوءة من جور الحكام الأتراك . فعمّ الفقر
وعمّ الجهل وقلّ عدد السكان في هذه البلاد خلا جبل لبنان الذي
احتفظ ابناؤه الدروز في الجنوب والموارنة في شماله بمقدار من
الحرية الفردية والقومية ، والذي تمتع بعهد يعتبر مستقلاً أو شبه
مستقلّ ولاسيما في عهد ولاية الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني
(١٥٨٥ - ١٦٣٥) وولاية الأمير بشير الشهابي الكبير
(١٧٨٨ - ١٨٤٠) وبعد حوادث سنة ١٨٦٠ اعترف للجبل
باستقلال لبنان الداخلي تحت حماية الدول الاوربية الخمس الكبرى .

وكانت مصر اول بلاد عربية انتبهت من سباتها
واحتكت العلاقات الأخوية مع بلدان اوربا الغربية ، وذلك ابتداء
من غزوة نابليون عام ١٧٩٨ . فقد دخل نابليون الى هذا القطر
مطبعة عربية كان قد جلبها من رومة وانشأ اول هيئة علمية يمكن
اعتبارها مجمعاً وبذلك ولدت ، من حيث لم يحتسب ،
شرارة فكرية ما لبثت ان اضرمت نار النهضة فيها . وكان
في الجيش العثماني الذي ساهم في اجلاء نابليون عن وادي النيل
ضابط ألباني الجنس تركيّ الثقافة اسمه محمد علي وهو الذي تمكن

فيما بعد من توطيد سيطرته على البلاد المصرية وتأسيس دولة الخديوية في حضن الخلافة العثمانية. ومن أهم ما قدمه محمد علي من الخدمات للشرق ولمصر خاصة انه عرّض البلاد لاستقبال المؤثرات الخارجية من ثقافية وعلمية وارسل بعثات من الطلبة المصريين الى فرنسا

وكان محمد علي يحلم بانشاء امبراطورية عربية مركزها في عاصمته القاهرة دون ان كان يستند في عروبته على شيء من الوعي القومي او الاستعداد بالاهتمام في جمع شملها. وقد بدأت تتحقق خطوطه القوات الوطنية في الحرب في سوريا عام ١٨٣١ بقيادة ابنه ابراهيم باشا الى سوريا فاستخلصت من ايدي بني عثمان وكادت تقضي على تلك الخلافة بأسرها لولا تدخل انكلترا وغيرها من الدول الاوربية ودعم العرش العثماني المتداعي.

وجاء حكم ابراهيم باشا للبلاد الشامية (١٨٣١ - ١٨٤٠) فاتحة عهد جديد فتحت فيه البلاد ابوابها للبعثات والارساليات الاجنبية، فكثر فيها عدد المعلمين والاطباء والرواد والسياح من بروتستانت وكاثوليك ومن الفرنسيين والبريطانيين والاميركان. ونشأت في البلاد على اثر ذلك مدارس ومكاتب ومطابع اجنبية ووطنية، وتشكلت جمعيات علمية وادبية، وترجمت كتب دينية وفلسفية وعلمية، وكان من نتيجة ذلك كله ان تفتحت العقلية العربية على الفكر الاوربي الحديث وان تسربت الى البلاد افكار جديدة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها من الاراء الحديثة ذات العلاقة بالديمقراطية الغربية والقومية الوطنية. والواقع ان هذه اليقظة التي تمت للشرق العربي من عصوره المظلمة بفعل المدنية الاوربية الغربية

والاميركية قبل غيرها في القرن التاسع عشر كانت الثورات
بالافكار اليونانية وتعرض نهضة العرب في القرن الثاني عشر التي سارت
حيث انبعثت من الشرق الى اوربا.

على ان الجزيرة العربية لم تتعرض لهذه العوامل كما تعرضت لها
اجزاؤها في الشمال، وذلك بسبب دواعي اعتزال الجزيرة الصحراوي
وتحفظها القديمة وتعصب الموحدين فبقيت حضارتها من طراز
العصور الوسطى ولم تصطبغ بألوان حديثة. وليست الاصلاحات
التي حدثت مؤخراً ان تعود على اهل الجزيرة كثيراً من جوهر
الحب. وقد كانت الجزيرة في مطلع الحرب الاوروبية الاولى مركزاً
لحركة قام بها الشريف حسين ترمي الى الوحدة العربية السياسية
وهذه هي المحاولة الثانية لتحقيق هذه الوحدة بعد محاولة محمد علي،
وقد فشلت مثلها لحشد من الاسباب.

وكان من نتيجة الاحتكاك بين الثقافة الغربية والمجتمع الفكري
العربي ان نبتت مبادئ القومية العربية الناشئة واستمدت وحيها
لاكثر من تجربتها السياسية الاميركية بخلاف القومية
التركية التي جاءت متأخرة عن العربية والتي استمدت الهامها من مبادئ
الثورة الفرنسية. واذا كان ظهور مبادئ القومية العربية في العقد
السابع من القرن الغابر على يد رجال الفكر السوريين، وغالبيتهم
من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا في المدارس الاميركية في بلادهم
ووجدوا في مصر الخديوية جواً اكثر ملاءمة لجهودهم العلمية والسياسية

على ان النهضة العربية كانت في مبادئ امرها حركة فكرية مجردة
قوامها احياء اللغة العربية ودرس آثارها والاشادة بماضي العروبة

المجيد . ولا شك ان استوحت من الماضي ، تطلع الى المستقبل فحركت وراءها يقظة قومية سياسية تستهدف الاستقلال السياسي والوحدة العربية . غير ان هذه اليقظة القومية السياسية تطورت فيما بعد وتنوعت بحسب الوحدات المجزأة والمشاكل الموضعية التي اصطدمت بها ؛ فحدث في مصر بعد عام ١٨٨٢ شكل المقاومة للاحتلال البريطاني وفي سورية شكل المقاومة للسياسة التركية وسياسة التتريك التي اعقبت حركة تركيا الفتاة . وكذلك كان شأن فلسطين التي توحدت فيها بعد الحرب العالمية الاولى قومية فلسطينية بفعل الاصطدام بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية ، وشأن العراق الذي تمخض عن روح عراقية نتيجة مقاومة الانتداب البريطاني . وفي البلاد العربية اليوم حركة ترمي الى جمع شمل في اتحاد عربي من دعائمه الاولى الثقافة والاقتصاد .

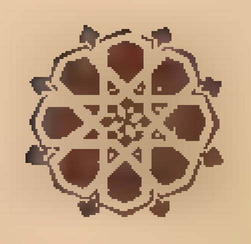
ومما لا ريب فيه ان القومية الحديثة انما هي صناعة غربية استوردها العالم ، ومنه الشرق العربي ، من اوربا الغربية . وقد تقبلها مفكرو الشرق عن قصد او عن غير قصد في سبيل التجدد واطراح القديم والاخذ بالعصرية والاتجاه نحو اهداف الحضارة الغربية .

والواقع ان تعرض العرب للعوامل الاوربية الغربية وما نتج عن ذلك من الوعي القومي هو اكبر حدث في تاريخ الشرق العربي في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . واذا صح الاستنتاج بالقياس على الاحداث التي شهدها القرن التاسع عشر فسيكون هذا الدور الذي يجتازه الشرق العربي اليوم دور ابداع وابتكار يقوم فيه ابناء العربية فيحطمون من حدة الصدمة والاجنبية .

فهرست الأعلام

فهرست





ثمن النسخة

في [illegible]

في [illegible]

[illegible] بيروت










32101 085174173